

التصوف في مصر إبان العصر العثماني

تأليف

الدكتور توفيق الطويل



تاريخ المصريين

٢١

الفلاف : اسامة سعيد

الاخراج الفنى : محمد قطب

التصوف في مصر إبان العصر العثماني

تأليف

الدكتور توفيق الطويل



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

تقديم

ربما كان هذا الكتاب الذى أقدمه لقارىء هذه السلسلة عن « تاريخ المصريين » أهم هذه الكتب فى تخصصه ، وأكثر من ذلك أنه فريد فى موضوعه ، فلم يسبقه أوليحقه عمل علمى يعالج تلك الفترة بمثل هذا العمق ، ويعتبر الأساس الذى بنيت عليه كل الأعمال العلمية التى تناولت هذا الموضوع أوجانباً منه .

وقد عرفت هذا العمل العلمى حين كنت طالبا بكلية آداب القاهرة فى عام ١٩٥٤/١٩٥٥ ، عندما كان يحاضرنا فى حضارة مصر الحديثة الدكتور أحمد حسين الصاوى ، قبل أن ينتقل بتخصصه إلى ميدان الصحافة ، ويصبح أستاذا بالجامعة الأمريكية . وكان هذا الكتاب أحد المصادر الرئيسية التى أشار علينا الدكتور أحمد الصاوى بالاطلاع عليها ، وقد عانيت مشقة كبيرة فى الحصول عليه بالشراء ، إذ كان الكتاب قد نفذ من السوق قبل سنوات ، فقد صدرت طبعته الأولى فى يوليو ١٩٤٦ ، ونفدت ، وظل مرجعا شاق الحصول عليه الى أبعد الحدود .

ومنذ ذلك الحين لا يكاد يذكر اسم هذا الكتاب حتى أتذكر مشقة العثور عليه وأتساءل عن السبب الذى دفع الأستاذ الدكتور توفيق الطويل إلى عدم إعادة طبعه حتى الآن ، ليكون فى خدمة الباحثين . وقد حاولت منذ أسندت إلى رئاسة تحرير سلسلة « تاريخ المصريين » ، التى جعلت من رسالتها إعادة طبع الأعمال العلمية الهامة التى نفذت طبعاتها من السوق ، والتى حُرم القراء والباحثون من الاطلاع عليها - أن أتصل بالأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، للحصول على إذنه بإعادة طبع كتابه الهام، ولكنى لم أوفق ، حتى حصلت مؤخرا على رقم تليفونه من صديقى الدكتور حسن حنفى ، فاتصلت به ، وأقنعتة بالموافقة .

ومن هنا ، فاعتقد أننى أسعد الناس بإعادة طبع هذا الكتاب الهام الذى نفذ من السوق منذ أربعين عاما ، ليسد فراغا علميا لم يملؤه أحد منذ ذلك الحين ، وليخدم الباحثين فى مادة تخصصه .

وكان من الطبيعى أن أحرص على تقديم الكتاب فى نصه دون أى تحريف أو تغيير ، ابقاء على روحه ، وحفاظا على جوهره ، وإيمانا بأن الكتاب بنصه الحالى يمثل إضافة علمية هامة ، وأن أهميته لم تقل - ان لم تزد - على طول الأعوام الأربعين السابقة .

ومن المعروف أن الأستاذ الدكتور توفيق الطويل هو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة كما أنه عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو علم من أعلام حياتنا العلمية ، وقيمة من قيم حياتنا الفكرية، وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية (فرع الفلسفة) فى عام ١٩٨٣ ، كما أنه عضو بالمجلس الأعلى للثقافة (الذى تشرفت مؤخرا بعضوئى فيه) كما أنه عضو بالمجلس القومى ، وله مؤلفات هامة منها : أسس الفلسفة ، وفلسفة الأخلاق ، والعرب

والعلم فى العصر الذهبى ، والشعرانى إمام التصوف فى عصره ، فضلا
عن البحوث والدراسات الأخرى المنشورة فى المجلات المصرية
والعربية ، وترجمته لعدد من الأعمال ، مثل « الفلسفة والالهيات » فى
كتاب « تراث الاسلام » لألفريد جيوم . وقد صدر له مؤخرا كتاب :
« فى تراثنا العربى الإسلامى » فى سلسلة عالم المعرفة فى مارس ١٩٨٥ .

ومن هنا فلعلنا بإعادة طبع هذا الكتاب الهام « التصوف فى مصر ابان
العصر العثمانى » للأستاذ الدكتور توفيق الطويل أكون قد حققت أمنية
غالية حفظتها فى صدرى قرابة ثلاثين عاما ، وأكون قد خدمت العلم
وخدمت تاريخ المصريين خدمة جلى ، وقدمت للقراء والباحثين المتعة
الذهنية الرفيعة المستوى ، ودفعتهم إلى التفكير .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

فهرس الكتاب*

صفحة	
١٦ - ٦	مقدمة الكتاب
٣٢ - ١٧	مقدمة تاريخية عن : العصر العثماني في مصر
	عصر السلاطين ١٧ - تطلع العثمانيين لامتلاك مصر ١٨ - مصر في عهدهم : حالتها السياسية ١٩ - حالتها الاقتصادية ٢٠ - حالتها الاجتماعية ٢٢ - حالتها العلمية ٢٣ - تطور أحوالها في القرن الثامن عشر (في السياسة والعلم) ٢٩
١٠٣ - ٢٢	الكتاب الأول : في الطريق
٣٥	تمهيد في صلة الكتاب الأول بما بعده
	الفصل الأول
٥١ - ٣٦	أظهر معالم التصوف في مصر قبل العصر العثماني
	التصوف قبل العصر العثماني ٣٦ - أنواع المعبود في مصر ٣٨ - الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا في مصر ٣٩ - نشأة التصوف في مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثماني ٤٣ - بعض مظاهر نفوذهم قبل العصر العثماني ٤٧
	الفصل الثاني
٧٠ - ٥٢	أظهر معالم الطريق في مصر إبان العصر العثماني
	تمهيد في اتصال المصريين (المملوك والتماني) ٥٢ - حقيقة التصوف في العصر العثماني ٥٤ - احصائية أيام الزمان ٥٧ - العبادة في رحاب الزوايا ٦٠ - الذكر ٦١ - سندهم في ذكر الله ٦٢ - قبة الذكر في عرفهم ٦٢ - طريقة الذكر ٦٣ - آداب الذكر ٦٦ - ثمرات الذكر ٦٧ - الخلوة ٦٧ - التزامات الخلوة ٦٨ - ثمرات الخلوة ٦٩ - أركان الطريق ٦٩
٨٩ - ٧١	الفصل الثالث : في الطرق الصوفية
	نشأة الطرق الصوفية ٧١ - حال الطرق في وقتنا الحاضر ٧٣ - احصائية بالطرق أيام العثمانيين ٧٥ - مميزات الطرق ٧٩ - ثلاثى الفروق بين الطوائف ٨٧

صحيفة

الفصل الرابع

مشيخة مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية

تمهيد ٩٠ — رأى جرجى زيدان في نشأتها ومناقشة مزاعمه ٩١ — رأى
اليد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه ٩٤ — نشأة هذا اللقب في مصر
قل العصر العثماني ٩٧ — تلاشي اللقب في العصر العثماني ٩١

الكتاب الثاني

نفوذ شيوخ الطرق أحياء وأمواتا
(تمهيد في ربط الكتاب الثاني بما قبله وما بعده)
١٩٩ — ١٠٥
— ١٧٠

الفصل الأول

نفوذ شيوخ الطريق — ١ — أحياء
١٤٠ — ١٠٨
بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان ١٠٨ — تحررم من عرف البلاد ودينها
١٠٩ — مفارقات مصر ١١٤ تحررم من نظم الدولة وقوانينها ١١٧ —
تقدم على العرف السائد عند أرباب الطريق ١٢١
بعض مظاهر نفوذهم
١٤٠ — ١٢٤

دنيا الصوفية الروحية وحكامها ١٢٤ — تقسيم مصر بين الأولياء إلى مناطق
نفوذ ١٢٥ القطبانية ونفوذ أهلها في مصر ١٢٨ — آفاق نفوذهم في
مناطقهم ١٣٠ — بعض آيات نفوذهم عند المريدین ١٣٤ — وعند الحكام ١٣٥
٢ — نفوذهم أمواتاً
١٤٩ — ١٤١

جلال الموت ١٤١ — الأميون من مدعى الولاية ١٤١ — العلماء من مدعى
الولاية ١٤٣ — نظرهم إلى من أخذ العهد على موتى الأولياء ١٤٤ —
الطوائف التي سلكت الطريق على موتى الأولياء ١٤٦
أسباب انتشار التصوف
١٦٢ — ١٥٠

صلاحية مصر لانتشاره ١٥٠ — الترف في معيشة أرباب الطريق ١٥٤
سقوط التكاليف الدينية عن مدعى الولاية ١٥٥ — حالة مصر تحت الحكم
العثماني ١٥٨ — حب الأتراك للدروشة ١٦٢

الفصل الثاني

الإنكار على أرباب الطريق
١٩٩ — ١٦٣
تمهيد ١٦٣ — حملات الناس ١٦٦ — موقف النكرين من الجنود

صحيفة

والحكام ١٦٨ — الحقد في صدور الفقهاء ١٦٩ — بعض مظاهر المقاومة
العملية ١٦٩ — التناسب الطردى بين حقد الفقهاء وعلم أرباب الطريق ١٧١
بعض مظاهر الحقد النظرية ١٧٥ — تصوف الفقهاء الذين انتصروا لمشايخ
الطرق ١٧٩ — بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف ١٨٠ — موقف
المتصوفة من الفقهاء ١٨٢ — استمرار النزاع إلى اليوم ١٨٤ — حملات
أرباب الطريق (على اخوانهم في الطريق) ١٨٤ — بعض مظاهر المقاومة
العملية ١٨٦ — بعض مظاهر المقاومة النظرية ١٨٨

٣ — أسباب الإنكار على أرباب الطريق ١٩٠ — ١٩٩

أسباب الإنكار عند الناس والجنود وأرباب الطريق ١٩٠ — أسباب الإنزاع
عند الفقهاء ومشايخ الطرق : الخلاف في وجهة النظر ١٩١ — إباحة التأويل
لأهل الله ١٩٢ — اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله ١٩٥ — التنافس من
أجل الدنيا ١٩٩

فصل ختامى عن :

أثر التصوف في توجيه الحياة المصرية ٢٠٠ — ٢٢٨

تمهيد ٢٠٠ — نفوذ أرباب الطريق عند المصريين ٢٣٠ — المجاورون ٢٠٣
الأنبا والمحبون ٢٠٥ — أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في العصر
العثماني وما بعده ٢٠٨ — موقف الاسلام من هذا التوجيه ٢١٧ الاسلام
والحياة العملية عند أهله ٢١٧ — الاسلام والحياة العقلية عند أهله ٢٢٠ —
الاسلام والحياة العملية عند أهله ٢٢٤

مقدمة الكتاب

يقولون إن غاية التفكير الاهتداء إلى الحقيقة ، وأن الجهل بالحقائق يؤدي بالإنسان إلى متابعة النظر ومواصلة التفكير أملاً في الاهتداء إلى حقيقة الحقيقة ، وأن ذلك ينتهي بصاحبه إلى أن ينقض في يومه ما اهتدى إليه في أمسه ، ويشور في غده على ما استقر عليه في يومه ، وبذلك جعلوا التفكير عملاً يقوم به الإنسان ليحقق غاية وضعها لنفسه ووطن العزم على بلوغها ، وقد يكون هذا صحيحاً في بعض حالاته ، ولكن الأصح كذلك أن يقال إننا نفكر منساقين بطبيعتنا إلى التفكير ، وبذلك يكون التفكير غاية في نفسه — إن صح هذا التعبير — فلما نفكر لأننا نريد أن نفكر ، أو لأننا نريد الاهتداء بالتفكير إلى حقيقة مجهولة ، ولكننا نفكر — لأن التفكير وظيفة طبيعية للعقل ، كما نرى لأن الرؤية وظيفة طبيعية للنظر ، والإنسان لا يرى الأشياء ليكشف عن رؤيتها يوماً من الأيام ، ومتى كان سليم النظر دقيق الحس أثر العودة إلى رؤية الجميل منها وإطالة النظر إليه ، والاستمتاع به ، وهو لا يمل إدمان النظر إلى الشيء الجميل إلا إذا أصاب عينيه كل أو أدرك حسه نقص ، فالفنان الذي أوتي دقة الحس يرى مناظر الطبيعة فيعجب بها ويستمتع بجمالها ، وكلما أطال النظر إليها ازداد شغفاً بها وحباً لها وإقبالاً عليها ، وقد يحس في لحظة من لحظاته أنه قد أخذ من الطبيعة زاده واستوفى حاجته ، فيفر منها ويهرب من النظر إليها ، ولكنه سرعان ما يطلب العودة إليها والاستمتاع بجمالها ، وكذلك حال التفكير عند الإنسان من بعض الوجوه ، هو وظيفة طبيعية للعقل ، ولهذا فنحن لا نفكر لكي نتوقف عن التفكير في الموضوع الذي فكرنا فيه وتنصرف إلى غيره يوماً من الأيام ، ومتى كان العقل سليماً وموضوع التفكير ملائماً له ، أحس الإنسان بالحنين إلى إدمان التفكير فيه وإطالة النظر إليه ، وقد يشعر في

لحظة من لحظاته بأنه أخذ حاجته العقلية من موضوعه واستوفى منه زاده ،
فيهرب منه إلى موضوع آخر وينصرف إليه تفكيره ، ولكنه سرعان ما يحس
بالحنين إلى العودة للتفكير في موضوعه الأول ، فيبادر إليه ويتولاه بالنظر
حتى يهتدى إلى نقض ما رضى به من قبل ، أو تدعيمه على أسس جديدة .
ومن هنا انقضت حياة الكثيرين من المفكرين في تأييد فكرة أو شرح
مذهب أو نقض رأى . . . وكثرت مؤلفاتهم يؤيد بعضها بعضا أو ينقض
آخرها ما جاء في أولها .. تلك طبيعة العقل البشرى في أداء وظيفته .

ومن هنا كان موقف الباحث من بحثه شيئا بموقف القاضي عند الرحيم
البيساني للعماد الكاتب الأعباني في اعتذاره عن كلام استدركه عليه إذ قال :
« إنه وقع لي شيء ولا أدري أوقع لك أم لا ، وهأنا أخبرك به ، وذلك أني
رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده :

لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا
لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل
على استيلاء النقص على جملة البشر (١) .

ولعله ، فوق ذلك دليل على ما أسلفت الآن شرحه حين قلت إن العقل
ينساق إلى التفكير بطبيعته ، وأن مواصلة النظر في الموضوعات التي تلائمها تحلو
له وتلد كثيرا ، وأن من شأن هذا أن يكشف لصاحبه عن آفاق كان يجهلها
وينتهي به إلى الندم على ما كتب . . .

على أني وضعت هذا البحث منذ ثمانين سنوات ، وترددت من أجل هذا في نشره
طوال هذه الفترة ، ولكن الإنسان لا يفكر لنفسه ، أو هو لا يقنع إذا ارتاد
بجهولا وكشف غامضا إلا بأن يشرك الأغيار فيما ظفر به واهتدى إليه ، ومن
هنا كان حرصى على نشر هذا البحث بعد انقضاء هذه الأعوام الطويلة على
وضعه . . . وقد حرصت عند نشره على الإبقاء على أسلوبه وروحه على قدر
الاستطاعة ، وإن كنت قد اضطررت إلى حذف جملة من فصوله وردت

(١) الزبيدي : أنحاف السادة المتقين ج ١ ص ٢

خلاصتها في كتابي عن « الشعرائي إمام التصوف في عصره »، إذ كان الشعرائي روح العصر العثماني وعملاته علما وتصوفا، فأثر في توجيه آرائه، وتحديد تياراته وطبع العصر كله بطابعه، وقد آثرت ألا أكرر هنا ما ذكرته في كتابي عنه، وإن كان موضوع هذا الكتاب أعم وأشمل^(١) ..

قلت إن الباحث لا يفتأ بعيد النظر فيما يكتب، ويتناوله بالتعديل والحذف والإضافة، وأنه قد يندم على كل ما كتب .. وإذا صح هذا في كل بحث عقلي فهو أصح ما يكون في بحث مثل هذا البحث الذي يعرض لموضوع بكر لم تطرقه أقلام الباحثين من قبل، لأن التصوف الإسلامي لم يخضع للبحث العقلي إلا منذ أمد قصير، وتكاد عنايه المستشرقين والشرقيين به، أن تكون مقصورة على مراحل الزاهرة، حين تحول إلى نوع من التفلسف والنظر العقلي تتجاوز بأهله مجرد العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وهي المظاهر الأولى للتصوف الإسلامي فيما يقول ابن خلدون، وإذن فقد غنى الباحثون بالتصوف حين أصبح التفلسف — لا الإيمان — طريقا إلى الله، وعندما انصرف أهله إلى مذاهب في المعرفة والوجود ونحوهما، فلما عاد التصوف سيرته الأولى، وأصبح في عصره المتأخر — كما كان في عصره الأول — عمليا لا نظريا، انصرف عنه أهل البحث وأهملوا دراسته.

والملاحظ أن التصوف في هذا الدور الأخير قد دخله الدجل وتحول من ظاهرة نفسية فردية، إلى ظاهرة اجتماعية يشارك فيها جمهرة الناس، ومن هنا

(١) كان لصوفية العصر العثماني نظرات وآراء في مختلف نواحي الحياة : العلمية والعقلية والسياسية والخلقية والعملية، وقد كتبنا عن كل منها فصلا مسهبا مزودا بفيض من النصوص ثم لاحظنا أن خلاصة هذه النصوص قد وردت موجزة في كتابنا عن الشعرائي فحدثنا من كتابنا عن التصوف وهذا إلى جانب نصوص أخرى يلعبها قارئ الكتابين، ومن هنا كان كتابنا عن الشعرائي ضروريا لقارئ هذا الكتاب.

كان خطره في حياتهم وتأثيره في شتى مراقيها ، ويبدو هذا الدور في أكمل صورته وأوضحها ، في تصوف مصر أيام العثمانيين ، وهذا هو موضوع الكتاب الذي نحن الآن بصدده ، وقد كانت لفظة طيبة موفقة من أستاذنا محمد شفيق بك غربال أن يشير بدراسة هذا الموضوع ، في العصر المظلم الذي لم يدرس بعد ، وأن يتابع اهتمامه بخطوات البحث ويحرص لإبانه على تزويدي بالقيم من ملاحظاته .

وقد شجعتني على هذه الدراسة كثرة المصادر التي وضعت في هذا العصر ، والكثير منها ينطوي على مادة طيبة وهي خير زاد للباحث الذي يريد أن يرتاد آفاق هذا الموضوع البكر المظلم ويميل إلى الضرب في ميادينه والسير في مسالكه الوعرة ، وهذه المصادر — من المخطوطات خاصة — ما زالت بكرام تعبث بها يد ولم يتجه إليها نظر ، وفي هذا ما يغري بمتابعة التفكير ومواصلة النظر . وقد ظننت بعد دراستي لهذا الموضوع أني وفقت في الاهتمام إلى كنوز كانت تنطوي عليها هذه الآفاق المجهولة التي كنت أرتادها ، والإنسان — كما قلت من قبل — لا يقنع إلا بأن يشرك الأغيار فيما ظفربه واهتدى إليه ، ومن هنا كانت رغبتي في نشر هذا الكتاب ، وإن طال الأمد على تحقيق هذه الرغبة ولشد ما رضيت عن هذا الموضوع بعد أن تكشفت لي الكثير من آفاقه المظلمة فقد عرفت « فجأة » — وعلى غير إنداز سابق ، أنه يساهم في تحقيق أمل كنت شديد الحنين إلى تحقيقه منذ زمن طويل ، وقد اتجهت هذه المفاجأة بالموضوع — وأنا في منتصف الطريق — اتجاها لم يطف بخاطري من قبل ، وقبل البدء في بيان ذلك ، يحسن بي أن أبرر وقوع « المفاجآت » في البحث العلمي ، وضرورة الاغتراب بها متى وقعت :

يقتضى منهج البحث العلمي أن يبدأ الباحث موضوعه وهو على جهل به ، فإن لم يتنبأ له هذا الجهل وجب أن يصطنعه فيتجاهل موضوعه ، ويحاول أن ينسى كل ما يعرفه بشأنه ، فلا يضع في مستهل دراسته رأياً ويعمل طوال بحثه على تأييده أو نقضه ، فإن ذلك من شأنه أن يلفت الباحث لكل ما يؤيد

وجهة نظره ، ويعميه عن كل ما ينقضها ، ويبعث في عقله الشك في أمرها ... وقد كان هذا منهجى في بحث هذا الموضوع ... جعلت غاية البحث هي البحث نفسه ، أو هي معرفة المجهول من آفاق الموضوع والقناعة بهذه المعرفة ، وذلك متفق مع ما أسلفته في مستهل المقدمة حين قلت إنا تفكر لأن التفكير وظيفة طبيعية للعقل ، وأن الذى يفكر لأنه يريد تأييد حقيقة أو نقضها إنما يتكاف ما يفسد بحثه ويصطنع ما يشوه تفكيره ، ومضيت في بحثى على هذا الأساس ، فإذا بالنور الذى انبثق في آفاق الموضوع من وراء هذه الدراسة المتواضعة يهدينى إلى اتجاهات لم تكن في خاطرى يوم بدأت الدراسة ، وكان أعظمها خطرا هذا الاتجاه الذى وجه البحث إلى هذه الوجهة الجديدة التى تناولها الآن بشئ من الإيضاح :

حاول بعض علماء الاجتماع أن يفلسفوا ، التاريخ ، وأن يقدموا للمؤرخين تفسيراً جديداً لظواهره قائماً على أحدث النظريات التى اهتدى إليها المحدثون من علماء النفس وغيرهم ، وأثارت محاولتهم ضجة كبيرة عند قرائهم ، وهيات للنقاد منهم سبيل الهجوم على اتجاههم في تفسير التاريخ ، ولكنها كانت محاولة ممتعة شائقة فوق أنها كانت خطوة لها خطرهما العظيم في تطور التاريخ عند أهله .

و كنت كلما طافت بخاطرى هذه المحاولة قلت إن مصر أحوج بلاد الأرض إلى هذا النوع من التاريخ ، إن تاريخها إلى اليوم قائم في الجملة على تاريخ ملوكها وحكامها ، أما شعبها فليس له حساب عند أكثر المؤرخين - حتى العدول منهم - والمؤرخ الذى يعرض لتفسير الحياة فيها لا يستطيع قط أن يفهمها على وجهها الصحيح قبل أن يتناول بالدراسة المفصلة كل مامر بأهلها من حركات دينية وحضارة إسلامية ، فإن المصرى منذ عهد الفراعنة الأقدمين رجل شديد التدين ، وآثاره التى لا تزال قائمة إلى يومنا الحاضر تشهد بصحة ما نقول ، وتحول المصريين من الوثنية إلى المسيحية ومن المسيحية إلى الإسلام

لا ينقص ما نقول ، وليس هنا مجال الحديث عن أسبابه ، وإنما الذى يعيننا الآن أن نقوله ، هو أن الأفكار التى تفشو عند مثل هذا الشعب متصله بالدين تتحول عنده إلى عقائد ، والعقيدة كما يقول المحدثون من علماء النفس - من شأنها أن تستبد بهوى أصحابها وتحملهم على جناحها وتوجههم فى تيارها ، ولهذا كانت كل محاولة يراد بها تفسير الحياة المصرية على غير فهم واضح لآثار الحركات الدينية فى نفوس المصريين ، إنما هى محاولة باطلة لا طائل تحتها ولا نفع من ورائها ...

ومن هنا كان اغتباطى الشديد بالمفاجأة التى عرضت لى أثناء بحثى لهذا الموضوع ، لأنها أوحى إلىّ بأن البحث محاولة للمساهمة فى تحقيق الأمل الذى احتل خاطرى منذ زمان .. وهدتنى هذه المفاجأة إلى أن أتجه بالبحث انجهاها جديدا أحاول فيه أن أفسر الحياة المصرية - أو الكثير من ظواهرها - على ضوء التصوف ... ففعلت ذلك ... وأرجو أن أكون قد وفقت فيه . ولقد كان توفيقا من الله أن أختار التصوف وفى العصر العثمانى وحده ، فإن التصوف كان فى اعتبار الناس زبدة الدين وخلاصته ، وقد شاع واستفحل أمره واستشرى دأؤه واستبد بعواطف المصريين ، وكان أكبر العوامل فى توجيه حياتهم فى هذا العهد وما بعده ، ولم يتبها لأهله هذا النفوذ الذى مكّنهم من السيطرة على الحياة المصرية إلا قبيل العصر العثمانى - على ما سنعرف بعد - فكان اختيار العصر كذلك توفيقا فوق التوفيق الذى عرفنا بعض مظاهره فيما سلف .

ولقد لاحظت أن التصوف وإن كان يقدم حلولا للكثير من المعقد فى ظواهر الحياة المصرية فإنه لا يقوى وحده على تفسير بعضها ، ولهذا فإن شباب الجامعة الذين يقومون بأعداد الرسائل السلبية لو تعاونوا على كشف الغامض فى الحركات الدينية التى مرت المصريين ، وحاولوا بيان ما كان لهذا من سلطان على نفوسهم ، وأثر فى توجيه حياتهم ، لاستطاع الباحث فى الحياة

المصرية أن يتخذ أبحاثهم نواة لبحث قيمه وفلسفه ، به التاريخ المصرى ،
مفسرا ظواهره تفسيراً جديداً لا يقوم على تاريخ حياة الملوك ولا يستند إلى
تتابع الدول التى تولت الحكم فى مصر ، وإنما يدرس الملوك والحكام من
خلال الشعب ومآمر به من تيارات وشغل عواطفه من موجات ، ومن فعل
ذلك فقد حقق الأمل الجميل الذى كنت شديد الحنين إلى تحقيقه حتى اعتبرت
محاولة المساهمة فيه توفيقاً يبعث الرضا فى نفسى ويشيع الاغتراب فى كيانى .
وإنها لمحاولة شاقة حقاً ، ولعل أشق ما فيها أن سبل نقد ما ميسرة لكل
قارىء ، واتجاهات الذهن فى مثل هذه الموضوعات كثيرة متشعبة ، ولكل
منها ما يؤيده ويبرر وجوده ، ولا أظن أن وجهة اتجاها منها دليل على ضعف
الاتجاه المباين له ، فقد تنصب على الموضوع الواحد وجهات نظر مختلفة أكثرها
مقبول عقلاً دون أن يكون فى ذلك تناقض ما . . . والعبرة بعلاج الموضوع
ومنهج درسه وفهمه . . . وقد حاولت فى كتابى أن أدرس التصوف
فى أرحب آفاقه مقيداً بالزمان والمكان اللذين يحملهما العنوان ، فدرست علاقة
تعاليمه بالناس فى مختلف طبقاتهم وشتى هيئاتهم ، أثرياء وفقراء ، حكاماً
ومحكومين ، حلة ومستنيرين ، وإن كنت قد أهملت التوسع فى دراسة علاقته
بالطوائف الأخرى من أقباط ويهود ، وذلك لأن التصوف الذى قام فى مصر
إبان العصر العثمانى لم يتأثر كثيراً بالمسيحية أو اليهودية التى عاصرتة ، وإن
وجدت وجوه شبه بينه وبين المسيحية فى كثير من الوجوه ، إذ كان التعصب
شائعاً إبان هذا العصر بين المسلمين وغيرهم من سائر الطوائف ، وكان من
مظاهر هذا التعصب ما نراه فى بعض وثائق للسادات الوفائية من كثرة
الشكاوى التى رفعها المسلمون للحكام يطلبون فيها منع اليهود من المرور
بمقابر المسلمين والصالحين إلى مداقبهم ، وتعبيرهم عن ذلك بقولهم : لهم
حفرة معدة لدفن الهالكين منهم ، ثم قولهم : إن الأرض الموقوفة
على المؤمنين لا يجوز سلوكها للكافرين بإجماع المسلمين (١) ثم ما سنعرفه

(١) أوراق تاريخية (مخطوطة وفيها عدة شكاوى بهذا المعنى) .

عن موقف الأزهريين وعامة الشعب من فتوى الشبراوي التي أباح فيها للمسيحيين أن يحجوا إلى أماكنهم المقدسة ، وما كان من رجم موكبهم بالطوب والحجارة وهدم كنائسهم والإعتداء عليهم جهازاً . . . وما سنراه من موقف الناس من ابراهيم عصفير وملامته لأنه كان يبيت عند الرهبان في الكنائس . . . وتعبير الكتاب المستترين في هذا العصر عن المسيح - عليه السلام - بقولهم « المسيح الدجال » . . . ثم النظر إلى هدم الكنائس على أنه مفخرة لصاحبه^(١) . . . وإن كان ذلك لا يمنع من قبول الرأي الذي أرتآه من قبل جمهرة المستشرقين من أن التصوف الإسلامي قد تأثر بعوامل خارجية كانت المسيحية من بينها .

هذا ولم يكن في وسعي أن أستخلص العناصر المصرية في التصوف الذي قام أثناء هذا العصر ، فقد كانت القومية لفظاً مجهول المعنى والدلالة في العصر العثماني ، وكان الدين هو الوحدة التي تربط الشعوب الإسلامية على اختلاف جنسياتها ، وقد كانت الرحلات - التي اعتبرها العلماء مظهراً من مظاهر العبادة ، تساعد مع وحدة الدين واللغة على إيجاد التشابه بين التصوف في مصر وفي غيرها من الشعوب الإسلامية - وما أكثر ما صادفنا في كتب التراجم والتاريخ والمناقب من نصوص تشهد بصحة ما نقول ، حتى لقد كانت الإجازات في التصوف والفقه تمنح بالمراسلة . . . بل لقد كانت مصر محط المتصوفة من أهل المغرب وتركيا وفارس والشام ، وحسبنا أن نذكر أن أبا القاسم المغربي + ٩٦٠ قد دخل مصر وفي صحبته خمسمائة فقير كما يقول بترحمو حياته^(٢) .

ومن قرأ كتاب الأستاذ كوبولاني^(٣) ، لا يملك إلا الدهشة من وجوه التشابه بين التصوف في المغرب والتصوف في مصر ، وقد أقتنى هذا الكتاب الضخم بأن استخلص العناصر المصرية في موضوعي « أمر عسير » بل إن

(١) في الكواكب الدرية ج ٣ ص ١٢٩ مثال يؤيد ذلك .

(٢) السنا الباهر تكميل النور السافر ص ٧٣ (مخطوط)

(٣) Les Confreries Religieuses

التصوف في بدايته بمصر قد قام به الغرباء ، فان الخواتق والربط والزوايا
أنشئت في بداية أمرها للواردين من البلاد الشاسعة كما سنعرف ، والتصوف
كان في هذا العصر تقاليد يرثها مشايخ الطرق جيلا بعد جيل حتي كان شيخ
الطريق أو العالم إذا مات في مصر أقيمت له صلاة الغائب في الأقطار الإسلامية
النائية . (١) ولهذا دلالة ومغزاه ، وذلك فوق أن مثل هذا البحث لا يقوى
على الاضطلاع به إلا من تزود له بمعرفة التركية والفارسية وكان على علم
واسع بالتصوف الذي قام عند الفرس والأتراك والمغاربة . . . وهذا عمل
حسبنا في الدلالة على مشقته وصعوبته أن نذكر أن التصوف لم يؤرخ إلى
يومنا الراهن .

ثم إن عنوان الموضوع لا يتطلب هذا الجهد ، أو على الأقل لا يحتتمه ،
وشتان بين التصوف في مصر والتصوف المصري ، ولقد كانت هذه الملاحظة
تعينني عن هذا الدفاع كله ، ولكن تفصيلي في الدفاع مرده إلى نقد وجه إلى
في هذا الصدد .

وهذا الكتاب محاولة جريئة تحفها الأخطار من كل جانب ، ولهذا كان
فراغى منها - أو توهمى الفراغ منها فما يفرغ الانسان من بحث يحبه - بشيع
في نفسى روحا وطمأنينة - ولقد كانت محاولة شاقة مرهقة كما قلت ، فإن
مصادرها التي قلت إنها كانت تحت يدي ، وأن كثرتها كانت تحملني على الشكوى ،
لم تكن ميسورة كما يتصور القارئ لأول وهلة ، فلقد كانت طرق العثور عليها ،
ووسائل الاطلاع على ماضمت بين دفتيها ، والعمل على ترك الغث منها وتخليص
الطيب من مادتها ثم فهمه واستغلاله في إقامة كيان هذا البحث . . . كان هذا
كله شاقاً وعراً ، وحسبي الآن أن أقول إن دور الكتب عندنا مازالت إلى
اليوم مخازن لمؤلفات الكتاب ، وأن القائمين عليها يجهلون من أمرها - في
الأغلب والأعم - ما يجمله الراغبون في استعارتها ، وأكثرهم قد اتصلت

(١) الكواكب السائرة ٢ ص ١٦٠ (لأبي العباس الحريثي - ٩٤٥ هـ ، ص ١٩٢

لأحمد ابن عبد الحق السباطي - ٩٥٠ هـ ، ص ١٩٥ للتوحى الحنبل . . . الخ

مهنته بالكتب على غير رغبة منه أو منفعة تتطلبها مصلحة العمل ، وفهارس هذه الدور لم تنظم على وجه ييسر البحث لأهله ، والإعارة الخارجية للخطوط - التي اعتمدت عليها كل الاعتماد - ممنوعة منعاً باتاً ، ووسائل الإعارة الداخلية ملتوية غير منظمة تستغرق وقتاً يضيق به أهل البحث ، وهذا فوق أن أظهر ما يميز المخطوطات خطها الرديء وكثرة الغث في مادتها والمبتذل في معانيها وغير ذلك ، وذلك كله فوق أن الموضوع بكر وعمر لم تيسره أبحاث الباحثين من قبل .

ثم مشايخ الطرق الذين اتصلت بهم . . كنت أجد مشقة كبيرة في الاهتداء إلى حقيقة عن أجدادهم الذين تناولهم كتابي ، ولئن كنت لأملك إلا إعلان الشكر لهم على ما أمدوني به من عون وقدموه إلى من مصادر ، إلا أني مضطر إلى أن أشير إلى الصعوبة التي كانت تصادفتني في معرفة الحقائق عند هؤلاء الذين يرتفع إعجابهم بأجدادهم إلى مرتبة العبادة . . .

وقد هوّن عليّ مناعب هذا البحث - إلى جانب ما أسلفت الإشارة إليه من عناية الأستاذ الجليل شفيق بك غربال - الملاحظات القيمة التي أمدني بها أساتذتي وزملائي ، وأخص بالذكر من حضراتهم معالي الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور أبو العلا عفيفي ، والأستاذ محمد فريد أبو حديد والدكتور إبراهيم مذكور والأستاذ أمين الخولي وغيرهم .

وبعد فهذا هو كتابي الذي أرجو أن يساهم في وضع بحث "فلسف" التاريخ المصري ويتناول ظواهر الحياة فيه بتفسير جديد ، يقوم على فهم واسع بما مرّ بالمصريين من حركات الدين واستوعب نفوسهم من تياراته وشغل أذهانهم من أفكاره ، وقد اتّهب فيه إلى نتيجة لها خطرهما ، هي أن الحياة المصرية في جملتها ، منذ العصر العثماني حتى يومنا الراهن ، تدين لتعاليم الصوفية أكثر مما تدين للقواعد الدينية أو للحضارة الأوروبية ، وسنعرف في الفصل الختامي كيف اتسعت فرجة الخلاف بين قواعد الدين وتعاليم الصوفية في ذلك العصر ،

وكيف غلبت هذه التعاليم مبادئ الدين الحنيف . فأما عن الحضارة الغربية فقد أقبلت الى مصر في ركاب نابليون الذي أجهز على العصر العثماني عام ١٨٩٨ م ، واشتد بأسها في عهد محمد علي وإسماعيل ، وبدأ تأثيرها غلابا في المدن في عهدنا الحاضر ، ولكن نفوذها لا يزال كسيحا في الريف ، وهو يمثل أغلبية الشعب المصري ، بل إن آثار هذه الحضارة في أهل المدن ، لا تزال — في الأغلب والأعم — مجرد مظاهر ، نخفي وراءها تقاليد قديمة العهد ، بينها وبين تعاليم صوفية العصر العثماني صلوات رحم وقربي .

توفيق الطويل

الاسكندرية في { شعبان ١٣٦٥ هـ
يولييه ١٩٤٦ م

مقدمة تاريخية عن :

العصر العثماني في مصر

٩٢٣ - ١٢١٢ هـ = ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

عصر السلاطين — تطلع العثمانيين لاستلاك مصر — مصر في عهدهم —
حالتها السياسية — حالتها الاقتصادية — حالتها الاجتماعية — حالتها
العلمية — تطور أحوالها في القرن الثامن عشر (في السياسة والعلم) :

عصر السلاطين : ١٢٥٠ - ١٥١٧ م ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ

حطم التتار مدينة المشاركة في بغداد ، واستولوا على حاضرة الإسلام
سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة ، وأزعجوا المسلمين في شتى بقاع العالم
الإسلامي بما ارتكبوا من فظائع وما أذاعوا في الناس من أهوال — أعملوا
السيف في رقاب الناس أينما نزلوا ، وألقوا في نهر الدجلة بآثار العلماء من
كتب ومصنفات ، وجدوا في القضاء على مظاهر الحضارة في دول الإسلام —
وكان حكم مصر يومئذ في يد طائفة من مهرة الفرسان المدربين على فنون
القتال منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، هم « سلاطين الممالك » ، وقد
عاشوا في رخاء هيأته لهم أرباحهم من التجارة والزراعة والصناعة ، وكانت
الحروب التي أثاروها بما أثر عنهم من شهامة وشجاعة ، تشغل بالهم وتملأ
حياتهم وتسلم بعضهم إلى أعلى مراتب الحكم ، ولكنها كانت لا تشغلهم عن
رعاية العلم والعناية بأهله ، فلاذ بمصر العلماء في مختلف دول الإسلام فارين
من وجه التتار ، ووجدوا في رحلتها خير ملاذ يقيم أحداث الزمان ، ويمدحهم
بعطايا السلاطين وصلات الحكام ، ويحوطهم بمظاهر التقدير والاحترام ،
وأضحت مصر في هذا العهد مقر خلافة الإسلام وعاصمة ملكه ، ومركز

مدنيته وأبعد دولة شهرة وعظمة ، وقد اتجه إليها العالم الإسلامي منذ ردت
عن الإسلام غارات التتار وحملات الصليبيين .

نطلع العثمانيين لدمشق مصر :

واستحوذت مصر على هذه المكانة الملحوظة بين دول الإسلام طوال
عصر السلاطين على وجه التقريب ، ولكن حكمهم قد شاخ في أواخر عهدهم ،
وبدأ الفساد يتمشى في أوصاله منذ أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، في
وقت قامت فيه دولة بنى عثمان فنية تنساب في كيائها حيوية الشباب وقوته ،
وقد تهباً لأهلها فتح آسيا الصغرى وتوطيد سلطانهم في رحابها ، وغزو أملاك
الدولة الرومانية الشرقية من الغرب ، والاستيلاء على أمارات السلاجقة من
الشرق ، وجعل القسطنطينية عاصمة ملكهم سنة ١٤٥٣ م ، فكان طبيعياً بعد
هذا أن يتطلع العثمانيون إلى زعامة العالم الإسلامي بالاستيلاء على مصر ،
وإخضاع أهلها وأملاكها لسلطانهم ، ونقل الخلافة الإسلامية إلى حاضرة
ملكهم . . . وكان لهم ما أرادوا ، فتمكن سلطانهم « سليم الأول » من قهر
المماليك بعد أن عجز عن ذلك أسلافه ، ودخول مصر بعد موقعة الريدانية
١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) ، وقد أقام بها نحو ثمانية شهور عاد بعدها إلى الآستانة
وفي ركابة « خليفة المسلمين » . . . وأضحت مصر بعد ذلك إيالة تابعة للدولة
العثمانية ، بعد أن فقدت في هذا النضال استقلالها ، وخسرت زعامة الإسلام ،
وزايلتها خلافة المسلمين وتلاشت شهرتها في شتى الدول . واستمر الحكم
للعثمانيين في مصر حتى أقبلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بعد نحو ثلاثة
قرون من الزمان (١٧٩٨ م - ١٢١٢ هـ) ، وهذا البحث ينصب على دراسة
التصرف أثناء هذا العصر ، ولهذا رأينا أن نمد لهذه الدراسة بشرح بعض
مظاهر الحياة في مصر إبانه ، عسى أن يساعد هذا على فهم الجور الذي اتفق
وجود التصوف فيه ، والتعرف إلى نوع التفاعل الذي قام بينهما ، وحسبنا من
هذه المظاهر أربعة :

أولها - أحوال مصر السياسية :

كان في مصر ثلاث قوى يراقب بعضها بعضاً ، ولكل منها حق الاتصال المباشر بالسلطان ، فأدى هذا النظام المفكك إلى قيام نزاع دائم بينها طوال هذا العصر ، فكان الوالى يحكم مصر باسم السلطان وليس له من رأى فى حكمه ، إلا ما يعليه عليه سيده المقيم فى الآستانة ، ومراقبة تنفيذ ما يوحى إليه من أوامر . . . وكان يعين بعقد يمتد عاماً قابلاً للتجديد ، وإلى جانب الوالى تقوم سلطة الجنود ، وكانوا سبع فرق وكل إليها حفظ الأمن العام . ومن ضباطها يتألف الديوان ووظيفته مراقبة الوالى فى شتى تصرفاته . . . ويمثل السلطة الثالثة المماليك الذين قدموا للسلطان التركى طاعتهم وأعلنوا له ولائهم ، إذ عينهم السلطان حكاماً إداريين للمديريات لحفظ التوازن بين السلطين السالفتين^(١) . . .

بهذا النظام المفكك كانت تحكم مصر ، وهو يشبه - فى كثير من الوجوه - نظام الحكم فى غير مصر من دول الإسلام إبان هذا العصر وهكذا بقيت مصر من غير حاكم قوى تتجمع السلطة فى يده ، وتخشاها سائر القوى المتنازعة ، فكان للمماليك أطماع أدت إلى وجود النزاع بينهم ، وقام بين الفرق بعضها مع البعض نزاع كان يبدو فى بعض الأحيان فى صورة حرب داخلية تستمر شهوراً ، وربما استعانت كل فرقة مقاتلة بطائفة من المماليك - كما كان الحال فى الحرب التى قامت بين قرقى العزب والانكشارية ، أو بين قرقى القاسمية والغفارية ودامت ثمانين يوماً كما يروى الجبرقى ، والوالى من وراء هذا النزاع - الذى كاد يشغل العصر كله - يراقب حركات العداء ويشرف عليها ، ويرفع إلى السلطان التركى أمرها ، ولكنه لا يملك القضاء عليها ، لأن القوة تعوزه والسلطان ينقصه ، ولا شك أن هذا الاضطراب كان ذا أثر فى حياة الشعب المصرى من نواح كثيرة .

(١) الرافعى : الحركة القومية ج ١ ص ١٧

وثانيها — الحالة الاقتصادية :

أدركت الفاقة مصر في هذا العصر — كان المصريون في عهد السلاطين المماليك يعيشون في فيض من الرخاء ، ولكن أحداثاً جدت فغيرت من حالهم وبدلت من رخائهم وسلطت عليهم الضيق وأغرّت بهم العوز ، كان البحر الأبيض هو الطريق الوحيد بين الهند وأوروبا طوال عصر السلاطين ، فكانت التجارة الهندية ، تمر بأملاكهم (مصر والشام) فيفرضون عليها باهظ المكوس ، حتى كانت الضرائب لا تقل في عرف جمهرة المؤرخين عن سدس الثمن الأصلي للبضائع كما يقول الأستاذ دكرتون ، ١٠٠ . و غاظ أوروبا هذا الربح الذي كان يستحوذ عليه المصريون والبنادقة ، وساء لها غلاء أسعار الحاجيات بعد نقلها وسداد مكوسها ، فأرادت الاهتداء إلى طريق أخرى توصل للهند ، وتكون أقل نفقات وأقصر مسافة وأخف متاعب ومشقات ، وقد تحقق هذا الأمل بعد بعثات كثيرة لاقت الإخفاق حيناً وصادفت النجاح حيناً ، فوصل أخيراً ، فاسكودي جاما ، إلى رأس الزوابع — الذي سماه على سبيل التفاؤل « رأس الرجاء الحسن » — سنة ١٤٩٦ م فتحوّلت التجارة الهندية إلى هذه الطريق ، ووفرت أوروبا على نفسها تلك النفقات التي كانت تخسر ها من قبل ، فوق ما ربحته من راحة ووقت — واستولى العثمانيون على مصر بعد هذا الحادث الجلل بوضع سنوات ، وكثر التلصص بعد ذلك في البحر الأبيض ، فضعفت الحركة التجارية من ناحية ، وخسرت مصر به مورداً فياضاً بالمال .

هذا ما أصاب مصر في تجارتها إبان هذا العصر ، فأما الصناعة فحسبنا أن نعلم أن السلطان التركي قد عاد بعد فتح مصر إلى الآستانة وفي صحبته نحو ألف وثمانمائة من البنائين والمهندسين والتجارين والحدادين والحجارين والمرخين والمبطين والخراطين^(١) . . . هذا فوق ما غنمه من أموال البلد حتى

(١) ابن إياس ج ٣ ص ١٤٩ وروى في ص ١٢٢ أن عددهم ألف .

بلغ مانهبه فيما أشيع ألف جمل محمل بالذهب والفضة ، عدا ما حمله معه من تحف وأسلحة وأوان صينية ونحاسية ودواب من خيل وبغال . . . وذلك كله خلا ما غنمه وزراؤه وجنوده . . . حتى بطلت في مصر خمسون صناعة وتعطل منها أصحابها كما يقول ابن إياس^(١) .

وأما من حيث الزراعة فقد أهمل عصرهم الأرض وإقامة الجسور وحفر الترع والخلاجان وتطهير الجداول ، ولم يكن من عمل الحكومات في هذا العصر أن تهتم بالشعب وتعمل على توفير أسباب الرخاء له بإصلاح مرافق الحياة عنده^(٢) . وكان نظام الملكية العقارية غير قائم بالمعنى الصحيح ، فإن أراضى الفلاح كانت عرضة للانتزاع منه إذا عجز عن سداد ما يفرضه عليه الملتزمون من ضرائب ، كان بعضها يفرض حسب أهواء الملتزمين^(٣) . . .

قلت موارد المال وكثرت وجوه الإنفاق في هذا العصر — كان سلاطين المماليك ينفقون كل ما يصل إلى أيديهم من أموال الشعب داخل البلاد ، يقيمون المباني الشاهقة والآثار النفيسة التي لاتزال إلى اليوم قائمة تشهد بمهارتهم في فن المعمار ، وينفقون كثيراً في حياتهم المترفة التي حفلت بوصفها كتب الرحلات التي كتبها الأجانب في هذا العصر ، وكانوا يعطفون على الشعب فيصدقون على فقرائه ، ويجرون الأرزاق على طلبة العلم من أبنائه ، ويجزلون العطاء للعلماء من شيوخه ، فانتفعت البلاد بما قدمته لهم من ضرائب ومكوس ، أما في العصر العثماني فإن موارد المال فيه قد قلت ، ووجوه الإنفاق قد كثرت ١ كان السلطان التركي في القسطنطينية ينتظر الخراج في كل عام ، وكان الوالى والفرق العسكرية التي صاحبت الفتح التركي في حاجة

(١) المصدر السالف ج ٣ ص ١٣٣ ، وأبو السرور البكرى في النزهة الذكية في ولاية مصر والقاهرة ص ٤١ (مخطوط) .

(٢) شفيق غربال : الجنرال يعقوب ص ٩٤ والرافعي ج ١ ص ٣٢ .

(٣) الرافعي ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

إلى نفقة كبيرة لم تقم بها مصر فيما سلف من عصور^(١)
وقد كثرت في هذا العصر مناسر اللصوص وعظم نفوذ الأولياء وأرباب
الطريق ، وكان على الشعب أن يكلفهم ويقوم بحاجاتهم وينظم لهم الموالد
والولائم على نحو ما سنعرف بعد ، وفشت الأوبئة في هذا العهد الذي كانت
فيه مصر لا تعرف الاهتمام بصحة الأفراد ، أو العمل على وقايتهم من
الأمراض... ١٠٠

تضافرت العوامل كلها على إيجاد حالة من العوز والفاقة كان لها بالغ
الأثر في نفوس المصريين .

وثالثها — الحالة الاجتماعية :

كانت الحياة الاجتماعية صدى للفاقة التي نزلت بالشعب ، والجهل الذي
أدركه وعشش في رأسه ، والاضطراب الذي لازمه من جراء النظام السياسي
السالف الذكر ، فان فرق الجنود التي وكلت إليها حراسة البلد وصيانة
الحريات والحرمانات ، كانت شر ما لقيت مصر في هذا العهد من ضروب
العدوان والطغيان ، وقد بلغ من بغى الجنود في عهد الضعاف من الولاة
— وما كان أكثرهم — أن كانوا يخطفون النساء والعلماء من الشوارع ليلا
ونهارا ، ويفسقون بهم على قارعات الطرق... وكانوا يشاطرون التجار
وأصحاب الحرف مكاسيهم...^(٢) وكان الفلاح معرضا لظلم جباة الضرائب

(١) كان الوالى يبتاع ولايته بثمان يتراوح بين أربعائة ألف وخمسةائة ألف ريال ، ولا يوفى
إلى تجديد مدة ولايته سنة أخرى إلا إذا أرسل للآستانة هدايا تزيد على مائة ألف ريال ،
وكان عليه أن يرسل إليها الخراج السنوى وقدره ستمائة ألف ريال ، وأن يبعث بهدايا أخرى
من السكر والبن والأرز والفراب والحلوى والفلال لا تقل قيمتها عن ٦٠٠٠٠٠ ريال ،
وذلك عدا نفقات الحج والجنود في مصر فيما يقول الرافعى ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ — وإن
تغير هذا النظام أواخر هذا العصر . وكان الوالى وحكام المديريات من أمراء الممالك يجمعون
لأنفسهم في فترات الظلم أموالا لا يقرها عدل ولا يقول بها عقل — كما روى الجبرتي وابن أبياس
وغيرهما من مؤرخى العصر .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤

وتعذيبهم إن قصر في إرضائهم ، والولاية وإن توفرت في الكثيرين منهم
« نية الخير ، فقد كانوا لا يقوون على تحقيقها وإقرار الحق ونشر العدالة بين
الناس ، إذ كان الوالى مسلوب السلطة على الجنود (١) ، فكان يردّ الظلم عن
الشاكين ، بأن يطلب إليهم البعد عن الباغين والاختفاء عن أنظار المعتدين
حتى لا يتعرضوا لما ينزلون بهم من ظلم وبغى وعدوان ... !

فساعد هذا القلق ما كان شائعا بين الناس من جهل وضنك وضيق ،
وأدى بهم إلى الإيمان الساذج بالله وأهله ، وتشبث الجمهور برسوم الدين
وطقوسه ، وأهملوا قواعده ولبابه ، وحملهم الضيق الذى أخرج صدورهم على
التهاون فى انتشار الحشيش والخمر والبوزة بينهم ، وشيوع الشذوذ الجنسى
والسمى وراء الزنا بالنساء والفسق بالغلمان على نحو ما سنعرف بعد .

ولقد عاقت الوحدة الدينية وجود رابطة وطنية تربط الناس وترسم لهم
أملًا قوميا واحدا ، إذ جرى العرف من قديم الزمان على أن يتولى حكم مصر
وردّ الغارات عنها وحفظ الأمن فيها ، فئة من مهرة الفرسان ليس فيهم
مصرى واحد ، وقامت إلى هذه الطبقة العسكرية طبقة الشعب الذى انصرف
إلى العمل فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة على قدر ما تسمح ظروفه ،
وسنعرف فيما يلى من فصول هذا الكتاب أثر هذا الجو الاجتماعى فى
التصوف الذى خصصنا هذه الرسالة لدراسته .

ورابعها — الحالة العلمية :

ولا بأس من أن نسهب فى بيانها بعض الإسهاب ، لأنها أوثق مظاهر
الحياة اتصالا بالتصوف :

اعتزلت مصر العالم الأوروبى بعد كشف رأس الرجاء الحسن ، وكانت
أوروبا قد استيقظت من سباتها على نهضة أخذت تدب فى كيانها ، وتتناول
شتى مرافق الحياة عند أهلها ، فحرم مصر من الاتصال بهذه النهضة وتبع

(١) فى ابن إياس ج ٣ ص ٨٥ وغيرها أمثلة تؤيد ذلك .

حركاتها والإفادة من ثمراتها طوال العصر العثماني - الذي استغرق نحو قرون ثلاثة ، وكان للمصريين الذين عاشوا في العصر الوسيط كله - لا العثماني وحده - فهم للحياة العلمية يخالف فهمنا ، فكان المثل الأعلى للعلم في عرفهم قائما على الدين وما يعين على فهمه من دراسات . فأتجهت إلى علوم الدين عنايتهم ، وكادوا يهملون ماعداها من ضروب العلم وألوانه - وقد بلغ من إهمالهم لدراسة العلوم العقلية أن كان يجهلها صدور العلماء في الأزهر - أكبر معهد في مصر يومذاك - لما جاء إلى مصر الوالي أحمد باشا خف لاستقباله أظهر العلماء في ذلك الوقت ، وهم الشبراوي شيخ الجامع الأزهر ، وسالم النفراوي ، وسليمان المنصوري ، فدارت بينهم مناقشات علمية (أى دينية) عقب عليها الوالي بالكلام في العلوم الرياضية ، فأحجم العلماء عن التباحث فيها معلنين جهلهم بها ، فعجب الوالي لذلك كثيرا ، ثم قال للشبراوي بعد ذلك : إن الشائع في بلادنا أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وقد شاقني المجيء إليها فلما جئت وجدت كما قيل : تسع بالمعبد خير من أن تراه . ا ، فقال الشبراوي : هي يامولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف . فقال له : أين هي وأتم تجهلون العلوم الرياضية مع أنكم أعظم علمائها ، وغاية نحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، وقد نبذتم المقاصد وجهلتموها - فقال الشبراوي : لسنا أعظم علمائها بل نحن المنصرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أبواب الدولة وأهل الحكم فيها ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث ، أما غير ذلك فمعرفة من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي ، ثم إن دراسة هذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات . . . وغالب أهل الأزهر فقراء ، ويعوزهم الاستعداد لدراسة هذه العلوم ، ثم أشار على الوالي بأن يتصل بعالم فذ في معرفته بالرياضيات هو حسن الجبرني - والد عبد الرحمن المؤرخ المعروف - فاتصل به وأخذ يستقي عنه علومها

أهملوا دراسة العلوم الرياضية وكانت في عرفهم تشمل الهندسة والحساب والهيئة والرسم واعتبروا الفلك والميقات والزايحة والأوقاف وما إليها من العلوم الغريبة والخارجة وكانت لا تحتل المكان الأول من اهتمامهم ، وجعلوا التفرقة بين العلوم والفنون ، بل كان العلم في عرفهم معناه المعرفة — وبهذا ورد معناه في القرآن الكريم ، وكانت العلوم الشائعة عندهم صنفين : العلوم النقلية ويراد بها الفقه والحديث والتفسير ونحوه ، والعلوم العقلية وهي ما نريد به العلوم اللسانية في وقتنا الحاضر ، ويراد بها النحو^(١) والبيان واللغة ... وكانت تحتل المكان الثاني من عنايتهم ، وكانت دراساتهم في الجملة تعوزها العناية بالمعنى ويشغلها الاهتمام بالألفاظ ، وكان تأليفهم يدور حول شرح المتن والتعليق على الشروح مما يجوز لنا أن نسمى عصرهم عصر الشروح والحواشي ،^(٢) .

وشاع الجهل بين الناس واستفحل أمره في الريف والحضر ، وعشت السذاجة في رؤوسهم وبدت في ضعف التعليل الذي نراه في شتى مؤلفات الأدباء ، ونصادفه عند الناس كلما عرضوا لتعليل ظاهرة من ظواهر الحياة ، فاذا أصاب البلد قحط رأينا جهود الساعين لرفعه ، تقنع بالاتباع إلى الناس زواله عند الله بالأدعية والأوراد والصلوات ، وقد يقنع الحاكم بأن يطلب إلى العلماء والناس أن يسارعوا إلى أداء هذا الواجب إن توانوا فيه ، ويلتمس ممن يرجو فيه الصلاح والخير أن يكون هو الداعي والناس من ورائه يستجيبون^(٣) . وإذا نزل بالبلد عدو يريد احتلاله ، بادر العلماء وأرباب الطريق إلى المساجد والزوايا وأخذوا في تلاوة الأوراد والأدعية حتى تزايلهم هذه الشدة ، وقد فعلوا ذلك يوم زحفت عليهم الحملة الفرنسية التي

(١) استغلطنا ما أسلفناه في الحياة العلمية عن مصادر هذا العصر ولا سيما : الجبرتي ج ١ ص ٣٧ ، ١٩٣ - ١٩٤ و ١٧ و ٧٦ و ج ٢ ص ١٧ و ٥٧ و ٧٥ و ١٠٠ وغيرها .

(٢) جرجي زيدان : آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٣) الشمراني : لطائف المنن ج ١ ص ١٠٦ ، الجبرتي ج ١ ص ٣٠ .

قضت على العصر العثماني في مصر . (١) بل كان السلطان في تركيا إذا اشتدت حروب أعدائه له ، لاذ بعلماء مصر وأجزل لهم العطاء ، والتمس إليهم أن يقرءوا له البخاري بين الحين والحين حتى ينصره الله على أعدائه (٢) كان يحملهم على هذا إخفاهم لسنن الكون ونواميس الطبيعة ، وإيمانهم بأن الله هو العلة المباشرة ، لسكل ظواهر الحياة ، فاذا اتجهوا إليه بالدعاء رفع عنهم ما نزل بهم من شر وما أصابهم من ضيق ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ... وهذا العجز عن تحليل الظواهر هو الذي ساق الناس إلى التسليم بدعاوى الدجالين وحيل المشعوذين من أدمعاء التصوف وأهل التنجيم (٣) .

أما معاهد العلم في هذا العصر فقد كان أكبرها خطرا :

الأزهر : وقد كان طلابه من رواد الكتاتيب التي تشبه مدارس التعليم الأولى في وقتنا الحاضر ، وكان الطالب مصطفى لنفسه بين أعمدة الأزهر من شاء من شيوخه متدرجا من السهل إلى الصعب ، حتى تغور مادته ويأنس في نفسه الكفاية للتدريس ، فيخلق حلقة ويمضي في تعليم الطلاب ، ونجاحه في ذلك رهن كفاءته ، إن أحسن في درسه سكت عنه الشيوخ (٤) ورضى به الطلاب (٥) فواصل عمله ، وإن أخفق انفض أتباعه من حوله ، وكان الإخفاق مصيره (٦) . والكثيرون من خريجي الأزهر أو بمن قضوا بين جدران شطرا من حياتهم ، ينطلقون إلى الأقاليم والقرى وقيمون الكتاتيب السالفة الذكر ويتولون إرشاد الناس وهدايتهم إلى سبيل الرشاد في المساجد وزوايا أهل الطريق ، وكان الناس يقبلون على هذه المجالس للتفقه في شئون دينهم .

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٦

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٧٢ ، ج ٢ ص ١٧١ و ١٩٠

(٣) أنظر في الجبرتي ج ١ ص ٣١٨ و ٣٣٧ — ٣٣٨ و ٣٨٤ أمثلة لذلك .

(٤) رفاة الطمطاوى : خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤١٢ في موقف العلماء من المناوى ،

والجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ في موقفهم من البيوى .

(٥) الجبرتي ج ٢ ص ٤

(٦) في الجبرتي ج ١ ص ٢٥٧ ، ج ٢ ص ١٠٦ ما يشهد بما نقول .

وقد عالج بعضهم الوعظ بنوع من القصص الديني يجمع بين دراسة الدين وفهم المثل العليا في الحياة الدنيا^(١) وكانت هذه المجالس تتجاوز المساجد والزوايا وتقام أحياناً في البيوت والدور ويتهافت عليها الناس وينصت إليها النساء من وراء ستار^(٢).

وكانت مجالس الأدب والعلم تقام أحياناً في منازل العلماء والخطاطين والأدباء، ويشهد أزرها الحكام، وأظهرها مجالس رضوان بك والزبيدي والجبرتي الكبير^(٣).

كما تخصص لدراسة العلوم الغربية — من هيئة وفلك وميقات وزايرجه وأوراق — نفر من علماء الأزهر، واهتم غيرهم بدراسة العلوم الرياضية، وكان هذا النوع من العلماء موصول الأسباب بالحياة العملية فيما لا علاقة له بالتهيو للآخرة، ويشهد بذلك موقف الشيخ حسن الجبرتي من اختلال الموازين واختلاف المقادير في عهده عام ١١٧٢^(٤).

وقد شاع في الريف — على الأخص — نوع من الأدب الشعبي تمثله لنا قصص أبي زيد الهلال وسيف بن ذي يزن وعنترة وألف ليلة ونحوها، وقد شجعت على انتشاره ما أسلفناه من ظروف سياسية وأحوال اقتصادية واجتماعية.

وقد نهضت زوايا الصوفية بنشر العلوم الدينية، وإن انصرف اهتمام أهلها إلى مزاولة الشعائر الدينية وممارسة الحياة الصوفية — صادقين كانوا أو كاذبين.

(١) محمد فريد أبو حديد: سيرة السيد عمر مكرم ص ٢٣ — ٢٤.

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) صورها عن الجبرتي الأستاذ محمد فريد أبو حديد في صورة طريفة نشرت بالرسالة في عديها (٨٣، ٨٤ الصادرين في ٤، ١١ فبراير سنة ١٩٣٥) وانظر الجبرتي ج ٢ ص ٢١٢ وفي غيرها من صفحات.

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٤٠٣.

وينبغي أن نشير الآن إلى أن أهل العلم وحواريه كانوا حريصين على حياة المكاتب وجمع الكتب النادر منها والمتداول ، يتناعونها من سوق الكتبيين حيناً ومن الأفراد والبلاد النائية حيناً آخر ، وغلب عليهم الميل إلى النهاون في إعارتها وعدم التشديد في استعادتها ، رغبة منهم في نشر ما تنطوي عليه من ألوان العلم وضروبه ، فقامت مكاتبهم مقام دور الكتب العامة في عصرنا الراهن (١).

على أن هذا كله كان ضعيف الأثر في تبديد الظلام الذي استوعب هذا العصر واحتوى أهله ، ومؤرخو الأدب المصري يقررون — والآسى ملء قلوبهم — أن الفتح التركي كان ويلا على العلم وأهله ، لأن المغول حين اكتسحوا فارس وخراسان والعراق وحطموا بغداد وعفوا على مدينة الإسلام ، انتقلت مراكز العلم من بغداد وبخارا ونيسابور وقرطبة وغيرها من مدائن العلم في العصر العباسي ، إلى القاهرة والإسكندرية والفيوم وحلب وغيرها من مدائن مصر والشام (٢) . وكان السلاطين الذين يملكون هذين القطرين يحرون على العلماء الأرزاق ويجزلون لهم العطاء ، فنشأت في مصر نهضة علمية ظهرت ثمارها في أواخر عصر السلاطين ، ونشأ فيها منذ القرن السابع للهجرة ميل نحو التعليم العام ، فدرى لأول مرة في التاريخ الإسلامي مؤلفا كالنويري ، سنة ١٣٣٢ يحاول أن يشرح شتى المعارف التي عرفت في عصره من أدبية وعلمية وتاريخية وجغرافية في موسوعة ذات عشرين (أو ثلاثين) مجلدا ، وأخذ هذا الميل يتقدم في مصر — لا في المعارف العامة وحدها — بل اتجه نحو التخصص في القرنين الثامن والتاسع للهجرة ، فدرى نوعا من دائرة معارف جغرافية في كتاب ذي اثنين وثلاثين مجلدا يضعه العمرى (١٣٠١ — ١٣٤٨) في الجغرافيا العامة ، ودرى مؤلفا آخر وضعه القلقشندي عن الأنظمة المختلفة

(١) في الجبرتي ج ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ (مكتبة المرابي) ، ص ٤٠١ مكتبة الجبرتي الكبير .

(٢) جورجى زيدان ج ٣ ص ١١٢

في العالم الإسلامي يقع في ثلاثة عشر (١٤) مجلدا ، وترى ما يشبه هذا في غير هذين الكتابين (١)

فلما استولى الأتراك على مصر جعلوها إيلة عثمانية ، وفرضوا على أهلها أن تكون التركية لغة المخاطبات والمحادثات الرسمية ، وقلت عنايتهم بالعلماء ، وساعد الجو السياسي والاجتماعي والاقتصادي في عصرهم على وقف هذا التيار العلمي السائر نحو النضج والكمال ، ولولا الأتراك لكان الذهن المصري متمشيا من تلقاء نفسه مع الأذهان الأوروبية في العصور الحديثة . ولاستطاع أن ينال بل أن يقوم بنصيبه من الرقي العام للحضارة (٢)

وقد استحال هذه الموسوعات في العصر العثماني إلى حواش وتعليقات وشروح . والرأي عندنا أن العثمانيين قد أوقفوا الحركة العلمية في مصر نحو قرنين من الزمان ، فان الفترة الأخيرة من عهدهم - فيما يلوح لي - قد دب فيها نوع من التطور شمل أكثر مرافق الحياة عند أهلها ، وإن قال المؤرخ الثقة : الأستاذ غربال ، أما بمالك مصر فكانوا في عام ١٧٩٨ م كما كانوا في عام ١٢٥٠ في الحرب والتفكير ، أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلال دولتهم ، وما كانوا يجربونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة في أرضهم ، كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء ، وظلوا في كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان آباؤهم (٣) ، ولا بأس من أن نحاول الآن تأييد ما نزعمه :

التطور في السياسة : أصاب الضعف تركيا في القرن الثامن عشر ، وتوالت عليها انتصارات النمسا ثم روسيا في ساحة الوغى ، واختلت شئون الدولة الداخلية وفسد نظام الحكم وساء حال الجيش وكثر تغير الولاة على مصر ، واندجت الفرق العسكرية في الشعب وأصبحت الأملاك يتولى أمرها الممالك ،

(١) طه حسين : ابن خلدون ص ٥٧

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ — ١٦٥

(٣) شفيق غرمال : المنرال يعقوب ص ٥

فأضحى الجنود أتباعاً لهؤلاء الأمراء الذين كانوا جادين في تقوية أنفسهم بابتغاء الماليك والإكثار من الأتباع ، وقد حاولوا أن يوحّدوا كلمتهم باختيار زعيم لهم جعلوه « شيخاً للبلد » نافذ الرأي في كل شئونها ، حتى أصبح الوالى الذى ترسله تركيا سجيناً في القلعة لا يملك الخروج منها إلا بأذنه . . . ولو امتاز واحد من هؤلاء الأمراء بالنسب فوق ما تهيأ له من شجاعة وفروسية ، لاستكان له زملاؤه وساروا في ركابه ، وعاونوه في الاستقلال بمصر وطرد الأتراك من أرضها ، ولعل هذا هو السبب الذى أدى إلى فشل الدعوة للاستقلال الذى حققه على بك الكبير سنة ١٧٦٩ فترة من الزمان .

وكما تهيأ لأمراء الماليك هذا النفوذ تهيأ للشعب نوع من النضج بدا واضحاً في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر^(١) فقد سمعنا في هذه الفترة سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله ، ورأينا اهتمام الحكام بالرأى العام وزعامته ، وعرفنا موقف العلماء في فتنة الأزهر وفي فتنة الوقف^(٢) ورأينا العالم الذى يقول للحاكم في وجهه : لعنك الله ولعن اليسرجى ، الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً . . . والعالم الذى يقول للعامة وهم يستنصرونه لدفع الظلم الذى يوقعه الحكام بهم : « فى غد نجتمع أهالى الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم »^(٣) وغير هذه الحوادث كثير لم نكن نسمع به في القرنين الأولين من العصر العثمانى .

وقد شبه بعض المؤرخين نفوذ العلماء في هذه الفترة بنفوذ البابوات في

(١) رأى الأستاذ المؤرخ محمد فريد أبو حديد أن هذا النضج السياسى قد ظهرت بوادره في مستهل القرن الثامن عشر وكان أول دليل عليه عام ١٧٠٢ م (ص ٢٢ من سيرة السيد عمر مكرم) وقد ناقشت رأيه على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٢١٧ الصادر في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٧ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٥٦ و ١١٨ .

(٣) المصدر السالف ص ١٩ و ١١٠ .

أوروبا إبان العصر الوسيط ، وهو تشبيه مقبول من حيث السلطان الذي توافر لهم عند حكام البلاد ، ولكنه يبدو على خطأ من حيث صلتهم بالشعب من بعض النواحي ، فإن اليقظة كانت قد دبّت في نفوس الناس حتى كانوا إذا ناروا تحركوا للثورة من غير قائد يتولى زعامتهم ، ثم يطالبون زعماءهم من العلماء بقيادتهم ، فإن قصرُوا نالهم من الشعب الأذى ، وما كان لأوروبا في العصر الوسيط مثل هذا الرأي العام الذي ظهر في مصر قبل القرن التاسع عشر على غير ما يرى بعض المؤرخين (١)

التطور في العلم : تطورت الحركة العلمية إلى الكمال في أواخر العصر العثماني ، وظهر هذا النضج في الزبيدي الذي وضع « تاج العروس » في عشرة أجزاء كبار ، وشرح إحياء علوم الدين للغزالي في عشرة مجلدات كبار ، وفي الوالي راغب باشا سنة ١١٧٦ الذي وضع موسوعة في الأدب واللغة والعلم والطبيعة والطب والحديث والرياضيات والمنطق ، سماها سفيينة الراغب ودينية الطالب (٢) والجبرتي الذي لا خلاف بين المحدثين من المؤرخين في دقته ومهارته في استقصاء الحوادث وقدرته على فهم الظواهر وما جعل تاريخه عن القرن الثاني عشر للهجرة معدوم النظير في عرفهم ، والصبان ١٢٠٦ هـ صاحب الحاشية المعروفة إلى يومنا الحاضر (٣) وظهرت مجالس الأدب والعلم عند الزبيدي والجبرتي ورضوان بك ، وغير هؤلاء من كبار العلماء والذين كانت حلقات دروسهم تزدهم حتى تبلغ المئات عدداً ، فالحفناوي سنة ١١٨١ بلغ عدد الحاضرين في حلقة نحو الخمسمائة مستمع ، وكان يوجد في حلقة محمد بن إبراهيم العوفي ١١٩١ أكثر من ثلاثمائة طالب رغم أنه كان ماجنا خليعاً (٤) — والأمثلة على ذلك كثيرة .

(١) كجورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٧٦

(٢) طبع بمصر سنة ١٢٥٥ كما يقول جرجي زيدان في المصدر السالف ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٢٤١

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ١٦

وقد كان طبيعيا أن يؤدي هذا التطور الذي أشرنا إلى ناحيتين من نواحيه، إلى تغيير علاقات مصر بالدولة التركية وظهور هذا التغيير في ميادين الاقتصاد والاجتماع وغيرهما من مظاهر الحياة في مصر

وقد سار هذا التطور في مجراه حتى أقبلت الحملة الفرنسية فوجهت مصر في تيار جديد، كان بداية العصر الحديث فيها، ولا نريد أن نتعرض للحكم على مدى ما أفادته أو خسرت مصر من جراء هذا الاتجاه الجديد، فانه لا يزال موضع جدال بين المحدثين من المؤرخين .

هذه بعض مظاهر روح العصر العثماني في مصر عرضناها موجزين، عسى أن تساعد على فهم التصوف الذي اتفق وجوده مع هذه المظاهر، وكان بينه وبينها نوع من التفاعل سنعرض له في حينه، والآن ما المراد بالتصوف في هذا العصر ؟.. ذلك ما نعرفه في الكتاب التالي .

الكتاب الأول

في الطريق

تمهيد في صلة الكتاب الأول بما بعده

إذا كان التصوف في أصله ظاهرة وجدانية فردية ، فقد كان تصوف العصر العثماني ظاهرة اجتماعية تتطور مع الزمان وتتغير باختلاف المكان ، كغيرها من ظواهر الحياة الاجتماعية ، ولهذا آثرنا أن نتناول في الكتاب الأول عرض المعالم التي ميزت هذا التصوف ، فلمّ بما انتشر في أرض مصر من زوايا أرباب الطريق ، ومعيشة الذين أقاموا في رحابها ، وانقطعوا لعبادة الله بين جدرانها ، وحتى نعرف شيئاً عن الطرق الصوفية وميزاتها ، والسلطان الذي تهيأ لشيوخها ، والتجارب التي عاشها أتباعها . . . وغير ذلك مما تلزم معرفته في مستهل هذا البحث ، فإذا تهيأ لنا تأريخ هذا الجانب من تصوف ذلك العصر ، عقبنا عليه - في الكتاب الثاني - ببيان السلطان الذي تهيأ لأهله أحياء وأمواتاً ، لنبين - في الكتاب الثالث - عن أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في ذلك العصر وما تلاه من عصور

ولما كان تصوف العصر العثماني امتداداً طبيعياً للتصوف الذي شاع أواخر عصر السلاطين ، كان من الخير أن نمدد لدراسته في العصر العثماني بفصل نتناول فيه نشأته بمصر وتطوره إلى هذا العهد ، وتأريخ التصوف في مصر على هذا النحو مجازفة غير مأمونة الزلل ، لأسباب أكبرها خطراً أقله المصادر التي تيسر البحث في هذا الميدان ، بيد أن هذه المجازفة ضرورية لفهم التصوف في العصر العثماني على أكمل الوجوه ، فلأخذ حيطاً على قدر ما تسع طاقتنا ، ولننض إلى اقتحامها مستسلين بعد ذلك لأخطارها :

الفصل الأول

أظهر معالم التصوف في مصر

قبل العصر العثماني

التصوف في مصر قبل العصر العثماني — أنواع العبادة في مصر — الحياة في رحاب الخوانق والرباط والزوايا في مصر — نشأة التصوف في مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثماني — بعض مظاهر نفوذهم قبيل العصر العثماني .

التصوف قبل العصر العثماني :

عرفت مصر الزهد والتسك من قديم الزمان ، فشاعت فيها الدعوة إلى عبادة الآلهة والاستخفاف ببهاج الحياة والحرص على نعيم الآخرة منذ عهد الفراعنة الأقدمين ، وأكثر الصور التي خلفوها منقوشة على معابدهم وآثارهم تنطق بصدق ما نقول ، وقد كثر وجود الزهدة والعباد في مصر حتى أقبل الإسلام على أهلها يحمل الدعوة إلى الدنيا والآخرة معا ، ولكن حديثه عن الآخرة كان مثار الافتتان عند معتقيه ، فاستمر النيار القديم في جريانه ، وعكف البعض على العبادة وانقطعوا إلى الله وأعرضوا عن زخرف الدنيا وزينتها ، وزهدوا فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، وانفردوا عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وقد كان هذا هو أصل التصوف — فيما يقول ابن خلدون — وقد كان هذا عاما في الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة (١) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٨ .

وقد اتجه التصوف بعد هذا إلى العناية بالأبحاث العقلية ، وأخذت تظهر عند أهله النظريات الفلسفية في المعرفة والوجود ، فتكر لها أهل السلف وتصدى الأشاعرة لدحضها ، وانتصر لهم الغزالي وطالب بجعل الإيمان لا التفلسف — طريقاً إلى الله ، وسرعان ما رجحت كفة العمل على كفة النظر ، وتغلب التعبد على التأمل ، وبدأ الاهتمام بالسلوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والتقشف والحرمان والزلفى إلى الله ، وكاد ينطفئ الجانب النظرى فى التصوف الإسلامى قبل مجئ العصر العثمانى بنحو ثلاثة قرون . . . وبهذا عاد التصوف فى مرحلته الأخيرة ، إلى ما كان عليه فى مرحلته الأولى^(١) ، ولستأ نريد أن تؤرخ هذا النوع من التصوف ، بل يعيننا أن نعرض لبيان ظاهرة كانت أكبر ما يميز التصوف فى العصر العثمانى ، ذلك أن المتصوفة كانوا يقيمون جماعات تحت إدارة شيوخهم ، فى معابد أطلقوا عليها اسم الزوايا ، طاعمين كاسين على نفقة المحسنين من الأثرياء والأمراء ، متجردين لعبادة الله منقطعين لذكره ، زاهدين فى طلب الدنيا ، معرضين عن لذاتها ، قانعين فى بعض الأحيان بادعاء هذا السلوك ، مهملين السعى فى طلب القوت ، محتقرين العمل على اكتساب العلم والدين — وهذا التصوف الجمعى لم ينشأ فى مصر قبل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى . وقد سجل المقرئى تاريخ نشأته بعام ٥٦٩ للهجرة^(٢) وذكر على باشا مبارك أنه نشأ بهذا المعنى د فى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة تسع وخمسين وستمائة ،^(٣) ورأى المقرئى أدنى إلى الصواب فيما نعلم ، فان صلاح الدين قد مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة (١١٩٣ م) . وقد عرفت مصر منذ هذا التاريخ ثلاثة أنواع من المعابد شاعت فيها أيام الأيوبيين وسلاطين المماليك ، وكانت نواة للزوايا التى حفل بها العصر العثمانى ،

(١) أنظر كتابنا : الشعرانى إمام التصوف فى عصره من ٧ — ٨ و ١٠٧ — ١٠٨
طبعة أولى (سلسلة أعلام الإسلام)

(٢) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٣) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٩٠ .

ومعنى هذا أن التصوف الذى يبدو فى أصله ظاهرة نفسية فردية ، قد تحول فى مصر إلى ظاهرة اجتماعية ، وأصبح الصوفى الذى يعتكف فى عزلة عن الناس ، تستغرقه رياضاته ومجاهداته ، وتستوعبه مشاهداته ومكاشفاته ، ويحتويه العمل على تصفية نفسه وتجريدها من علائق الجسم ، قد تحول هذا الصوفى إلى رجل شديد الحرص على الاجتماع بمريديه وأتباعه ، والاتصال بسائر الناس - فقراء كانوا أو أغنياء ، ورعايا أو حكاما ، يتفاعل مع البيئة التى يعيش فيها ، يتأثر بها حيناً ويؤثر فيها أحياناً .. كان التصوف ظاهرة فردية فتحول إلى ظاهرة اجتماعية .. فما هذه المعابد التى استقر فيها هؤلاء الشيوخ مع المريدين والأتباع ؟ ..

أنواع المعابد فى مصر :

هى الخوانق والربط والزوايا - ويكاد الباحث أن يضل سبيل الاهتداء إلى وجوه التفرقة بينها . قال على مبارك : إن الخانقا كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وقد اندثر هذا الاسم بمرور الزمن وأطلق عليها اسم د التكية ، والتكيا أما كن لإقامة الدراويش من الأعاجم^(١) ، ولا يكاد يخرج هذا عما قاله المقرئ الذى يقرر أنها حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة للهجرة^(٢) وجعلت ليختل الصوفية فيها لعبادة الله تعالى^(٣) .

أما الربط فهى فيما يرى المقرئ وعلى مبارك دور أعدت لإقامة الصوفية ، ونخصص بعضها للنساء المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو المعجائز الأرامل من العابدات ، وكان لها الجرايات والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ - وقد انقطع ذلك منذ زمان مديد^(٤) . وقد كان رباط البغدادية الذى

(١) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) يروى نشأتها سنة ١٥٠ أو سنة ٢٠٠

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٧١ ، قطف الأزهار ١٨٤ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ . وخطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ،

أبو السرور البكرى قطف الأزهار من الخطط والآثار (مخطوط) ١٨٤ .

كان موقوفاً على النساء الخيترات بيتاً للصوفية من النساء ، وكانت شيختهن فقيهة وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير عابدة واعظة حريصة على النفع والتذكير ، وكان النساء المقييات بهذا الرباط مقييات على وظائف العبادات حريصات على التفقه في شئون الدين^(١) ولا نظن أن التصوف في هذا العصر كان يعدو هذه المظاهر الثلاثة : الفقه والزهد والعبادة ؟

أما الزوايا فقد كانت تعد من قديم الزمان لإقامة بعض الصالحين للتعبد بين جدرانها ، ولم تكن تقام فيها الجمعة ، أول أمرها ، ثم تغير الحال وأقيمت الجمعة في أكثرها^(٢) . ويشير المقرئ في حديثه عن الزوايا إلى أنها كانت دوراً لعبادة الصالحين من الصوفية^(٣) وفقراء العجم^(٤) والخدام من الحبش والأبناء^(٥) وغيرهم من أهل الصلاح والورع^(٦) .

الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا :

ومن دلائل الصعوبة في التفرقة بين هذه الأنواع من المعابد ، اشتراك الخوانق والربط في سبعة أمور وعدم أنفراد أحد النوعين بخاصة تميزه عن النوع الآخر ، أما وجوه الشبه بينهما فهي :

- (١) أن الخوانق كالربط كانت بيوتاً يشيدها الأمراء والملوك والأثرياء ليقيم فيها أهل التصوف ليلاً ونهاراً متفرغين إلى عبادة الله^(٧) .
- (٢) أنها كانت معاهد ثقافة يدرس فيها العلم الشائع يومذاك ، فكان

(١) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ .

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٤) ج ٤ ص ٣٠٠ ، ٣٠٢ .

(٥) ج ٤ ص ٣٠٠ (٦) ج ٤ ص ٣٠٣

(٧) اعتمدنا في تصوير الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا في هذه الفترة على خطط المقرئ (ج ٤) في الصفحات الآتية يانها مرتبة حسب ترتيب الهوامش في صلب الكلام :

في رباط الآثار مثلاً درس لفقهاء الشافعية يتولاه مدرس بطلبة يعيشون لطلب العلم في هذا الرباط كما ضم بين جدران خزانة كتب تعين على دراسة العلم^(١)، وكان في الرباط العلائي قراء وعشرة من الفقهاء عليهم أن يحضروا يوماً في كل أسبوع^(٢)، وقد أشرنا إلى دراسة الدين في رباط البغدادية المعد للنساء . وأما الخوانق فحسبنا أن نسوق المثال بثلاث منها : خانقاه شيخو التي رتبت فيها مدة من الزمان دروس منها أربعة لطوائف الأئمة الأربعة ، ودرس للحديث النبوي وآخر لإقراء القرآن بالروايات السبع ، وكان لكل درس مدرس يتولاه وطلبة اشترط فيهم ألا يتغيبوا عن حضوره وحضور وظيفة التصوف ، و خانقاه الجيغا المظفرى التي اشترط في فقرائها أن يحضروا وظيفة التصوف ، وكان بجانبها كتاب يقرأ فيه الأيتام من أطفال المسلمين كتاب الله ويتعلمون فيه الخط^(٣) ، و خانقاه ركن الدين بدرس وقد نظم فيها درس للحديث النبوي له مدرس يتولى تدريسه ، وعنده عدة من المحدثين ، وضمت قراءا يتناوبون القراءة ليلاً ونهاراً حتى اكتفى أهلها بالعلم الذي توفر بين جدرانها ، فحرموا على الفقهاء أن ينزلوا ساحتها^(٤) . . .

(٣) إن الجمعة كانت لاتقام في أكثر هذه الخوانق والربط ، روى المقرئى في حديثه عن خانقاه سعيد السعداء — وهى من أكبر الخوانق التي عرفت في مصر — أن الصوفية بها كانوا يتوجهون إلى الجامع الحاكمى كل أسبوع لصلاة الجمعة في موكب جميل كان الناس يقبلون لرؤيته من مصر إلى القاهرة تيمناً ببركة أهله^(٥) وأن خانقاه سرياقوس التي انطوت على مائة خلوة لمائة صوفي كان بجانبها مسجد تقام فيه الجمعة^(٦) ، ولكن المقرئى يقول عن خانقاه البندقدارية إنها كانت خانقاه ومسجداً لله^(٧) .

(٣) ص ٢٨٣

(٢) ص ٢٩٧

(١) ص ٢٩٦

(٦) ص ٢٨٥

(٥) ص ٢٧٤

(٤) ص ٢٧٦ — ٢٧٧

(٧) ص ٢٨٣

وكذلك الحال في الربط ، لم يرد ذكر لإقامة الجمعة في غير اثنين منها (مع أن عددها عند المقرئ قد بلغ السبعة عشر رباطاً) وهما رباط الست كلية الذي كان رباطاً ومسجداً لله^(١) ورباط الأفرم الذي ضم صوفية وشيخاً وإماماً ومنبراً يخطب عليه للجمعة وللعيد^(٢).

(٤) أن منشئها كانوا يحبسون عليها الأوقاف ويجرون على أهلها الأرزاق ويجزلون لهم العطاء ، كان لصوفية سعيد السعداء في كل يوم طعام ولحم وخبز^(٣) ، وكان في خانقاه ركن الدين بيبرس أربعاً صوفي وفي الرباط المجاور له مائة من الجنـد وأبناء العجزة ، فكان فيها مطبخ يوزع منه على المجاورين اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وتفرق الحلوى على كل فقير من فقرائها ، وإن كان هذا المقرر يتناسب مع حال النيل ورخاء العيش في مصر^(٤) وكان هذا هو الحال في خانقاه بشتاك^(٥) ، ورتب للطلبة في خانقاه شيخو طعام ولحم وخبز في كل يوم وحلوى وزيت وصابون في كل شهر وكان لها أوقاف جليلة^(٦) ، وكان لفقراء خانقاه سرباقوص ثمن كسوة كل سنة وتوسعة في كل رمضان والعيد والمواسم ، فوق ما كان لهم من طعام شهى وخبز نقي ، وما كان يوزع عليهم من الحلوى وزيت الزيتون والصابون وثمان الفواكه عند ظهورها ، وفوق ما كانت تضم الخانقاه من السكر والأوان الشراب وأنواع الأدوية^(٧) وهكذا نرى الأرزاق والمعاليـم والأوقاف في خوانق بكتمر^(٨) وقوصون^(٩) وأم أتوك^(١٠) والخروية وطيرس^(١١).

وكذلك الحال في الربط وإن كانت الأوقاف التي حبست عليها والمعاليـم التي كانت توزع على سكانها والأرزاق التي كانت تصيب أهلها ، أقل بكثير

(١) ص ٢٩٤	(٢) ص ٢٩٧
(٣) ص ٢٨٣	(٤) ص ٢٧٦ — ٢٧٧ (٥) ص ٢٧٩
(٦) ص ٢٨٣	(٧) ص ٢٨٥ — ٢٨٦ (٨) ص ٢٩٧
(٩) ص ٢٨٩	(١٠) ص ٢٩٠ (١١) ص ٢٩٢

منها في الخوانق — كما نرى في رباط الآثار ورباط الأتقم (١) والرباط العلائي (٢) . وأكثر الربط لم يذكر شيء بشأن أرزاقه وأوقافه .

(٥) ولما كان الغرض من هذه الأرزاق والأحباس تهيئة الجو الصالح لتفريغ المجاورين لعبادة الله ، فقد زودت بعض الخوانق والربط بالحمامات والمطابخ والمدافن ، ومدت بالفرش وآلات النحاس والكتيب والقناديل من النحاس المسكفت أو الزجاج المذهب وغير ذلك من الأمتعة والنفائس التي لا ترى في غير قصور الملوك والأثرياء كما نرى في خانقاه بكتمر وطغاي النجسي والرباط العلائي (٣) وإن لم يتوفر هذا النعيم في الكثير من الخوانق والربط .

(٦) والظاهر أن بعض الخوانق قد ضم نساء ، فقد نص المقریزی على أن خانقاه سرياقوس كان بها حمام للرجال وآخر للنساء ، وأما في الربط فقد عرفنا أن النساء كان لهن رباط خاص بهن هو رباط البغدادية .

(٧) كان بأكثر الخوانق والربط قراء وأئمة ومؤذنون وبوابون . . . فوق من ضمت من فقراء وشيوخ (٤) .

أما الزوايا فمن الراجح أنها كانت في عصرى الأيوبيين وسلاطين المماليك صغيرة الحجم قليلة الخطر ، يقيم فيها نفر ضئيل من العباد قد يبلغ العشرة كما نرى في زاوية المحصى (٥) وقد تكون مكانا يتعبد فيه رجل واحد كما يتضح من كلام المقریزی عن بيبرس إذ يقول إنه بنى للشيخ خضر زاوية في جبل المزة وأخرى بظاهر بعلبك وثالثة بجماه ورابعة بحمص وخامسة خارج القاهرة (٦) وأوضح من هذا قوله إن الأمير سيف الدين طغاي قد عمر زاوية

(١) ص ٢٩٥ — ٢٩٧ (٢) ص ٢٨٧

(٣) ص ٢٨٩ — ٢٩٠ و ٢٩٧ و ٢٨٦ .

(٤) ص ٢٧٧ ، ٢٨٢ — ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ وغيرها

من الصفحات .

(٦) ص ٢٩٨

(٥) ص ٣٠٣

ابراهيم الصائغ وأنزل فيها فقيراً عجبياً من فقراء الشيخ تقي الدين^(١) وقوله في زاوية أبي السعود إن الشيخ أيوب السعودي قد انقطع بها وتبرك الناس به . . . ولعل هذا الظن غير بعيد الاحتمال ، فإن الزاوية كان يراد بها في العالم الإسلامي المكان الذي يختل فيه العابد ، قال ابن العربي : من شرط الشيخ أن تكون له زاوية تخصه لا يمكن أحداً من أولاده من دخولها إلا من كان خصيصاً عنده ، وزاوية تخصه ينفرد بها وزاوية لاجتماعه بأصحابه ، ومن شرطه أن يجعل لكل مرید زاوية تخصه ينفرد بها وحده ، ولا يدخل فيها أحد غيره أبداً ، وينبغي للشيخ إذا قعد المرید في زاويته أي خلوته أن يدخلها الشيخ قبله و . . .^(٢) .

وقال السهروردي إن الصوفية قد آثروا الاجتماع على العزلة لقوة عملهم وصحة حالهم فأروا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة فسجادة كل واحد زاريتها^(٣) .

والظاهر أن الزوايا في هذين العصرين (الأيوبيين والمماليك) كانت لا تعنى بدراسة العلم (أي الدين) ولم يقيم بها نساء ولم تجر العادة بأن تقام فيها جمعة ، وقد أدت بساطتها وصغر حجمها وقلة مجاورتها إلى ضالة الأحباس والأرزاق ، وأغناها هذا عن وجود المطابخ والطواحين والحمامات والمدافن بها كما كان الحال في الزبط والخوانق .

نشأة التصوف في مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثماني :

والآن نعود إلى ما بدأنا الكلام فيه ، متى نشأ التصوف في مصر بهذا المعنى ؟ . . ثم كيف تطور حتى صار إلى ما كان عليه أيام العثمانيين ؟ . . قال المقرئ عند الكلام على خانقاه سعيد السعداء . . . لما استبد الناصر

(١) ص ٣٠٢ .

(٢) محمد السيادي : البهجة السنية في آداب الطريقة العلية النقشبندية ص ٣٦ .

(٣) عوارف المعارف ص ٦١ (على هامش الإحياء ج ٢) .

صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولة الأكراد، عمل هذه الدار (سعيد السعداء) برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم في سنة تسع وستين وخمسمائة . . . فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية . . .^(١) وقد أشرنا من قبل إلى خطأ على مبارك في تحديد هذا التاريخ .

ثم نشأت بعد ذلك خوانق وربط وزوايا أخرى عاش في أكثرها هؤلاء المتصوفة ، وقل من هذه المعابد بأنواعها الثلاثة ما لم ينشأ بين النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن للهجرة ، والظاهر أنها بدأت تتلاشى في أواخر هذا القرن عندما دب الضعف في حكم سلاطين المماليك البحرية ، خصوصاً إذا لاحظنا انحطاط النيل سنة ٧٧٦ ثم سنة ٧٩٦ ، وأثر ذلك في بعض الخوانق كخانقاه ركن الدين . يبرس^(٢) ويسجل المقرئى سنة ست وثمانمئة للهجرة بداية لتاريخ المحن التي أصابت شتى مرافق الحياة في مصر ، وهو العام الذي انتهت فيه دولة المماليك البحرية وتولت دولة المماليك الشراكسة ، فمنذ هذا التاريخ أخذ يتلاشى الكثير من الخوانق والربط والزوايا ، فمن ذلك خانقاه شيخو التي أخذت أحوالها في التناقص بعد هذا التاريخ ، حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف فيها عدة أشهر^(٣) وكذلك نقول في خانقاه بكتمر التي بطل الطعام والخبز فيها بعد هذا التاريخ ، وانتقل سكانها إلى القاهرة وامتد التخريب إلى حمامها وبستانها وصار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ ضئيل من المال ، وأقام بها حارس يتولى حراستها وتمزق ما كان فيها من الفرش والكتب وضاعت آلات النحاس والقناديل ..

(١) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٧٣ ، قطف الأزهار ص ٢٨٤ .

(٢) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٣) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٨٣ .

وغير ذلك مما أسلفنا الإشارة إليه^(١) وذلك ما أصاب خانقاه قوصون
وخانقاه سرياقوس^(٢).

ونقول مثل هذا في بعض الربط ، فرباط الآثار قد قلّ تردد الناس إليه
بعد تاريخ المحن ورباط البغدادية تلاشت أموره بعد هذا التاريخ^(٣) ويقال
مثل هذا في زوايا الظاهري والطرطرية والمغربيل^(٤).

وبما يشهد بصحة هذا الفرض الذي رجحنا وقوعه ، أن مصر لم ينشأ فيها
بعد هذا التاريخ من الخوانق والربط والزوايا التي ذكرها المقرئ سوى
خانقاه الخروية التي أنشأها السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة ، وثوى فيها
عشرة من الفقراء^(٥) ، ولهذا كله دلالة ومغزاه .

وما حانت نهاية القرن التاسع واقتربت بداية العاشر حتى كان هذا
التصوف الجمعي قد شاع وانتشر ، اعتنقه العوام والدجالون واتخذوه وسيلة للعيش
وأداة لتضليل الناس وخداعهم ، وكانت الأسباب التي مهدت لذلك قريبة الشبه
ببعض الأسباب التي سنسطها في الباب التالي لنشرح بها انتشار التصوف في
العصر العثماني ، لأن حكم السلاطين عندما دب فيه الفساد وأدركه الاضمحلال
(في أواخر أيامه) كان قريب الشبه بحكم العثمانيين في مصر ، والنتائج
التي تترتب على هذا الفساد في الحالين توشك أن تكون واحدة فيما يتصل
بالتصوف .

وقد استحوالت الخوانق إلى تكايا يقيم فيها دراويش الأعاجم - كما أشرنا
من قبل - ثم تطور الحال بالتكايا حتى أضحت أخيراً ملاجئ لإيواء
المرضى ومن قعدت بهم الشيخوخة عن اكتساب القوت . بقيت الربط
والزوايا ، فأما الأولى فيظهر أنها لبثت قائمة في مصر حتى نهاية عصر السلاطين ،

(١) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٢) ص ٢٨٦ و ٢٨٩ . (٣) ص ٢٩٥ - ٢٩٦ و ٢٩٤ .

(٤) ص ٢٩٩ و ٣٠١ . (٥) ص ٢٩٢ .

فالمنارى يقول إن رباط بركات الحياطة قائم في الدرب الأحمر^(١) وبركات هذا قد توفى في العام الذي دخل فيه العثمانيون مصر (٩٢٣ هـ)^(٢) ولكننا لا نعثر على اسم الروابط في مثل هذا الوقت إلا لما ، مما يرجح الظن عندنا بأن اسمها قد أخذ يتلاشى في فترة الاضمحلال التي سبقت العصر العثماني .

أما الزوايا فلا يبعد أن يكون الكثير منها قد ظل قائماً لأنها أقدر على البقاء في مثل هذه الظروف من الربط والخوانق ، إذ أنها صغيرة لا تحتاج إلى مال طائل ، ولا يبعد كذلك أن يكون اسم الزوايا قد أطلق على كثير من الربط لأن الرباط في أصله لا يكاد يختلف عن الزاوية التي عرفت في العصر العثماني ، قال السهروردي والمقريزي إن المقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد^(٣) وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة متعرضاً بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات^(٤) . ولعل هذا أظهر ما في دعوة المتصوفة الذين عاشوا في العصر العثماني كما سنعرف بعد - وترجيح تخول الربط إلى زوايا غير بعيد ، فقد بلغ من أمر التشابه بينهما أن اختلط الحال على مؤرخ حديث عهد بها ، فلم يستطع أن يميز بين الربط والزوايا^(٥) . ومثل هذا يمكن أن يقال في بعض الخوانق ، فكثيراً ما يصادفنا في مصادرنا النص على أن زاوية . . (المهندار مثلاً) كانت في الأصل خانقاه ثم تحولت إلى زاوية . . ولما فشت الدروشة في العصر العثماني ، وافتن بها الناس ، علا

(١) المخطط التوفيقية ج ٢ ص ٧ .

(٢) الشعرائي : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) عوارف المعارف ص ٥٤ ، مخطط المقريزي ج ٤ ص ٢٩٢ .

(٤) عوارف المعارف ص ٥٧ - ٥٨ ، مخطط المقريزي ج ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٥) هو صاحب المخطط التوفيقية (أنظر ج ١ ص ٨٩) .

شأن الزوايا ، فانسع نطاقها وكثر المجاورون بها حتى بلغ عديدهم المئات .
ولانت حياتهم حتى أصبحت رفاهية عيشهم في رحابها مثارا فقتان الناس بها (١).
ولئن كان التصوف في مصر قد أخذ في الاضمحلال منذ أوائل القرن
التاسع الهجرى (أو قبل ذلك بقليل) فإن من الراجح أن يكون قد عظم
خطره وتمشي الفساد في أوصاله ، ونهياً لأهله سلطان واسع النطاق بمدود
الرحاب في أواخر هذا القرن وبداية القرن العاشر ، عند اضمحلال دولة
السلطين وبداية عصر العثمانيين ، لأسباب سنعرض لها بعد ، ولا بأس من
أن نبسط في إيجاز شئنا عن نفوذ الصوفية في هذه الفترة — أى قبل مطلع
العصر العثمانى فى مصر .

نفوذ المتصوفة قبل العصر العثمانى :

لعل ما أسلفناه يبرر القول بأن التصوف فى مصر كان فى جملة — إلى هذا
الحد — مقترناً بمعرفة الدين والعمل بأوامره ونواهيه ، واتصف أهله بالصلاح
والورع وسعة العلم بشئون الدين ، وكانت لهم مكانة ممتازة بفضل انقطاعهم
لعبادة الله وتجردهم لذكره ، وبفضل هذا آمن الناس بهم واعتقد الكثيرون
فى كراماتهم وأحسن بعض الحكام الظن بولايتهم ، وكان الاعوجاج فى
سلوكهم أو التهافت على طلب الدنيا عندهم يصادف عند جمهرة الناس استنكاراً
واستياء ، ولكن الحال قد تطور فى أواخر القرن التاسع وبداية العاشر
الهجرى ، فانساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية
والاقتصادية إلى التدهور والاضمحلال ، ودخله العوام واعتقه الوصوليون
والأدعياء ، وظهر فى كبار رجاله الجهلة الأميون حتى تتلذذ الشعرائى — وهو
علاق عصره — على سبعين شيخاً لا يعرف أحدهم علم النحو . . (٢) بل كان

(١) أنظر وصف الزوايا وبيان العيش الرفيد فيها ووازنة هذا بحياة الضنك عند
الفلاحين والتجار ومن إليهم خارجها فى كتابنا : الشعرائى لإمام التصوف فى عصره ص ١١

— ١١ و ٢٦ — ٣٦ .

(٢) الشعرائى : البحر المورود ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

بعضهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون . . . ولم يستهينوا بدراسة العلوم الشائعة في عصرهم وحدها ، بل أهمل بعضهم التمسك بأعظم مظاهر التصوف خطراً وهو الزهد ، فتهافت هؤلاء البعض على الدنيا وتسابقوا إلى الظفر منها بأوفى نصيب ، وأهملوا القيام بفروض الدين ، وتوخوا التمرد على أوامره ، وثاروا على أبسط نواحيه على ملا من الناس ، واطمأنوا بعد هذا إلى سمعتهم عند الشعب — حكاه وعلبائه على السواء . . .

وكان كبار متصوفة هذا العهد لا يقيمون الصلاة أبداً . . . مدعين أنهم يقومون بأدائها في الأماكن المقدسة . . . وكان في طليعة هؤلاء عبد القادر الدشوطي وإبراهيم المتبولى وعلى الخواص^(١) وغيرهم من أصحاب الضرائح والمزارات بمن يوليهم العامة في مصر أبلغ آيات التقديس وأسمى مظاهر التقدير .

وقد بلغ من نفوذ هؤلاء أن كانوا آثر عند الحكام وطبقات الشعب من كبار الفقهاء والعلماء المعاصرين ، فقد روى المؤرخون أن العثمانيين عندما ملكوا الشام وهموا بالزحف على مصر كان الأمراء المصريون قد تحققوا موت السلطان الغوري فاختروا من بينهم « طومان باي » ليخلفه في السلطنة ، فامتنع امتناعاً شديداً لأن خرائن بيت المسلمين كانت خاوية ولا ينتظر أن يمثل الأمراء لرايه في مقاتلة العثمانيين دون أن يدمهم بالمال ، فذهب الأمراء إلى أبي السمود الجارحي واستعانوا به فأحضر مصحفاً وطلب إلى الأمراء مجتمعين أن يقسموا عليه بطاعة طومان باي ، ففعلوا جميعاً وبهذا تولى السلطنة طومان باي^(٢) ، ولهذا الحادث دلالة من حيث إيثار الجارحي على شيخ الإسلام ومفتي الديار وفقهاء المذاهب وسائر العلماء . . . وكثيراً ما كانت الشكاوى ترفع إليه في هذا العهد وكان الأمراء يقفون بين يديه فلا يأذن لهم

(١) الشعرائي: البواقيت والجواهر ص ١٢٥ ح ١ ، درر القواص ص ٥٥ — ٥٦ ، الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ وفيها أن الدشوطي سافر للحج ولكنه لم يدخل الحرم . . .
(٢) ابن أبياس ج ٣ ص ٦٩ .

بالجلوس ، وقد حملوا الطوب والتراب في بناء زاويته^(١) . . .
وقد ضاق السلطان الغوري بشمس الدين الديروطنى + ٩٢١ لأنه يتهمة بالتقصير
في شأن الجهاد ، وتسامع الديروطنى بذلك فضى إليه حتى إذا حياه ، استقبل
السلطان تحيته بالصمت ، فقال الشيخ إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال
السلطان وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال علام تحط علينا بين الناس
في ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها ، فقال الشيخ عندك المال الذى
تعمرها به . ثم طال بينهما الجدال فقال الشيخ للسلطان قد نسيت نعم الله
عليك وقاباتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك
من يد إلى يد ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، ورقاك إلى أن صرت
سلطانا على الخلق ، عما قريب يصيبك المرض الذى لا ينجع معه طب ،
ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبرا يظلمونك ثم يدسون أنفك هذا في التراب ،
ثم تبعث عاريا عطشانا جائعا ثم تقف بين يدي الحكم العدل الذى لا يظلم
مشقال ذرة ، ثم ينادى المنادى من كان له حق أو مظلة على الغورى
فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم حصرها إلى الله . . .

وأرسل السلطان في طلب الشيخ يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال
والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه ، فما روى أعز من الشيخ ولا أذل
من السلطان في ذلك المجلس^(٢) .

ومثل هذا يقال في موقف شمس الدين الحنفى + ٨٤٧ مع السلطان فرج
ابن برفوق^(٣) ، ومع غيره من الملوك والأمراء^(٤) وهذا شبيه بما كان يقع لغيره
من رجال الطريق مع هؤلاء الأكابر . . .

(١) مناقب العلماء والصوفية ٢٠٦ (مخطوط الشيرازى) والطبقات الكبرى ج ٢ ص
١١٣ ، الكواكب الدرية ص ٤٧٨ .
(٢) الشيرازى : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٧ .
(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨١ ، بيت الصديق ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٢ ، بيت الصديق ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
(م ٤ — التصوف)

فلتصور ما كان لهؤلاء القوم من نفوذ على الاتباع والمريدين بعد أن نهياً لهم هذا السلطان كله عند حكام البلاد من سلاطين وأمرأء - وكم ألف خضعوا لكل ولي من هؤلاء واستكانوا له وآمنوا بدجله، واستسلموا لسلطانه واستحالوا أداة في يده، يعوزها العقل وينقصها الحس... كان الشيخ على وحيش ٩١٧٠ كلما رأى رجلاً يركب حمارة، أنزله من فوقها، وقال له امسك رأسها حتى أفعل فيها الفاحشة... فان أبى الرجل تسم في مكانه لا يستطيع حراكاً - أو هكذا خيل إليه من فرط اعتقاده في ولاية الشيخ... وان استجاب لطلبه أدركه الحياء من سوء ما يفعل الشيخ على قارعة الطريق (١) بل لقد سخر الشيوخ أتباعهم حتى في الانتقام ممن يندد بهم ويتعرض بالنقد لتصرفاتهم فيطاق عليه أتباعهم يوسعون ضربه ويشخنونه طعناً ويردونه إلى السكوت عن تقديم كارها... كان السيوطي شيخ خانقاه سعيد السعداء، فرأى أهلها ينعمون في أوقافها ولا يهتمون بتكاليفها، فوق أنهم غير معوزين، لأنهم يقتنون البغال والسوارى ويحفظون الأموال، فقال لهم إن شرط الواقف ألا يمنع خبز الخانقاه وجامكتنا لغير الفقراء المحتاجين الذين توفرت فيهم شروط الصوفية المذكورة في رسالة القشيري وغيرها، فثاروا عليه وأوسعوه ضرباً وألقوه في الميضاة بشيابه وفاخر بعضهم بأنه ضربه بالقباب، على كتفيه (٢) ١١٠

وذلك فوق ما كان لهم من نفوذ راسخ عند العلماء، وقد كان بركات الخياط ٩٢٣ هـ وفور الثقة عند علماء الأزهر وحكام البلاد معاً - وقد طلب إليه مفتي الجامع مع فئة من العلماء أن يصحبهم إلى صلاة الجمعة، فاعتذر بأنه لم يتعود إقامتها... ثم استجاب لالحاقهم ونحري أن يتطهر بماء قدر نجس، فلباضاقوا به أنبال عليهم سبا وطعنا... وضاق به الوالي مرة فضربه بعصاه، فغضب الشيخ لهذا وأقام ببابه وهو يقول: والله يا زربون ما أفارق هذه العتبة حتى أعزلك ١ هـ

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) الشرائع : الصلوات الحميدة ١٨٠ - ١٨١ .

وتقول الرواية وسرعان ما أقبل الفرمان من قبل السلطان يحمل نبأ عزله . (١) واستطارت شهرته من جراء هذا العزل الذي كان وقوعه في مثل هذا العصر القاق المضطرب أمرا طبيعيا مألوفاً ..

ومثل هذا يقال في موت علماء الأزهر على إبراهيم المواهي المتوفى سنة نيف وعشرين وتسعمائة ، لأنه كان يقرر قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم ، بحجة أنه يتحدث في الماهية .. ولما أقبل على مجلسهم أحداخوانه في الطريق ، محمد المغربي ، أمسكوا عن الكلام عند ما رأوه ، فقال لهم : تكلموا حتى أنكم معكم ، فلم يجرؤ أحد منهم على الكلام .. فقال لهم : نحن أحق بتنزيه الحق منكم معاشر الفقهاء ، ومن طلب إيضاح ذلك فليقدم إلى أنكم معه ، فسكتوا جميعاً .. فأخذ بيد إبراهيم ومضيا فلم يتبعها أحد من العلماء ... ثم عادوا فلحقوا بالمغربي وأخذوا يترضونه ، وهو ينهرهم غاضبا قائلاً لهم إن الطريق ليست مجرد كلام كطريقكم ، إنما هي طريق ذوق فن أراد منكم الذوق فليأت أخيه وأجرعه حتى أنقطع قلبه ، وأرقبه حتى يذوق ، وإلا فليكف عن هذه الطائفة فان لحومهم سم قاتل (٢) وفي ذلك ما يشير إلى مدى نجاحهم في النزاع الذي كان يقوم بينهم وبين الفقهاء .

أشرفت مصر على العصر العثماني وهي على هذه الحال ، فإذا كان أمر المتصوفة فيها إبانة ... ؟ ذلك ما نعرفه في الفصل التالي :

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السالف ج ٢ ص ١٠١ .

الفصل الثاني

أظهر معالم الطريق في مصر إبان العصر العثماني

اتصال المصريين : المملوكي والتماني — حقيقة التصوف في هذا العصر
موقف المتصوفة من دراسة العلم (الدين) — موقفهم من العمل
مبلغ إخلاصهم في دعاويهم — وسائل اكتساب المشيخة — وصف
الزوايا — إحصائية بأهم الزوايا — العبادة في رحاب الزوايا — الذكر
سندهم في ذكر الله — قيمة الذكر في عرفهم — طريقة الذكر
آداب الذكر — الخلوة — التزامات الخلوة — ثمرات الخلوة —
آية الخلوة الصادقة — أركان الطريق — تلقين الذكر — ادخال
الخلوة — إرخاء العديبة — لباس الخرقة .

تمهيد : اتصال العصر به

يكاد ينعقد الإجماع بين المؤرخين على أن المالك كانوا على عكس العثمانيين
إذا وفدوا إلى مصر ، تأقلموا ، واستعاروا من أهلها ما كان لهم من عادات
وتقاليد ونحوها ، مما أدى إلى وجود الفوارق البينة بين حكمهم وحكم العثمانيين
ويرى المخضرمون من أهل التصوف أن بين هذين العصرين هوة سحيقة القرار
فالتصوف في العصر المملوكي يتسم بالصدق في عبادة الله والتجرد لذكره والزهد
في طلب الدنيا والإعراض عن مباهجها ، أما تصوف العصر العثماني فإنه يتصف
بالدجل والخداع والشموذة ، ويكاد شيخ هؤلاء الكتاب المخضرمين — وهو
الشعراني ٩٩٨ — ٩٧٣ هـ — أن يحدد الساعة بل الدقيقة التي انحل فيها الطريق
ودب فيه الفساد وأعوزه الصدق والإخلاص ، وقد بدا ذلك في رأيه عندما

مات أستاذه (المرصفي) ٩٣١ هـ ^(١) بقية الخلف الصالح من أهل العصر المملوكي - وإن كان قد عاد - على عادته من مناقضة نفسه إلى تحديد هذا التاريخ بموت أبي العباس الحريثي ١٩٤٥ هـ بموت طائفة من المتصوفة الصادقين من أهل القرن العاشر مرة أخرى .

والرأى عندنا أن التصوف في حكم العثمانيين ، كان امتدادا للتصوف الذي عرف في أواخر عصر السلاطين وإن اختلفت تياراته في العهدين قوة وضعفا ومردا الخطأ في حكم الشرعاني ومن جرى مجراه ، إلى أن طبيعة الزهد من شأنها أن تحمل أهلها على احتقار الحياة والانصراف عن متاعها والنظر إلى مباهجها بمنظار أسود ، ومن شأن هذا كله أن يؤدي بصاحبه إلى تقديس الماضي على حساب الحاضر - أما غير الزهدة من الكتاب المخضرمين الذين ذهبوا إلى هذا الرأى فقد كانوا يعيشون في جو يحمل على التبرم بالحاضر ويدفع إلى الحنين للماضي وبهذا زعم هؤلاء الكتاب أن بين التصوف في حاضرم والتصوف في ماضيهم فرقا جوهريا كما قلنا من قبل ، فإذا أردنا أن ، نتق الزلل ونأمن وجه الشطط في أحكامنا ، وجب أن نكتفي بأخذ البيانات ومعرفة الحوادث من كتب هؤلاء الكتاب دون أن نعول على أحكامهم عليها كثيرا ولا قليلا ، فإذا التزمنا هذا المنهج في دراستنا عرفنا أن تصوف العصر المملوكي لا يختلف عن العصر العثماني في نوعه وأن ظهر فارق قليل الخطر في قوة التيار أو ضعفه ، ولا بأس من أن نسوق شاهدا واحدا ندلل به على منشأ الخطأ عند هؤلاء الكتاب المخضرمين :

يعرضون إلى المتصوفة الذين تحرروا من أوامر الدين ونواهيه في العصرين ، فيقولون في عصر الماليك إن الخواص والمتبولى والدشطلوطى كانوا لا يقيمون الصلاة أبدا وأن غيرهم كان يفعل الفاحشة على

(١) كما ورد في تكميل النور السافر ص ٢٩٦ وذكر الشرعاني وفاته في عام ١١٣٠ وثلثين وتسائة (الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٣)

ملا من الناس . اثم يقولون في عصر العثمانيين إن فرق الأحمدية والبرهانية والقادرية وما إليها كانت لا تلتزم أوامر الدين ونواهيه ، فتهمل الصلاة وترتكب الفاحشة .. الخ فتصوير موقف الفريقين من الدين في العصرين يوشك أن يكون واحدا ، فإذا تركنا رواية هذه الظاهرة إلى الحكم عليها عند هؤلاء الكتاب ، لاحظنا أنهم يقولون إن متصوفة العصر المملوكي كانوا يقومون بالصلاة في خفاء عن الناس في الأماكن المقدسة البعيدة ، وأن طي الأرض في لمح البصر كان جزءا من كراماتهم وأنهم كانوا يوهمون الناس بأنهم يرتكبون الفاحشة دون أن يقدموا على فعلها . . . فإن عرضوا للحكم على فرق العصر العثماني وسموها بالذجل والشعوذة ، وقالوا إن طريق الله لا يبيح لأهله الخروج على كتابه والتمرد على سنة رسوله . . . وبهذا كانت طريقتهم في التأويل منشأ الخطأ في أحكامهم . ومثل هذا يقال في تأويل الخلاف في أحكامهم مع الاتفاق في موضوعها

مفيدة التصوف في العصر العثماني :

كان التصوف في العصر العثماني لا يكاد يعدو الأغراض العملية التي أدت إلى وجوده ، وهي العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والتجرد لذكره ، والزهد في طلب الدنيا ومجاهدة النفس ورياضتها ونحو هذا مما أشرنا إليه من قبل ، فهو سلوك عملي لا نظر عقلي ، وقلبا كان هذا السلوك ينتهي بحال من أحوال الجذب والمحو والسكر والفناء ونحوه مما تحرى الكلام فيها أهل التصوف من قبل ، ومن هنا كان الطريق في هذا العصر أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف الصحيح ، لأن التصوف نزعة فلسفية والدروشة أساليب خاصة في الذكر والعبادة ، ولم يكن روح العصر الذي عاشوا فيه ليلائم وجود مفكرين يحسنون النظر ويجيدون الفهم بالحدس والذوق ، وقد كان عصره تستعبده الجهالة ويسيطر الاضمحلال على شتى نواحي الحياة فيه ، ولئن كانت عصور

الاضمحلال عند الشعوب لانتحلو من أفذاذ يسبقون زمانهم ، فان متصوفة
العصر العثماني قد وضعوا آداباً ألزموا بها كل من سلك على يدهم ، وكان بعضها
يقضى بمحبة الجهل وعدم التعلم على يد مدرس أو كتاب وتجنب التفكير فيما
يمرض له من ظواهر أو يساور رأسه من خواطر وآراء ، فقضوا بذلك على
الحياة العلمية عند أهل الطريق وقتلوا حيوية التفكير في أذهانهم ، وادعوا
بأن الزهد في طلب الدنيا والاستهانة بملاذها والإعراض عن شهواتها ، إذا
صاحبه الانقطاع للعبادة والتجرد للذكر والتجهد والعمل بما يرضى الله ، تكفل
بأن يسلم صاحبه إلى حضرته ، ومتى اتصل الفقير بربه ، أخذ عنه العلم والحكمة
والدين والثراء وكافة ما يشاء من مطالب الدنيا رأساً من غير وساطة ، واستمد
منه — تعالى — القوة التي ترفعه عن كافة البشر وتجعل في مقدوره إتيان
الخوارق والكرامات ، ولما كان ادعاء هذا النوع من التصوف أمراً ميسوراً
لكل إنسان ، وكان روح العصر يكفل لمدعى الدين والتصوف وافر الاحترام
وبالغ التقدير ويقبل بفضل ما انتشر فيه من مدفع الجهل كل مظاهر الدجل
والشعوذة ، فقد كثر مدعوا الطريق في هذا العصر ، ونهياً لهم سلطان
واسع النطاق ، وتغلغل نفوذهم في شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، وأضحى
لهم من المريدين والأتباع كثرة يستعبدونها سلطان الشيوخ استعباداً فادحاً
وكلهم يدعون القدرة على فعل الكرامات وإتيان خوارق العادات ، والناس
يستسلمون لهذه الظواهر سراعاً ، ويقبلون على أهلها خفاهاً ، فان عاجلوا تعليلها
اشتطوا في أمرها ، وعزوها إلى قدرة مستمدة من قوة الله في سمائه وقد كان إيمان
الحكام الأثرياء بهؤلاء الدجالين يحملهم على مساعدتهم بالمال الذي يكفل لهم
العيش الهنيئ المترفع ، ويحيطهم بالعطف الذي يهيئ لهم أسباب الاطمئنان في
الحياة الدنيا ، ووجد هؤلاء الأدعياء أن سذاجة الناس قد اغتتهم عن التزود
بدراسة العلوم والتبحر في شئون الدين والسعى لاكتساب القوت وتحمل
المشاق في ميادين العمل ، بل أغتتهم عن التزام الصدق في عبادة الله والزهد

في طلب الدنيا (١)

وبهذا كاد الدجل أن يطمس آية التصوف الصادق ويطفىء نوره . . .
وقد كان من أظهر مميزات التصوف في هذا العصر ، تحوله من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة اجتماعية تتمثل في حياة أتباعه في رحاب الزوايا تحت إرشاد شيوخهم ممن مكنتهم شخصيتهم من اجتذاب المريدين ، ويسرت لهم ثقة المحسنين من الأمراء والأثرياء ، الذين تكفلوا بكل ما تتطلبه حياة هؤلاء المجاورين المنقطعين لعبادة الله في زواياهم ، إذ كانوا يعيشون مع زوجاتهم من فيض الأوقاف التي تحبس عليهم والارزاق التي تجري من أجلهم ، وكانت هذه العطايا من الكثرة بحيث أحالت زهدهم رخاء وتقشفهم ترفاً ، وأبدت حياة الشعب — من الفلاحين والتجار — حرماناً بالقياس إلى النعيم الذي عاش فيه هؤلاء المجاورون . وقد ملأوا حياتهم بذكر الله وواصلوا عبادته أفراداً وجماعات ليلاً ونهاراً وشغلوا وقتهم بالتهجد وقراءة الأوراد وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة ونحوها من شعائر الدين — وإن كثر بينهم من كان يعوزه الأخلاص في مزاولة هذه العبادات ، والكثير من هذه الزوايا كان حريصاً على طلب العلم بقواعد التصوف وعقائده الدين في أمهات الكتب المعروفة (٢)

أما اتجاهات هذا التصوف ومذاهب أهله في مجال الحياة العلمية والعقلية والعملية والخلقية والسياسية فقد أبنا عنها في كتابنا عن الشعرائى — مثل هذا العصر — وسنشير إلى أعظمها أثراً في توجيه الحياة المصرية ، عند ما نعرض لبيان هذا بعد .

وقد حفلت مصر بزوايا هؤلاء الشيوخ ، وكانت تتمشى في نموها وسعتها

(١) توضح هذه الفكرة الأساليب التي يتبعها أهل الطريق في الظفر بالمشيخة وقد

مرحنا هذا في كتابنا عن الشعراء من ٧٠ — ٧١

(٢) انظر في وصف الزوايا وتفصيل حياة المجاورين بها كتابنا عن « الشعرائى » من

ووفرة الرزق بها ، طرديا مع نفوذ أصحابها وقدرتهم على إغراء المريدين بالانقياد لهم واجتذاب أهل اليسار إليهم . وقد كادت هذه الظاهرة أن تنقرض في مصر — بل في العالم الإسلامى كله — ولهذا آثرنا أن نسجل أسماء أظهر الزوايا التى عرضت لذكرها مصادر هذا العصر ، عسى أن يساعدنا هذا على تفهم الجو الصوفى الذى استغرق المصريين فى ذلك الحين ، وييسر لنا تقدير الأثر الذى ينتظر أن يكون له فى حياتهم .

أهم الزوايا فى هذا العصر :

زاوية ابن النقيب (وتعرف بزاوية بدر الدين المقدس) أنشأها السيد على ثم حولها أخوه بدر الدين ابن النقيب إلى جامع سنة ١٢٠٥ وكانت قائمة فى شارع القصاصين حارة البير قدار — زاوية أبى الحمايل (محمد السرو) سنة ٩٣٣ بين الصورين — زاوية أبى خوده (على) بالحسينية بالقرب من جامع الأمير شرف الدين الكردي — زاوية أبى السعود الجارحى المتوفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بالكوم الخارج بقرب جامع عمرو — زاوية الست آمنه زوجة البيومى سنة ١١٨٣ بحارة زوجها وبها معبده وضريحها — زاوية ابراهيم (أخى الدمرداش فى الطريق) سنة ٩٤٠ خارج باب زويلة — زاوية البكتاشية خارج القاهرة — زاويتا البكرية : الأولى بركة الرطلى والأخرى بجوار الإمام الشافعى — زاوية البيومى سنة ١٨٨٣ بالحسينية وقد شادها مصطفى باشا — زاوية تفكشان بحارة قنطرة عمر شاه جهة درب الحمامين أنشأها الأمير محمد تفكشان سنة ١١٤٢ وكما يؤخذ من الآيات المنقوشة على بابها ، كان فوقها مكتب لتعليم الأطفال — زاوية جلال الدين البكرى سنة ١٠١٨ هـ أنشأها سنة ٩٩٦ بشارع الأزهر على مقربة من الجامع وقد كانت صغيرة ليس لها ميضاء ولا بئر ، بها حوض يملأ بالقرب بجوارها صهريج — زاوية الحبيبي جدها محمد الحبيبي شيخ طريقة الحبيبية سنة ١٢٤٧ هـ تقابل زاوية عز الدين الديايطى التى ذكرها

المقریزی بشارع السيدة زينب وليست هي كما يتصور العامة — زاوية الحريثي
 أنشأها عبدالرحمن الحريثي سنة ١١٨٧ — زاوية الحلوجي أسسها الشيخ مبارك
 سنة ٦٨٨ كما قال المقریزی ودفن فيها عبيد البلقيني سنة ٩٣٠ والحلوجي، وكانت
 تعرف به، بين المشهد الحسيني والجامع الأزهر (انظر زاوية عبيد البلقيني)
 — زاوية الحنفي بكوم الخارج بالقرب من جامع عمرو، زارها عبد الغني
 النابلسي سنة ١١٠٠ — زاوية الخضيرى سنة ٩٦٥ (خلف مسجد طولون
 بشارع الخضيرى) — زاوية الخلوئي (محمد كريم الدين سنة ٩٨٦) بشارع
 الجدرية حارة الجدرية — زاوية الخواص (على) بالحسينية — زاوية خوند
 على كشب من ضريح الشعراني بباب الشعرية على بابها إلى اليوم حجر منقوش
 عليه اسم فاطمة خوند تعبد فيها الشعراني فترة من الزمن — زاوية الدردير
 (العدوي) بخط الكعكيين بجوار ضريح يحيى بن عقب وبها عدة ضرائح —
 زاوية الدمرداش المحمدى سنة ٩٣٩ وقد دفن بها محمد بن عثمان دمرداش سنة
 ١١٩٤ هـ — زاوية الديروطي بدمياط وقد دفن بها أبو العباس الحريثي ٩٤٥ هـ —
 زاوية الذاكر (تاج الدين) سنة نيف وعشرين وتسعمائة بجوار حمام الدود
 خارج باب زويلة شارع السيوفية — زوايا رضوان : اثنتان من إنشائه، أنشأهما
 ١٠٦٠ إحداهما بشارع القرية والأخرى بشارع قصبة رضوان والخيمية
 والمغربلين جددتها عبدالرحمن كتخدا والثالثة بها لوح من الرخام منقوش عليه
 أن الأمير رضوان أحياها بعد الاندثار سنة ١٢٠٦ بشارع سويقة اللالا
 (يبدأ عند انتهاء شارع الحنفي وينتهي بشارع الدرب الجديد) — زاوية الزاهد
 (أحمد) بجوار زاوية المناوي بخط المقسم — زاوية السحيمي (أحمد) بقلعة
 الجبل — زاوية السقاف (على العربي الفاسي) سنة ١١٨٣ على كشب من الفحامين
 وتسمى أيضا زاوية ابن العربي — زاوية الصفيحة (أحمد) سنة ٩٤٢ بشبرا قبالة
 القرية — زاوية سعودى المجذوب سنة ٩٤١ بسويقة العزى بقرب مدرسة السلطان
 حسن وبها قبره — زاوية السادات (الوفائية) بها عدة ضرائح كحمد سنة
 ١١٧٦ وعبد الرحمن العريشي والزيات بحارة السادات الوفاية بجوار سراي

المرحوم مصطفى باشا أخى الخديوى اسماعيل باشا عن يمين السالك من رأس
الحارة إلى بركة الفيل — زاوية شاهين (الخلوتى) بسفح المقطم شارع دير النحاس
مصر العتيقة — زاوية الشامية أنشأتها الست الشامية سنة ٩٩٤ هـ بشارع الجدرية
بقرب الفحامين — زاوية الشريبنى (عبد الوهاب) سنة ١١٨١ — زاوية الشناوى
(محمد) سنة ٩٣٢ بمحلة روح وله زاوية أخرى بخط بين الصوريين وقد دفن بالأولى —
زاوية الشعراوى (عبد الوهاب) سنة ٩٧٣ بباب الشعرية — زاوية الشمعة (أو الصارم
أو عانوس) أنشأها الأمير شمعة أول القرن الثالث عشر الهجرى بشارع البيومى
تجاه عطفة الخواصر — زاوية الشنبكى (أحمد) أنشئت سنة ٩٣٣ شارع بين
الحارات جهة باب الشعرية — زاوية عابدين أنشأها الأمير عابدين سنة ١٠٨٤
بشارع جامع أصلان بالتبانة — زاوية عبدالرحمن المجذوب سنة ٩٤٤ بالحسينية
قرب جامع الملك الظاهر — زاوية عبيد البلقين ، مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة
بقرب الجامع الأزهر بالحلاوية (هى زاوية الحلوجى) — زاوية عصفور (ابراهيم
عصيفير) سنة ٩٤٢ بخط بين الصوريين تجاه زاوية أبى الحمايل — زاوية العجمى (بسفح
الجبل) — الزاوية القادرية فى السكة الجديدة دفن فيها أحمد الجوهري سنة ١١٨٧
وهى بدرب شمس الدولة شارع الوراقين — زاوية الكليبانى (أبى الخير) أنشئت
سنة ٩٢٧ — زاوية الكلشنية — زاوية المتبولى (ابراهيم) شارع درب السماكين
شارع كلوت بك وبها ضريحه وله زاوية أخرى بالحسينية على يسار الخارج
منها إلى جنبه الشماشرجى المعروفة بجنبه السبع والضبع ولا صحة لزعم الناس
القائل بأن فيها ضريحه ، فان قبره باسدود بأرض الشام — زاوية مدين الأشمونى
كانت موجودة سنة ٩٥٢ كما قال المناوى بجوار زاوية الزاهد والمناوى — زاوية
مرشد + ٩٤٠ شارع جامع أصلان — زاوية المرصنى (على) سنة نيف وثلاثين
وتسعمائة بقنطرة الأمير حسن بمصر — زاوية مصطفى أغا وكيل دار السعادة بشارع
درب الجمايز سنة ١٢٠٧ — زاوية المناوى (عبد الرؤف) سنة ١٠٣١ بخط المقسم
زاويتا أحمد الزاهد ومدين الأشمونى — زاوية المنزل لاوى (محمد ابن داود) بالسمة

قرية في بلاد المنزلة - زاوية المنزلاوى (عبد الحليم) مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة - زاوية المنير (أحمد) المعروف بأبي طقية سنة ٩٣١ بخط المقسم بجوار زاوية الشيخ مدين - زاوية المنير أنشأها محمد بن حسن السنودى المعروف بالمنير آخر القرن الثانى عشر بداخلها ضريح منشئها شارع اللبودية حارة مكسر الحطب بالقرب من قنطرة الموسيقى على يسار الذهاب من السكة الجديدة إلى الحزراوى - زاوية المجذوب (على المصرى) سنة ٩٦١ داخل باب الشعرية - زاوية المهندار أنشئت كما يقول المقرئى مدرسة وخانقاه سنة ٧٢٥ ثم جددتها سليمان أغا الفازوغلى وجعل بها منارة ومنبراً بخط البرادعية من الدرب الأحمر - زاوية الموافى السندوبى ودفن بها ابن أخيه سنة ١١٤٠ كانت في مؤخر الجامع الكبير بالمنصورة - زاوية النشيلي (شهاب الطويل) مات سنة نيف وأربعين وتسعمائة بمصر العتيقة - زاوية نور الدين بن العظمة المجذوب عمرت له بشارع سويقة السباعين - زاوية يوسف بك شارع الحوض المرصود بجوار مدرسة السلاح وأنشأها الأمير يوسف بك وأقام بجوارها سيلا وحوضا لشرب الدواب سنة ١٠٤٤

هذا بعض ما صادفنا من أسماء الزوايا إبان هذا العصر ، أما عن حياة المجاورين في ظلها ، فقد تشابهت في أصولها وإن تفاوتت في مظاهرها وسعتها وعدد مجاوريها وألوان العيش بها ، وما من شك في أن الثبت الذي عرضناه بأسمائها ناقص ، وليس أدل على هذا من أن جميع الطرق التي هدتنا المصادفة إلى أسمائها قد تجاوزت الثمانين .. ١

فلنعرض موجزين طرفا من العبادات التي زاولوها في رحاب هذه الزوايا :

العبادة في رحاب الزوايا :

وقد كان أكبر ما يشغلهم من أمر هذه العبادات ، الانقطاع للتهجد وذكر الله وإقامة الصلاة ، وقراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن . وبلى هذا الاطلاع على

كتب التصوف والعلوم الدينية إجمالاً ، فلنعرض طرفاً من رأيهم في ذكر الله ، وهو أكبر هذه العبادات خطراً ، ملتزمين في هذا العرض تصوير الجو الروحي الذي عاشوا فيه كما توهموه هم ، لا بالقياس إلى هذا الجو في غير عصرهم :

الذكر :

كلمة نطلق على جميع العبادات التي يقوم بها المرء بلسانه بل بأفعاله^(١)، وذكر الله المندوب إليه في الكتاب والسنة هو التوجه لله تعالى بكليته سواء نطق باسمه الكريم أو لم ينطق ، واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ، وسواء كان في ذلك قائماً أوجالسا أو نائماً فاذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم^(٢)، ولا يراد بالذكر تنزيه الله فإن الله الكمال المطلق ، وما ثم شيء ينبغي أن ينزه عنه ، ومتى قصد الذاكر تنزيهه فقد ألحق به القبح بوجهه — تعالى الله عن ذلك — وليس يراد به طلب الحق فאלله موجود أبداً والمفقود هو الذي يطلب ، هو معكم أينما كنتم^(٣)، وإنما يراد بذكر الله أن يشهد الذاكر ليلاً ونهاراً أنه بين يديه ، وأنه يرانا ويطلع على أعمالنا وأقوالنا وخواطرنا^(٤) وكل ما خلا ذلك من أطماع الذاكرين فهو سوء أدب^(٥) ولهذا أريد بالإكثار من الذكر حصول الأنس للريد حتى لا يغفل قلبه ويشهد الله دواماً فيراه بقلبه أو يرى نفسه في حضرته تعالى وكلا الحالين إذا دام منع صاحبه من الوقوع في المعاصي

(١) الرسالة النصورية ٤٤٨ والغزالي يقصره على العبادات باللسان .

(٢) التعليم والارشاد ص ٦٤ وبيت الصديق ص ٢١

(٣) الشعرائ : ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ص ٢٦

(٤) المهود المحمدية ص ٣١٤

(٥) ردع الفقراء ص ٢٧

وكفاه مواطن الزلل (١) والذكر عمدة الطريق كما سنعرف — والغرض من الطريق هو القرب من حضرة الله الخالصة ومجالسته فيها من غير حجاب (٢) لأن المتصوف يحب الله لذاته لا لإحسانه (٣) ولهذا وجب على الذاكر أن يجعل ذكره للتعبد لا لطلب المقام (٤).

سندهم في ذكر الله :

مرد سندهم في هذا إلى رسول الله ، الذي قيل إنه لقن صحابته ذكر الله جماعات وأفرادا ، وقد حفلت المصادر ببيان هذا وتفصيل الطريقة التي اتبعها في الحالين (٥).

قيمة الذكر عندهم :

كان الذكر آثر العبادات عند أهل التصوف جميعا إبان هذا العصر — وإذا كان الغزالي يقول إن تلاوة كتاب الله ليس بعدها عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله ، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه تعالى (٦) فقد قام النزاع في العصر العثماني بين أهل التصوف بسبب المفاضلة بين ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز فقال قائلهم إن الذكر آثر للمريد ، أما تلاوة القرآن فأفضل للكامل الذي عرف عظمة ربه (٧) ولا عبرة بما يراه البعض من إثار تلاوة القرآن لأهل التصوف جميعا ، واتفقوا جميعا على أن ذكر الله والاشتغال

(١) الشعراني : المهود المحمدية ص ١١٣

(٢) قواعد الصوفية ص ١١٤

(٣) : الجواهر والدرر ص ٢١٥

(٤) : درر القواس ص ٨٢

(٥) قواعد الصوفية ص ٨ و ٩ وآداب التقشيدية ص ١١ ودلالة السائرين للسمنودي ص ٤ و ٥

(٦) الأحياء للغزالي ج ١ ص ٦٤

(٧) قواعد الصوفية ص ٢٥

برياضة النفس أفضل من الاشتغال بالعلم (بالدين)^(١). على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله حتى لا يكون المزيد شغل إلا بربه ، وقالوا إن الذكر منشور الولاية أى أنه ، مرسوم يصدره الله لعبده بالولاية كما تصدر ملوك الدنيا ، مرسومات ، بالحق كبار الموظفين في الوظائف الشاغرة ، ومصادر التصوف في هذا العصر حافلة ببيان قيمته واللجاجة في تقديره وتقديره ،^(٢).

ولم تكن هذه اللجاجة غريبة على من يرون أن الذاكر جليس الله وليس يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة وخدم ، وإذا كان ملوك الدنيا لا يأذنون لسكل إنسان بالمشول بين يديهم ، وإن انتهى ذلك ، فأحر بالخالق أن يكون جلساؤه من صنف ممتاز يقف حياته لذكر الله .

ومن هنا اشتدوا في حساب من يتغيب عن مجالس الذكر ، ولو اعتذر بالانصراف إلى دراسة الدين ، ومن ارتكب ذلك وجب أن يؤنب نفسه أمام إخوانه ، وترك الاعتذار استهانة بمجالس الله^(٣).

طريقة الذكر :

كان ميل السواد الأعظم إلى الجهر ما وسع الذاكر ذلك ، حتى لقد حدد البعض طريقة الاهتزاز أثناء الذكر ، والجهة التي يميل فيها عند نطق كل كلمة^(٤). وإن صرح البعض بأن هزة الرأس والذقن في الذكر ليست كل شيء فأمم منها احتراس القلب من الاسترسال في خواطره ومزيد مراقبته للحق في باطنه

(١) المهود المحمدية ص ١١١ والبحر المورود ص ١٠٣

(٢) أنظر مثلا قواعد الصوفية ص ١٤ — ١٥ والبحر المورود ص ٢٧٤ — ٢٧٥ وردع الفقراء ص ٢٧ وقواعد الصوفية ص ٢٠٦

(٣) قواعد الصوفية ص ١٦٤ — ١٦٥ — ١٦٦

(٤) قواعد الصوفية ص ١٧ ودلالة السائرین ص ٢٨ والسیر إلى الله لحمد البكری ص ٥١٩ وفي دلالة السائرین ص ١٤٤ شرح آخر لطريقة الذكر والنطق .

وظاهره^(١) وكلامه لا ينفي اهتمامهم بعنف الحركات وجمهوريّة الصوت . وقد شاعت الدعوة إلى هذا واستجاب لها الذاكرون كما سنعرف بعد قليل، وكانت حجّتهم في رفع الصوت جمع شتات القلب وتجنب الحياء من الناس في ذكر الله^(٢) .

ويلاحظ أن الجهر بالذكر كان غير محبب إلى الكثيرين من العلماء وحملّة الشريعة، فاستكروه ورموا أهله بالكفر والزندقة والعبث باسم الله، ولهذا كثرت الرسائل التي وضعها العلماء في ذلك - وسنعرف شيئاً منها فيما بعد . وعنى بعض المتصوفة باستفتاء الفقهاء الذين يبيحون الجهر بالذكر وحملوا إلى الناس فتاويهم يبررون بها طريقتهم^(٣) ولدينا الكثير من الفتاوى بهذا الصدد وقد ثار العلماء يوماً على البيومي وجماعته لأسباب منها رفع أصواتهم في الذكر . واتصلوا ببعض الأمراء وكادوا أن يمنعوا الشيخ وجماعته من إقامة الذكر بالمشهد الحسيني كما اعتاد ذلك كل ثلاثاء، ولولا أن الشيخ الشبراوي تدخل لنصرتهم ورفع البيومي عند الباشا لثم لخصومه ما أرادوا^(٤) .

ولم يكن العلماء وحدهم الذين يكرهون الجهر بالذكر في المساجد، فقد وجد بين المتصوفة من لا يبيحونه إذا نشأ منه تشويش على الذين يقيمون الصلاة أو يستمعون إلى حديث الوعاظ، بل حرموه إن كان فيه إقلاق لراحة نائم^(٥) وقد صرح بهذا (الشعراني) وإن كان قد حتم على من أراد منع الجهر بالذكر التزام الحكمة في طلبه، وسياسة الذاكرين بالحنكة وحسن المعاملة، واستشهد

(١) الرسالة المنصورية ص ٤٤٨

(٢) قواعد الصوفية ص ١١٢

(٣) عبد الفتى البابلي: رحلة البابلي ١٣٣ إلى سنة ١٣٧

(٤) الجبري ج ١ ص ٣٣٩

(٥) البحر المورود ص ٢٢٧ - ٢٢٨

بالجنيد حين وقع له مع الإمام أحمد بن صريح جدال بهذا الصدد انتهى
بانتصار شيخ الطريقة ^(١) والظاهر أن الشعراني قد انساق إلى هذا التحذير
من فرط ما ناله من الوعاظ الذين ساءم جهره بالذكر مع جماعته كما سنعرف
بعد ^(٢).

على أن الجهر بالذكر كان في الجملة أحب لى أهل التصوف وفاء بحق الملائكة
الكاتبين، فانهم رسل الله إلينا يكتبون أقوالنا وأفعالنا فنجهر بذكر الله رغبة في
إشاعة السرور في قلوبهم ، لأن الملائكة تتفاخر بأعمال أصحابها كما يقول
الشعراني ^(٣) ثم إن الذكر سرأ قد يؤذى صاحبه ويشوى كبده ويحرق بطنه ..
وقد وقع ذلك لجماعة الشيخ عمر ببلاد العجم - وهو شيخ الشيخ دمر داش
بمصر - حرم كبير المفتين على جماعته الجهر بالذكر وكانوا يبلغون الخمسة
آلاف عدا ، فلما فرغوا من مجلس الذكر الذي التزموا فيه السرية حملوا منه في
ذلك اليوم نحو نصف ألف أدركهم المرض واحترقت أكباد نحو أربعة عشر
نفساً وخرجت من جنوبهم .. ١١ وقد زعم راوى الحكاية للشعراني أنه حسس
بيده على أكبادهم فتبين أنها مشوية محروقة كالسكب المشوى على الجمر .. ^(٤)
وقد سارت البكرية على الجهر بالذكر من قديم الزمان فهي اليوم تبيحه للفرق ،
وقديما كان الخنفي + ٨٤٧ يأمر أصحابه برفع أصواتهم بالذكر في الأسواق
والشوارع والمواضع الخربة المهجورة حتى تشهد للذاكرين يوم الدين ^(٥).

وقد كانت مجالس الذكر إذا أقيمت في هذا العصر ، بدأ المنشدون ينشدون
الأشعار ليلهبوا بها حماسة الذاكرين وإن كان بعض الصوفية الذين زاروا

(١) المهود الحمديّة ص ١١٣

(٢) المناقب الكبرى ص ١٤١ انظر كتابنا عن الشعراني

(٣) البحر المورود ص ٢٣٣

(٤) المهود الحمديّة ص ١١٢

(٥) الشعراني : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٧

مصر في العصر العثماني وكانت لهم مكانة ملحوظة عند أهل التصوف، يرون أن إنشاد أشعار العارفين — من ابن العربي والتلساني وغيرهما من السادة الصوفية — لا يجوز لغير القادرين على فهمها الذين لا تلهيهم بالطرب النفساني وإلا كانت مجرد هو وبطالة^(١) ويقول (عبد الغنى النابلسي) إن الصعق والزعم والضياح والاضطراب والتواجد عند سماع المغنين في مجالس الذكر جعل من أصحابها، إلا إذا قام الذاكر للتواجد قومة المضطر الذي استفزته المعاني الإلهية الواردة على قلبه وخاطره في ذلك الوقت — والكمال دوما في السكون^(٢) والظاهر أن هذا الرأي لم يكن شائعا بين الذاكرين في مصر، فقد وصف النابلسي في كتاب آخر مجالس الذكر في جامع عمرو بن الفارض فذكر الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العاتم ونزع الثياب والزحام ونحو ذلك^(٣).

وكان يملأ الكثر من هذه المجالس الطبول والمنايات والأعلام والرايات، وقد رأى النابلسي أنها هو وجمل وبطالة لا ينبغي للشيخ المرشد أن يقر عليها أصحابه^(٤).

آداب الذكر:

وضغوا للذكر كثيرا من الآداب يسبق بعضها الذكر ويصحبه بعضها ويعقبه بعضها الآخر، فأولها التوبة والتطهر والصلاة ونحوها، وثانيها يحدد طريقة الجلوس والجو الذي يختار لذلك، وحالة القلب والخطاير واختيار صيغة الذكر ونحو ذلك، وثالثها التهيؤ لاستقبال الوارد مع العزوف عنه، وشرب الماء البارد^(٥)... الخ

(١) النابلسي: كشف النور ص ٩٢ (٢) كشف النور ص ٩١

(٣) رحلة النابلسي ص ١٤٠ — ١٤١ (٤) كشف النور ص ٩١

(٥) قواعد الصوفية ص ١٥ (وكل من لم يذكر مصدره في آداب الذكر فهو مأخوذ عن هذا الكتاب ص ١٥ — ١٨) وقد نقل صاحب كتاب (آداب النشيدية) هذه الآداب ص ٤٩ وما بعدها وكذلك نقل صاحب دلالة السائر ص ٢٤ وما بعدها السير إلى الله ص ١٩ وتحفة المالك ص ٤٥٩ والوجه المقابل لصفحة ٤٥٩ (في المخطوط)

ثمرات التذكر :

يؤدي الذكر إلى التزام الطاعات وتجنب المعاصي، بل يسلم الذّاكر إلى حضرة الله ، فيضحى الحق سمعه وبصره وكل قواه، فينبثق العلم في نفسه، ويزايله الشك في أمره ، ويصبح باتصاله بالله قويا بعد ضعف آمنة بعد خوف ، بل تتسع قدرته حتى تتجاوز قوانين الكون ونواميس الطبيعة ومنطق العقل ١٠٠

هذه أوهام تمثلت في خواطر هؤلاء العجزة ، الذين أعوزهم العيش على ما يحبون، وجهلوا بالاتصال العلي ، الذي يربط بين المعلولات وعالها، فصوروا نواميس الكون على الوجه الذي يشتهون ١٠٠

الخلوة :

كان المراد بالخلوة اعتزال المريد للناس للتفرغ لذكر الله والانقطاع لعبادته، ولهذا كثرت الخلوات بين جدران الزوايا وخارج جدرانها ، روى النابلسي في رحلته إلى مصر أنه لما زار زاوية الدمرداش رأى خارج ضريحه ، نحو خمسين أو ستين خلوة ذات أسوار وأنوار ، وهي التي تسمى مساجد الأنوار يختل بها المريدون ، وصعد إلى سطح هذا القصر العالي (الزاوية) فوجد هناك رواقا كبيرا يتلألأ نوره وفيه كذلك كثير من الخلوات (١) .

ولعل انتشار الزوايا في أرض مصر يساعد على تصور كثرة الخلوات التي عرفها أهل التصوف أيام العثمانيين ، بل لم تكن الزوايا وحدها مقر الخلوات، فقد وجد بين المتصوفة من أخلص العبادة لله أو لمنفعة نفسه دون أن تكون له زاوية يقيم فيها مع مريديه . وقد أقام بعض هؤلاء مغاور ، يختلون بها للتعبد والذكر . وكان بعض هذه المغاور رحبا ملحوظ التناسق . فكانت مغارة الشريف أبي عبد الله المغاوري ، منقوشة في الجبل مستوية مهندمة طولها داخل الجبل نحو خمسة وستين ومائة قدم وعرضها

أكثر من عشرة أذرع،^(١) وكانت الخلوات تقام أحيانا في المنازل وتزدان جدرانها بالكلمات المأثورة وقد كانت خلوة جلال الدين البكري بداره قاعة صغيرة جدا بايوانين متقابلين وهي لطيفة البناء ظريفة الفناء بها النور الساطع والسر اللامع القاطع ، وعلى جدرانها اثنان وعشرون بيتا من الشعر نظمت بتاريخ عام ٩٧٩ هـ ^(٢) .

التزامات الخلوة :

وللخلوة التزامات لا تستقيم بدونها ، كأن يعود المرید نفسه قبل دخولها ندرة الكلام وقلة الأكل حتى يتيسر له بعد ذلك أن يصوم في خلوته ، لأن الجوع يحلل من جسمه الأجزاء الترايية والمائية . أما الشبع والارتواء فيجلبان النوم ويصرفان عن ذكر الله . ومن الأدب تيقظ القلب في حضرة الله ومن لم يلتزم ذلك الشرط فقد أساء الأدب . يقول عمر بن الفارص :

إذا ما بدت ليبي فبكلّي أعين وإن هي ناجتني فكلّي مسامع^(٣)
ومن آدابها صفاء النية والرغبة في الكف عن أذى الناس وإراحتهم من شره^(٤) وانقطاع المرید عن زوجه وولده وعشيرته وسائر الناس^(٥) ، وإدانة تفكيره في شيخه ، مع الاعتقاد بأن خلوته مقبرته التي لن يبرحها إلى يوم الدين كما يقول الشعرائي والمنير^(٦) وإن تجاوزت أهل التصوف في ذلك^(٧) ،

(١) رحلة النابلسي ص ١٤٠

(٢) رحلة النابلسي ص ٢٣٠ وبيت الصديق للسيد توفيق البكري ص ٦٢ — ٦٣

(٣) السهوي المحمدية ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٤) علي البيومي : خواص سورة الفاتحة ص ١٣ و ١٤ ودلالة السائرین ص ٦٠

(٥) علي البيومي : خواص سورة الفاتحة ص ١٤ (مخطوط)

(٦) دلالة السائرین ص ٧٠ .

(٧) انظر خواص سورة الفاتحة ص ١٣ والطبقات الكبرى ج ٤ ص ١٢٧

و ص ٧٩ والكواكب الدرية ودلالة السائرین ص ٦٩

هذا بالإضافة إلى آداب المريدين نحو الصور والأشباح التي تترأى له، وعلى المريدين ألا يكتبوا عن شيخه ما يراه في أثناء خلوته (١) بما ينشأ عن الجو المعنوي الذي يحيط به نفسه، وهذا فوق شروط الخلوة (٢) ونحوها.

ثمرات الخلوة:

إذا صحت الخلوة أفلحت الرياضة وأتت من الثمرات فوق ما يتصوره العقل، منها أن يكشف المريد عالم الغيب المحجب، ويدرك أسرار الحيوانات والحشرات ويعطى القدرة على فعل الكرامات وإتيان الخوارق والتصرف في الكون بالهمة فيمشي على الماء ويطير في الهواء ويقتحم النيران ويفعل كل ما لا يقوى عليه سائر البشر (٣) أقام المنزل لاوى في خلوته نحو عام يقرأ في الليل ختماً وفي النهار ختماً ثم خرج ينفق من الغيب ويسد نفقات المريدين الذين كانوا يقيمون في زاويته وقد بلغوا المائة عدداً ويتعهد بالانفاق وجوه البر والخير من تعمير المساجد وبناء المدارس ومد الأسبطة وغير ذلك (٤) وغير هذا من ثمرات توهمها هؤلاء المعجزة الذين أعوزتهم القدرة على الضرب في زحمة الحياة، والظفر من الدنيا بأوفى نصيب، فالتمسوا في عالم الخيال تحقيق ما يشتهون...

أركان الطريق:

قالوا إن العصر العثماني قد أقبل وللطريق في مصر أركان أربعة لا يستقيم بغيرها، ولا يتولى المشيخة واحد من أهلها إلا إذا توفرت فيه خصائص هذه الأركان — التي تهيأت لأرباب الطريق قبل العصر العثماني في عرف الداهيين إليها — وهذه الأركان هي: تلقين الذكر، إدخال الخلوة، إرخاء العدة (٥)

(١) أنظر عبد القادر العيدروس: تكميل النور السافر ص ٢٣٨ والجبرتي ص ١ س ٣٤٠

(٢) دلالة السائر ص ٦٢

(٣) كتب الطبقات والمناقب حافلة بهذا النوع من الكرامات.

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧

(٥) التعراني: الجوهر المصون ص ١ (مخطوط)

— وهي الزيادة المدلاة من العمامة — وإلباس الخرقة . وهي عرقية وجبة ورداء^(١) ، أو طاقية من القطن^(٢) ، أو هي الأثر قيصا أو رداء أو جبة أو عمامة . . . ١١٠ والشيخ الذي يقوم بهذه المهام الأربعة شروط تخرجه في عرف المنطق عن نطاق البشر^(٣) ١١٠

هذه هي الأركان الأربعة التي هيأها الوهم لأرباب الطريق ، وفي الحق لقد كان لهذا الوهم ما يبرره ، فقد فشى الدجل واستشرى داؤه وكثر أدياء التصوف واستفحل أمرهم ، وقد بلغ عديد الطوائف التي هدتنا المصادفة الى معرفة أسمائها نحو الثمانين طائفة . لكل منها معسكرات في القرى والأقاليم ، وهذا خلا الذين ادعوا التصوف مستقلين عن الفرق وشيوخها . اومن الخير الآن أن نبسط الحديث في هذه الطوائف وليكن ذلك في الفصل التالي :

(١) انظر قواعد الصوفية ص ٢٠ و ٢٣٦ — ٧ والجوهر المصون ص ٣ و ٤ ودرر

العوام ص ٧٢

(٢) المناب الكبرى ل محمد الميجي ص ٢٧

(٣) المناب الكبرى ص ٦٥ — ٦٦

الفصل الثالث

في الطرق الصوفية

نشأة الطرق الصوفية — حال الطرق في وقتنا الحاضر —
الطرق أيام العثمانيين . احصائية ببعض أسمائها —
سميات الفرق — ثلاثى الفرق بين الطوائف

نشأة الطرق الصوفية :

يرى الأستاذ ماكدونالد أن المسلمين قد أثقلهم الجزع من الله الذى تخيلوه فى صورة المنتقم الجبار ، وضاقوا بالحياة لأن الفناء يدركها والشر يملأها ، وتصوروا الخير الأبدى فى الآخرة وحدها فمالوا إلى الزهد فى طلب الدنيا والإعراض عن مباحها ، مخافة أن ينزل بهم غضب الله ، وانطلق بعضهم هائما على وجهه لا يعرف لنفسه مقصدا ولا لحياته غاية ، وكان هذا أظهر آيات الصوفى الصادق يومذاك ، ثم استسلم الصغار لقيادة من يكبرونهم سنا وخبرة ، فتألفت جماعات صغيرة تضم تلامذة يلتفون حول شيخهم الموقر ، وبذلك ظهر نظام الإخوان فى الإسلام وأنشئت الخوانق — فى غير مصر — منذ القرن الثانى للهجرة (١). وكان كبار الناسكين والأولياء يجمعون حولهم طوائف من الاتباع (الدرأويش) يحملون اسمهم ، ومن أقدم هذه الفرق : القادرية التى أسسها عبد القادر الجيلانى سنة ٥٦١ والرفاعية التى أنشأها أحمد

(١) وقبل فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة (انظر ص ١٠٨ فى كتاب الحياة الروحية فى الاسلام لزميلنا الدكتور محمد مصطفى حلى)

الرفاعي + ٥٧٦ والشاذلية التي نسبت إلى الشاذلي + ٦٥٦ والأحمدية التي أنشأها أحمد البدوي + ٦٧٥ والنقشبندية التي أنشأها محمد النقشبندی + ٧٩١ والمولوية التي أسسها الشاعر الفارسي المعروف جلال الدين الرومي + ٦٧٣ هـ. ولا تزال هذه الطوائف وغيرها من الفرق التي نشأت بعدها قائمة إلى يومنا الحاضر. وثمة فرق اندثرت بعد أن قامت بفترة من الزمن، فابن سبعين كان له أتباع يحملون اسمه بعد مماته ولكن الزمان قد عفى عليهم فيما يلوح.

وكما ادعى المتصوفة أنهم ينحدرون من سلالة أتقياء المسلمين — ولاسيما العشرة الذين بشرهم النبي بدخول الجنة — فقد وجد من يدعون أنهم ينتسبون إلى الخلفاء الأول، وفي مصر من هؤلاء سلالة أبي بكر الصديق ولها نفوذ على شتى الطرق الأخرى كما أشار ماكدونالد^(١).

وقال علي مبارك إن أغلب الطرق منسوب إلى أربعة من كبار الأولياء : عبدالقادر الجيلاني وأحمد الرفاعي وأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي، فإن لكل منهم طريقة واحدة خاصة ثم تعددت الطرق بتعدد من أخذها عنهم مباشرة أو بالوساطة ونسبت إلى الآخذين عنهم لتفرعها عن الأصل — أحد السادة الأقطاب الأربعة — وتعددت الفروع حتى بلغت الأحمدية ستة عشر فرعاً وفي البرهامية فرعين، وقامت طرق أخرى مستقلة عن الأقطاب الأربعة كالسعدية والنقشبندية والشاذلية التي تفرعت إلى أربعة عشر فرعاً تفرع أحدها مرة أخرى (الخلوتية) إلى أربعة فروع^(٢) ولكن الأستاذ د لين، يذكر السعدية على أنها فرع من فروع الرفاعية^(٣).

وفي طبقات الشرنوبى + ٩٩٤ أحد متصوفة العصر العثماني قصة خيالية طريفة أوضح فيها كيف اقتسم هؤلاء الأقطاب الأربعة الأرض فيما بينهم فكان لكل قطب ربعها، وقد صور في القصة النزاع الذي قام بينهم عند اقتسام الأرض

(١) 1. D. B. Macdonald : Muslim Theology (1903) page 177

(٢) الحطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠ (٣) لين Lane ص ٢٤٨

وتدخل الله وملائكته ورسوله وأوليائه للفصل في قضيتهم ، ثم كيف ارتدوا جميعا بعد النزاع أصدقاء وأخوانا (١)

ولعل ما أسلفناه في هذا الفصل وما قبله يرر الظن بأن تأسيس الطرق كان أمراً مردّه إلى شخصية الشيوخ ومهارتهم ، فقد ينتسب الشيخ إلى إحدى الطرق الأربعة أو غيرها فيجذب إليه كثرة من الاتباع والمريدين يحملون اسمه في حياته ، فإذا مات خلفه ابنه أو أحد مريديه أو أقاربه كما عرفنا من قبل ، وتسلسلت الخلافة واستقلت طريقته ، وحمل أهلها اسمه بعد مماته ، وقد تفرع عن طريقته فيما بعد طرق أخرى بأسماء جديدة - كما أشار على مبارك وكما سنعرف بعد قليل .

ولسنا نعرف التاريخ الذي قامت فيه الطرق الصوفية في مصر على وجه التحقيق ، والراجح عندنا أنها نشأت بعد قيام الخوانق والربط والزوايا التي أسلفنا الحديث عنها في الفصل الأول ، ويؤيد هذا ما عرفناه الآن من أن نشأة الفرق في الإسلام كانت في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وفي هذا التاريخ نشأت الخوانق في مصر كما عرفنا من قبل ، وأكبر الظن عندنا أن مصر لم تسكد تشرف على العصر العثماني ، حتى كانت تضم كثرة من الطوائف الصوفية نرى أسماءها تتردد كثيرا في كتب المخضربين من كتاب العصر ، وفي طليعتهم الشعراي .

مال الطرق في وقتنا الحاضر :

والآن نحاول تأريخ بعض الجوانب في الطرق الصوفية التي كانت قائمة في مصر إبان العصر العثماني فنحصى أسماءها ونحدد بميزاتها ونكشف عن علاقة شيوخها بالبلاد النائية عن مكرم ، ولما كان ميدان هذا الحديث مظلما حالك الظلام ، وكان الكثير من الأمور تراثا يرثه الخلف عن السلف

(١) طبقات الصوفيين لمحمد البلقيني من ص ٣٩ إلى ٤٧

فقد آثرت الاشتعالة على توضيحه بذكر تمهيد موجز يبين حال الطريق في يومنا الحاضر :

الطرق الصوفية القائمة اليوم في مصر خمس وأربعون طريقة^(١) لكل منها شيخ له نواب في المراكز التي يستحوذ فيها على كثرة من المريدين والأتباع، ثم خلفاء في البلدان والقرى^(٢) لكل منهم مريدون يسلكون على طريقة الشيخ، ويدبر الشيخ أمر الخلفاء والنواب ويمينهم وفق ما يقتضيه هواه، كما يدبر الخلفاء أمر المريدين من حيث العمل على إرشادهم ومراقبة تربيتهم على أكمل وجه يقتضيه الشرع^(٣).

قد هداني اتصال ببعض كبار شيوخ الطرق في وقتنا الحاضر إلى أن الفوارق التي تميز الفرق بعضها عن بعض غير واضحة المعالم عندهم، فهم يرون أن الطرق كلها واحدة وأن أعظم الفوارق بينها قائم في أشخاص شيوخها. سألت صاحب السباحة السيد عبد الحميد البكري شيخ مشايخ الطرق السالف في مصر : لماذا كثرت الطرق ولم يقتصر شيوخها على طريقة واحدة ؟ فقال ولماذا كثرت في الدين المذاهب ولم يقتصر شيوخه على مذهب واحد ؟ قلت إن الفقهاء في كثير من المسائل على خلاف جوهرى أدى إلى وجود المذاهب المختلفة، قال لعل أكبر الفوارق بين الطرق أن بعض شيوخها قد آثر العزلة عن الناس والابتعاد عن مشاغلهم محتليا بنفسه لينصرف إلى العبادة ويتفرغ إلى ذكر الله - وهؤلاء هم الخلوتية ومن سار سيرتهم . وآثر البعض الآخر ألا يقنع بعبادة الله بل يتصل بالناس ليتولاهم بالنصح والإرشاد

(١) من احصائية أمديني بها صاحب السباحة المرجوم السيد عبد الحميد البكري شيخ المشايخ السابق .

(٢) المادة التاسعة من الباب الثاني من لائحة الاجراءات الداخلية ص ١٢

(٣) وضع سباحة السيد توفيق البكري شيخ المشايخ السابق مع فريق من رجال التصوف كتابا دليا أسماه «التعليم والإرشاد» ليستعين به مشايخ الطرق وخلفاؤهم على إرشاد المريدين .

ويرفع عنهم ما هم فيه من غي وضلال ، وأولئك هم الشاذلية ومن سار
سيرتهم .

وإني لأذكر عند كتابة هذا شيخ الطريقة الحفزية (الحفناوى) + ١٨٨١
وأذكر ما رواه عنه الجبرتي من أنه أخذ الطريقة الخلوتية عن السيد مصطفى
البكرى ومع ذلك فقد كان قطب رضى . الديار المصرية ولا يتم شيء في الدولة
إلا بأذنه .. (١)

والمطلع على لائحة الطرق الصوفية في وقتنا الحاضر يتبين من موادها
أنها ألفت أكثر الفروق التي كانت تميز الفرق بعضها عن بعض منذ القدم كما
سنعرف بعد قليل . هذا حال الطرق في وقتنا الحاضر فبأذا كان حالها أيام
العثمانيين ؟

إحصائية بالطرق أيام العثمانيين (٢) :

هدتنا المصادفة الى العثور على أسماء طرق كادت تبلغ الثمانين عدداً ، فقد روى
صاحب المناقب في معرض الحديث عن الشعراني أنه أخذ الطرق كلها ، هي
مشايخه وهي ست وعشرون طريقة هي طرق الرفاعية والقادرية والأحمدية
والبرهانية والشاذلية والسرورية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية
والمدينية والفردوسية والخلوتية والحمدانية والطيفورية والشطارية والخضرية
والأحمدية والعزيفية والسعودية والمصالحية والطيلسان والرداء والمئزر
وإرخاء العدة (٣) .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٥

(٢) وازن بين هذه الإحصائية وما يذكره الأستاذ « لين » Lane في كتابه السالف
الذكر من طرق صوفية في مصر ، وما يورده الأستاذ ماسينيون في مادة Tarika في دائرة
معارف الدين والأخلاق Encyclopedia of Religion & Ethics عن الطرق الصوفية
في الاسلام .

(٣) المناقب الكبرى ص ٦٦

والظاهر أن هذه الطرق لم تكن كل ما قام في مصر إبان العصر الذي عاش فيه الشعراني ، فإن في الكثير من كتبه ذكر طرق أخرى لم تذكر في هذا الثبت ، نذكر منها الآن ما لم يذكر في ثبت المناقب السالف . ذكر الشعراني في أكثر من موضع في لطائف المنن فرقاً منها : المطاوعة بالشرقية والصعيد (١) وفي قواعد التصوف يذكر طوائف البسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية (ولعلها البرهامية) والملامنية والحيدرية . (٢)

وفي العصر العثماني وجدت فرق تصادفنا أسماؤها في غير كتب الشعراني منها ما رواه الجبرتي عن أصحاب البدع كجماعات العفيفي والسيمان والعربي والعيسوية (٣) وأخرى رواها في مواضع أخرى مع بعض ما أسلفناه منها فرقة السعيدية (٤) والشعبية (٥) ثم الشاوية (٦) والشعرانية (٧) والمولوية (٨) ثم البراهمية والقدرية (٩) . وذكر عبد الغني النابلسي في رحلته إلى مصر فرقاً

(١) الشعراني : لطائف المنن ج ١ ص ١٢ و ٢٣٤

(٢) : قواعد التصوف ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣) الجبرتي ج ٣ ص ٤١

(٤) الجبرتي ج ٣ ص ٦

(٥) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٣ وبيت الوفاة للسيد توفيق البكري ص ١٩

(٦) الجبرتي ج ١ ص ٢٨٩ والنابلسي في رحلته ١٢٣ و « لين » ص ٢٤٩

(٧) الجبرتي ج ٢ ص ٢٢٦ (ترجمة لشيخ سجادتها الشيخ عبد الرحمن الشعراني سنة

١٢٠٥ هـ وذكرها الأحمداؤلين ص ٢٤٩

(٨) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٦

(٩) . (والراجع أن المراد بالأولى « البرهامية » وقد كثر تحريفها واختلف المؤرخون في اسمها فالسيد توفيق البكري (٢٧٣ من بيت الصديق) والسيد عبد الحميد (في الإحصائية السابقة الذكر) والشعراني أحياناً (١٢ و ٣٣٤ ج ١ لطائف) يذكرونها « البرهامية » وصاحب المناقب الكبرى يذكرونها البرهانية (ص ٦٦) . أما الجبرتي (ج ٣ ص ٦) وعلى مبارك (الخطط ج ٣ ص ١٣٠) والشعراني (اليهود المحمدية ص ٢٨١) فيذكرونها البراهمية والأصح فيما سلم « البرهامية » والراجع أن الجبرتي يريد بالقدرية طائفة القادرية المعروفة .

أسلفنا بعضها ويضيف فرقة الدمرداشية^(١) والبكتاشية^(٢) والكاشانية^(٣) وتشير طبقات الشاذلية إلى طوائف أخرى منها العفيفية^(٤) (ولعلها جماعة العففيين التي ذكرها الجبرتي من قبل).

وذكر على مبارك أن الفرقة الأحمدية قد تفرعت إلى ست عشرة طريقة هي : المرازقة والكناسية والأنباية والمنايقة والحمودية والسلامية والحلية والزاهدية والعشيبية (وقد ذكرناها من قبل) والبيومية والتسفيانية والشناوية والعربية (ولعلها جماعة العربي السالفة الذكر) والسطوحية والبندارية والمسلمية ويذكر الأستاذ لين ، طائفة أولاد نوح من فروع الأحمدية^(٥).

وقال ابن الرقاعي لا فروع لها وإن كان لها ثلاث بيوت هي البازية والملكية والحبيبية وللفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيخا أما البيوت فيجمعها شيخ واحد، وأما القادرية فلا فروع لها ولا بيوت^(٦). وأما البراهمة (أى البرهامية) فلها فرعان هما الشهاوية والشرانية (ولعله يريد الشرنوبية المنسوبة إلى أحمد عثمان الشرنوبي صاحب الطبقات المعروفة والمتوفى سنة ٩٩٤٠ هـ) وقال إن الشاذلية قد تفرع عنها أربع عشرة طريقة هي الجوهريّة والقاسمية والمدنية (ولعلها المدنية التي رواها صاحب المناقب) والمسكية والهاشمية والفروسية والتهامية والهندوشية والإدرسية والقاروقجية، ثم طرق أخرى سلف ذكرها (هي

(١) رحلة النابلسي ١٣٣ و « لين » ص ١٤٩ (٢) رحلة النابلسي ص ١٠٣

(٣) رحلة النابلسي ١٠٦ ويرى على مبارك (في بخطه ج ٣ ص ١٢٠) أنها تنسب إلى إبراهيم سنة ٩٤٠ هـ

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٨ (٥) الأستاذ « لين » ص ٢٤٩

(٦) المخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠ . وقد ذكر السيد توفيق في « بيت الصديق » ص ٢٧٣ فرعين لهذه الطائفة هما الفارضية والقاسمية وذكر الأستاذ « لين » أن السعدية فرع من فروع الرفاعية كما قلنا منذ حين .

السمانية والعفيفية والعيسوية والخلوتية المنسوبة إلى السيد مصطفى البكري^(١)
وقد تفرع عنها أربع طرق هي الحفنية (المنسوبة إلى الحفناوى + ١١٨١ هـ)
والسباعية والصاوية والضييفية^(٢) .

والظاهر أن الدمرداشية قد تفرعت كذلك عن الخلوتية (المتفرعة عن
الشاذلية) فإن عبد الغنى النابلسي يقول إن الشيخ شاهين قد اتهم بمعالجته
الكيمياء فنفر عنه أكثر أتباعه ومريديه وانتقلت شهرته العظيمة للشيخ دمرداش
حتى استقر شيخا للخلوتية في الديار المصرية^(٣) . وينصر صاحب تكميل النور
السافر على أن محمد كريم الدين الخلوتي قد تلقى الخلوتية عن دمرداش المحمدي
+ ٩٣٣ هـ^(٤) . ولا ينبغي أن ننسى البكرية التي تزعمت الطريق فيما بعد .

وقد حاول السيد توفيق البكري أن يورخ الطرق الصوفية القائمة في العالم
الإسلامي كله ، ولكن صعوبة الاهتداء إلى أصلها وتسلسلها ومعرفة تاريخ
نشأتها كانت تحمله على الاكتفاء في تاريخ أكثرها بأن يقول : منسوبة إلى
فلان ، أو موجودة بمصر الآن^(٥) وقد صادفتنا هذه الصعوبة عندما حاولنا
الاهتداء إلى نشأة هذه الفروع التي تحدث عنها علي مبارك وإن كان الراجع على
الظن أن أكثرها كان قائما في العصر العثماني ، فقد كتبت الخطط التوفيقية
بعد هذا العصر بأقل من قرن كان ساطان الصوفية فيه قد أخذ يضمحل —
وإن كان ذلك لا يبرر القول بأن الطوائف قد قل عديدها باضمحلال السلطان

(١) هذا رأى علي مبارك والراجع أنه غير صحيح فالطريقة الخلوتية كانت قائمة في مصر
قبل مصطفى البكري وكان زعيمها في مستهل العصر العثماني دمرداش المحمدي وتلاه تلميذه
محمد كريم الدين الخلوتي .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠

(٣) رحلة النابلسي ص ١٣٩

(٤) تكميل النور السافر ص ٧٥٣ (ويروي صاحب طبقات الشاذلية ص ١٣٦ أنه مات
سنة ٩٣٩ هـ) ولعل الأول أصح .

(٥) بيت الصديق ص ٣٧٤ — ٣٨٦

الذى كان لأهلها فان عددها في السنوات الأخيرة يزداد كما يبدو من احصائيتين.
فراهما في مكتبة مشيخة المشايخ مع أن سطوة أهل الطريق آخذة في الزوال
بمرور الزمان.

مميزات الفرق :

الخصائص التي تميز هذه الفرق بعضها عن بعض قليلة لا تكاد تذكر، وأولها
ما يختص بالزى وثانيها ما يتعلق بطريقة الذكر والعبادة ؛ فأما عن الأول فقد
عرفت الأحمدية بالزى الأحمر والبرهامية بالزى الأخضر والرفاعية بالزى
الأسمر كما يقول على مبارك ، والأستاذ لين ،^(١) أو الأسمر والأبيض كما
يقول السيد توفيق ، وعرفت القادرية بالزى الأخضر وإن قال الأستاذ لين
أن يبارقهم وعمائم بيضاء^(٢) وعرفت بالزى الأخضر كذلك السعدية^(٣)
ويقول على مبارك إن أعلام الشاذلية مختلفة الألوان وليس للخلوتية علم
وزيهم الذى يميزهم هو الفاروق ، كما أن الأولياء الذين تنسب إليهم الأحزاب
المعتاد قراءتها ليس لها علم وزيهم الخاص هو التاج^(٤) وكان التاج من مميزات
الخلوتية كما يشير صاحب السنا الباهر^(٥)

ومن هذا نرى أن الزى وحده غير كفى لتمييزهم ، فان الزى الأخضر
مثلا تتفق فيه القادرية والسعدية والبرهامية - بفرعها وكذلك نقول في
الأحمدية والشاذلية وغيرها من الطوائف المتعددة الفروع . وكان أولاد

(١) « ابن فى كتابه ص ٢٤٨ يقول أن رايات الرفاعية سمراء ومماتها سمراء أو
اللون الأزرق الفاتم

(٢) « لين » ص ٢٤٩

(٣) بيت الصديق ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٨٨ — الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠
و « لين » ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠ .

(٥) تشكيل التور السافر ص ٧٥٣ .

نوح صغاراً يرتدون جميعاً طراوير تزينها من القمة خصل من الخرق ذات الألوان المختلفة ، ويتقلدون سيوفاً من الخشب ويمسكون سوطاً يسمونه «فرقله» (١)

فأما وجه الخلاف بينها في طريقة العبادة والذكر فنذكر ما عثرنا عليه بين ثنايا السطور مما ذهب أشتاتا في بطون كتبهم ، إذ لم نهتد إلى مصدر عرض لوجه الخلاف بينها بإسهاب ولا إيجاز .

والظاهر أن أكبر ما يميز الطوائف وردها — كما يقول «لين» ، فلكل طائفة ورد أو حزب أنشأه شيخها وحرص عليه أتباعه في حياته وبعد مماته ، يرددونه في الأوقات التي حددها لهم ويتلونونه جماعة دون أن يتغيب عن تلاوته أحد منهم ، لأن مدد الشيخ في ورده كما يقول الشعراني ، ولهذا كان من أعظم ما يقع فيه المريد من سوء الأدب مع شيخه تغيبه عن تلاوة الورد الذي رتبته صباحاً ومساءً ، وقد حتموا على المريد إذا اضطره للتغيب ظرف قاهر أن ينبيه شيخه ليناقشه فيه الحساب ، فإن كان تغيبه من غير عذر وجب أن يؤنب نفسه أمام إخوانه والاشتغال بالعلم ودراسة الدين لا يصلح قط أن يكون عذراً يحتمى به من قصر في حضور مجالس الورد (٢) بل لقد اعتبر بعضهم التغيب عن مثل هذه المجالس سبباً يبرر طرد الشيخ للمريد الذي يقدم عليه (٣) ، وقد جرت العادة بأن يعتز الشيخ بورده ، فلا يأذن لأحد ممن يسلكون على يده أن يقرأ ورد غيره ، فمن ذلك أن الشيخ محمود الكردي قد سلك على طريقة القصيري ولكنه رأى الحفناوي + ١١٨١ هـ في رؤيا وقيل له هذا شيخك ، فعلق به قلبه وأخذ عنه طريق الخلوتية ، وسلك على يديه وإن أقام على قراءة

(١) «لين» ص ٢٤٩ .

(٢) قواعد الصوفية ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٣) دلالة السارين ص ١٢٦ .

أوراد شيخه، القصيرى، . فمات به في هذا شيخ شيخه « السيد مصطفى البكرى ، وكان الكردي قد كبر وعظم شأنه وأجيز وأذن له بارشاد المريدين وتربيتهم ، فاعتذر عن مسلكه بالخوف من شيخه القصيرى ، فطلب اليه البكرى أن يستخير الله ، ولما استجاب لمطلبه رأى في منامه رسول الله وقد وقف القصيرى عن يمينه والبكرى عن يساره ، وقال القصيرى للرسول : أليست طريقتى على طريقتك ، وأليست أورادى مقتبسة من أنوارك . ؟ فلهاذا يأمر السيد البكرى بترك أورادى . . ؟ فقال البكرى : يا رسول الله ، رجل سلك على أيدينا وتوليننا تربيته ، أيجوز له أن يهجر أورادنا ويقرأ أوراد غيرنا . . ؟ ويقول الراوى إن رسول الله قد أبى أن يفصل في أمرهم وأشار عليهم بعمل القرعة . . ١١ ورأى الكردي في رؤيا وقعت له في الليلة التالية ، أن أبا بكر الصديق يشير عليه بانباع السيد البكرى ، ورأى بين السماء والأرض ورده وقد كتب بحروف مجسمة من النور ، فأنشرح صدره وهجر القصيرى بعد ذلك .^(١)

على أن الأحزاب فيما نرى لا يميزها الا اختلاف واضعيم لأنها أدعية يتوجهون فيها إلى الله ، وصيغ مختلفة للصلاة على نبيه ، وهى فى الجملة حافلة بآيات من القرآن الكريم ، والكثير من فقراتها يتكرر مرات يختلف عددها حتى ليبلغ الثمانين — كما فى نرى حزب الشناوى^(٢) أو الثلاثين كما نرى فى حزب الشمرانى^(٣) أو الثلاث مرات كما فى حزب الجارحى وغيره^(٤) بل لقد هدتنا المصادفة الى أن حزب أبى السعود الجارحى مأخوذ كله — ماعدا خاتمته — من حزب الخصوصية للسادة الوفاية^(٥) أو لعل الجزء الأول من الحزب الثانى هو المأخوذ من حزب الجارحى ، فما ندرى التاريخ الذى وضع فيه حزب

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٦٥ — ٦٦ ومن الواضح أن القصة مردها إلى حالة الكردي النفسية أثناء بظفنه ، فى إعجابه بالحفاوى ومخاوفه من القصيرى واعتقاده فى البكرية . . . الخ

(٢) مجموعة الأحزاب ص ٣٤ (مخطوط)

(٣) مجموعة لأحزاب ص ٢٨

(٤) مجموعة الأحزاب ص ٣٣

(٥) مجموعة الأحزاب ص ٢٣ ثم ص ١٧٨ — ١٨٠

الوفائية هذا — ونلاحظ كذلك أن لبعض المتصوفة حزين أو ثلاثة كما نرى عند زين العابدين البكري^(١) ومحمد أبي الحسن البكري^(٢) وغيرهما وقد يضع شيوخ البيت الواحد عدة أحزاب تتلى جيلا عن جيل كما نرى في بيت السادات البكرية والوفائية^(٣) ووجوه التمايز بين الأحزاب لا تكاد تظهر في غير الصياغة اللفظية . ولهذا فإن أظهر الفروقات بين الأحزاب فيما يلوح لنا هو اختلاف منشئها .

ويلى هذا في وجوه التفرقة بعض مظاهر أخرى هدتنا المصادفة إلى العثور على بعضها في بطون كتبهم ، منها ما رواه الجبرقي عند الكلام على أهل البدع كجماعة العفيفي والسباني والعربي والعيسوية إذ قال إن لهم طريقة خاصة بهم في ذكر الله ، فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والمواالات ، ومنهم من يقول أبيتانا من بردة المديح للبوصيري ، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبي . وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدى محمد بن عيسى وطريقتهم أنهم يجلسون قبال بعضهم صفيين ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على النغم ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم ، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم في أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر ويتلوون ويتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوى عظيم

(١) مجموعة الأحزاب ص ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٣

(٢) مجموعة الأحزاب ص ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢٥٣

(٣) تنظر مجموعة الأحزاب السالفة الذكر ، (فهرس رقم ١ المطبوع بدار الكتب في التصوف والعلوم الدينية) .

وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء كل أحد له طريقة
تباين الأخرى، (١).

ويمتاز فقراء الخلوتية في ذكرهم وأورادهم بكثرة الاستغفار والتسبيح
والصلاة على النبي، ولهم في ذلك صيغ يرددونها فصلها الذين أرخوا هذه
الطريقة (٢) أما طريقة تلقينهم للذكر فخير ما يميزها تردد الأسماء السبعة على
نمط مخصوص وفي فترات متقطعة والأسماء الستة الأولى في الأذن اليسرى
وهي: لا إله إلا الله وقد عرفنا كيف تردد ثلاث مرات مع إغماض العينين
ثم: الله - هو - حق - حي قيوم - ثم الاسم السابع في الأذن
اليمنى وهو فهار - وقد أبان الدردير الطريقة التي تلقنها بها من الحفاوى
المعروف (٣).

ولقد كان للسادات الدمرداشية والخلوتية والشناوية طريقة في ذكر الله،
فقد رويناها عن عبد الغنى النابلسي وقلنا إنهم كانوا يقدمون للذكر محلقين ثم
يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض، وذكروا الله في رقعة يسمونها
الحوية قائلين هو هو هو (٤) وكان بعضهم يركبون أياديهم إلى الورا
أمام رؤوسهم ويحركونها بالتصعيد والتسفل والتلوى على هيئة لعبة
يسمونها النصارى ركض الديك. كما يقول محمد بن صفى الدين
الحنفى (٥).

وكان أظهر ما يميز الفقراء السعدية إكثارهم من ذكر الله، حتى إذا طاب
لهم الذكر تواجدوا واضطربوا واستأقظوا على الأرض كالخشب المسندة لا يقوون
على النهوض بل لا يستطيعون حراكا حتى يقوم نقيب الشيخ بكبس أيديهم
وأرجلهم وإنهاضهم على بركة شيخهم، ومن كرامات بعضهم في هذه الحال

(١) الجبرت ج ٣ ص ٤١

(٢) الطريقة الصاوية ص ١٦ وما بعدها

(٣) الطريقة الصاوية ص ٣١ وما بعدها

(٤) رحلة النابلسي من ص ١٣٣ إلى ١٣٥

(٥) الصاعقة المحرقة ص ٢

إخراج سائل ملون بالأحمر والأبيض أو الأصفر من أيديهم ومواضع أخرى في أجسامهم دون أن يصيبهم جرح أو يكون فيهم متفقد لذلك... (١)
ولعله العرق الناشئ عن الجهد، قد لوثته قذرة البشرة أو الدم الذي ينبثق من جروح تنشأ عن عنف الحركات... (٢)

والظاهر أن البرهامية كانت تتميز في عبادتها بذكر الله بصيغة يادائهم، فقد قال الشعراني في ترجمة عبد العال المجذوب: «ورأيت مرة وهو صاعد كوه بلده فقلت في سرى ياترى هل هو أحمدى أم برهائى فصاح: يا دائم يادائهم يشير إلى أنه برهائى» (٣).

ويرجع الدكتور عفيفي القول بأن الملامتية لم يكن لهم طريقة منظمة وقواعد ثابتة مقررة وأتباع ينتمون إلى المشايخ إتهام أهل الطرق المتأخرين، ولكن كانت لهم صفات وآداب تكفي في التمييز بينهم وبين طوائف الصوفية الأخرى من عاصروهم أو عاشوا بعدهم، (٤).

وفي السهروردي (٥) والمقريزي (٦) تفرقة بين الملامتية والقلندرية جاء فيها: «أن الملامتى يعمل في كتم العبادات والقلندرى يعمل في تخريب العادات واللامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه تستر الحال حتى لا يفتن له وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات، والقلندرى لا يتقيد بهيئة ولا يبالي بما يعرف من حاله وما لا يعرف ولا ينعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله، والظاهر أن حال الملامتية لم يتغير كثيرا في العصر العثماني عما كان عليه أيام المقريزي، فالشعراني يقول إنهم يقللون النوافل مخافة الغرور (٧) وإن كان قد ذكرهم في كتاب آخر بين الفرق التي لا تتقيد بمظاهر الكتاب

(١) الصرة الالهية للطائفة السعدية

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦١

(٣) أبو الملائكة: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٤

(٤) عوارف المعارف ص ٣ و ٤ (على هامش ج ٢ من الأحياء)

(٥) خطط المقريزي ج ٤ ص ٣٠١

(٦) البحر المورود ص ٢٨١

والسنة^(١) وإن كان ابن عربي يرفعهم — في فتوحاته — إلى مقام في الولاية لا يدانيهم فيه أحد، فيما يقول الدكتور عقيقي .

وكان فقراء المطاوعة يجتمعون في حلقات الذكر ويتخذون لهم مغنين من الرجال ومساعدين يدقون الطبول ويضربون الكورس وأولاداً يجلسونهم وراء الذاكرين حتى إذا اشتدت حماسة الذكر هجم عليهم الأولاد واحتضنهم من الخلف تبعنا وبركة، وكانوا إذا ساروا وضعوا فوق رؤوسهم أو على جنوبهم «ملاحف وسراويل» فاذا انطلق الفقراء في الطرقات نشروا راياتهم ودقوا طبولهم وضربوا على كؤوسهم وكان لموكبهم ضجة عظيمة، وقد كانوا يتخذون «أباريق» يملأونها بالماء ويحملونها في أيديهم كلما ساروا ليتطهروا منها بين الحين والحين، وسبحا كبيرة من الخشب أو العظم أو نحور ذلك، وسيوفا من الخشب ومزاريق من الحديد وطواق من السعف وطراير يضعون عليها الودع والريش والخرق الحمراء وغيرها^(٢).

ويعبر الجبرتي عن الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية بأنهم من أصحاب الأَشَاير^(٣) والمراد بالأشَاير كما يقول علي مبارك بجموع كثيرة من أهل الطرق يسرون من منازلهم ليلاً وبأيديهم الشموع وهم رافعوا الأصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين (ص) ولا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الشريح أو محل الاحتفال بالمولد، وبعضهم عادات من الحلو أو الشموع توزع عليهم حين وصولهم بعضها مقرر من الأوقاف وبعضها من مشايخ خدمة الأضرحة^(٤).

واشتهر فقراء السعدية والرفاعية بحوادثهم مع الثعابين، ولعل الرفاعية كانت أشهر الطرق بالكرامات التي تقوم على طعن النفس بالمدى في حالة الغيوبة وأكل الزجاج والقبض على الحديد المحمى ودخول النار وازدراء

(١) قواعد الصوفية ص ١٧٥ (مخطوط)

(٢) فتوى الشيخ على الصيدي (مخطوط)

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٨٧٦ ، بيت الصديق ص ٢٨

(٤) المخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢١

الأفاعى وغير ذلك مما لا نزال نرى الكثير منه ^(١) وإن كانت لائحة الطرق الحالية قد حرمتها على فاعليه .

ومن أظهر مميزاتهم : البيعة وتلقين الذكر ، وكانت طريقته في الأولى أن الطالب إذا وفد على شيخهم أمره هذا بأن يتوضأ ويصلى ركعتين بنية التوبة والإجابة ثم يجلس المرشد (الشيخ) مستقبلاً القبلة جاثياً على ركبته بالأدب والخشوع ويجلس الطالب أمامه لاصقاً ركبته ، ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فأنما ينكث على نفسه ... ثم يأمر المريد بأن يقول : أستغفر الله — أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، تبت إلى الله ورجعت إلى الله ونهيت نفسى عما نهى الله ، ورضيتك شيخاً لى ومرشداً لطريقة الرفاعى — فيقول له المرشد : وأنا أقمتك مريداً بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له : قم مريداً فى هذه الطريقة . أما طريقته فى تلقين الذكر فلا تكاد تختلف عما أسلفناه من حيث نرداد لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمض العينين ، وإن رأوا مد الصوت فى أول الكلمة من الكتف اليمنى إلى جهة الروح — تحت الثدي اليمنى . الحق يقردها ، لفظة الجلالة فى القلب الكائن تحت الثدي اليسرى باصبعين فإذا أتمها المرشد وضع جبهته على جبهة الطالب ويده على صدره ودعا له بالتوفيق والاختلاص والبركة . ثم ... إلى آخر ما كتبه مؤرخو الطريقة بهذا الصدد مع ذكر أوراذه الخاصة بهم والأدعية التى ألفوا تلاوتها ^(٢) .

أما الطريقة النقشبندية فإن طريقة أخذ العهد عند أهلها أن يجلس المريد بين يدي شيخه متوركا عكس تورك الصلاة فيبين له الشيخ محل القلب

(١) الأستاذ « لين » ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، النارة الإلهية فى الانتصار لقيادة الرفاعية ص ٣٦ و ٣٣ والكتاب منه منسوب على منكرى هذا النوع من الكرامات .
(٢) القواعد المرعية فى أمه ول الطريقة الرفاعية .

الصنوبرى الشكل الكائن تحت الثدى اليسرى بأصبعين ثم يستغفر الشيخ ربه والمريد يتابعه خمسا وعشرين مرة ثم يقرأ الشيخ الفاتحة مرة وسورة الاخلاص ثلاث مرات ويهدى مثل ثوابهما إلى صحيفة النبي وصحيفة إمام الطريقة محمد الادريسي المعروف بشاه نقشبند ثم يأمر المريد أن يغمض عينيه وينظر بخياله إلى قلبه ويتوجه إليه على النحو المعروف عندهم ، ثم يلقيه ما يناسب استعدادهم من أذكار نراها منشورة في الكتب التي تناولت آداب هذه الطريقة^(١) ومن هذا نرى أن الفوارق في هذا الصدد شكلية تافهة .

وفي كتاب الأستاذ لين، وصف ظريف لما كانت تفعله بعض الطوائف كالسعدية والشناوية في المولد النبوي وغيره من موالد كبار الأولياء .

والواقع أن الفوارق بين الطرق لم تكن جوهرية في هذا العصر ، فقد كان الشائع بينهم أن يجمع الفقير بين عدة طرق ، وإن كره الأشياخ لمريديهم أن يأخذوا على شيخين مهما كان السبب الذي يبررون به هذا المسلك . فقد جمع عبد الحى زين العابدين الحسيني + ١١٨١ بين الطرق الشاذلية والأحمدية والشناوية^(٢) وجمع على البيومي + ١١٨٣ بين الخلوتية والشاذلية والدمرداشية والأحمدية^(٣) وجمع الشعراني + ٩٧٣ بين ست وعشرين طريقة بسطنا أسماءها فيما سلف ، وجمع الدردير + ١٢٠٦ بين الخلوتية والشاذلية والنقشبندية^(٤) .

تمشى الفروق بين الطوائف :

وعما يشهد بأن مميزات الطرق ليست شرطا في وجودها ما نراه من التطور الذى آلت إليه طريقة الذكر عند الطرق جميعها ، فإن لائحة الطرق الصوفية في وقتنا الحاضر تقضى بأن يكون الذكر تمجيدا لله ، ضريحا قياما أو قعودا مع

(١) آداب النقشبندية ص ٤٠ — ٤١

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٨٩

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٣٢٩ وطبقات الشاذلية ١٤٣

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٥ — ١٥٦

الخشوع والوقار^(١) وهذا التحديد قد أفقد العيسوية وأخواتها من الفرق المشابهة أكبر مميز لها كما روينا عن الجبرتي وغيره الآن، والفرق كلها مضطرة الى الخضوع لهذا التحديد وإلا أعلن المجلس الصوفي فصلها وقضى بذلك على وجودها كما تنص لائحة الاجراءات الداخلية^(٢) وكذلك نقول في الرفاعية التي عرفنا الآن أعظم خصائصها، فإن اللائحة السالفة الذكر تقول: يبعد عن الطرق الصوفية « كل من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية كضرب الجسم بالسلاح وأكل الحشرات والهوام ودوس الأنام بالأنعام وبحوها والذكر بهيئة الرقص والتخبط وعدم استكمال الحروف فيه وإنشاد الأغاني المخلة بالآداب عليه، وإقامة الزار في الأضرحة ونحو ذلك^(٣) وفي ذلك ما يسلب الخلوتية والدمرداشية والشنارية وغيرهم مميزاتا خاصة بهم في طريقة الذكر وهو الرقص كما روينا عن عبد الغني النابلسي وغيره من قبل.

ولعل شعور أهل التصوف بضالة الفارق بين طريقة وطريقة، هو الذي حملهم على أن يضعوا في لائحة الاجراءات الداخلية هذه المادة « يجوز زيادة طريقة جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة في اسمها واصطلاحها^(٤) فكان الخلاف الوحيد الذي يبرر استقلال طريقة أو قيامها هو الاسم والاصطلاح. بل إن وجود لائحة تيسر عليها جميع الطرق وتحديد طرق العبادة على النحو الذي أسلفنا بعضه، كفيل بالقضاء على أكثر مميزات الفرق بعضها عن بعض. وقد أسلفت رأي صاحب السباحة شيخ مشايخ الطرق السابق في هذا الصدد.

بل لماذا نقول إن الفوارق بين الفرق اليوم قد تلاشت ولانقول إن اللائحة التي وضعها أهل التصوف قد ألغت الفروق بين الصوفية والفقهاء...؟

(١) لائحة الاجراءات الداخلية المادة الثالثة من الباب الخامس ص ١٨

(٢) المادة الرابعة من الباب الثاني ص ١٢

(٣) المادة الثانية من الباب الخامس ص ١٧

(٤) « الخامسة » الباب الثاني ص ١٢

أليست تقول إن التصوف لا مقصد له غير العلم بالشرع والعمل به (١) . فما
هي دعوى رجال الفقه إن لم تكن كذلك ؟ وإذا كانت الفوارق بين الطرق
التي تعيش اليوم بين ظهرانينا مجهولة حتى عند أهلها ، فكيف لا يصعب البحث
عن المميزات التي كانت للطوائف منذ مئات السنين ... ؟ وأي طوائف ... ؟
هي التي هدتنا المصادفة إلى العثور على نحو ثمانين من أسمائها ، فكيف لا يتعذر
على الباحث معرفة الفروق التي تميز كلا منها .. ؟
والآن نتساءل : ألم يكن لهذه الفرق التي بلغت هذا العدد الرهيب رئيس
عام يوحد كلمتها وينظم علاقتها ويفصل في مشاكلها .. ؟ ذلك ما نتناول الحديث
عنه في الفصل التالي :

(١) المادة الأولى من الباب الخامس من لائحة الإجراءات ص ١٧

الفصل الرابع

مشيخة مشايخ الطرق الصوفية

بالديار المصرية

رأى جرجى زيدان في نشأتها بمصر ومبلغ الخطأ في مزاعمه —
رأى السيد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه — نشأة هذا القرب في مصر
قبل العصر العثماني — تلاشى القرب في العصر العثماني .

تمهيد

عرفنا كيف كثرت الطرق الصوفية في مصر حتى بلغ عديد أسمائها التي هدتنا المصادفة إلى العثور عليها نحو الثمانين فرقة، كان لكل منها معسكرات قائمة في القرى والأقاليم، واستبد نفوذها بهوى الألوف من الاتباع والمريدين، وامتد سلطان كبار شيوخها حتى ارتفعوا فوق قواعد الدين ومقتضيات التقاليد ونظم الدولة... وادان بالولاء لهم حكام البلاد وعلماؤ الدين وعامة الشعب جميعا، فكان طبيعيا بعد هذا أن تفكر الدولة في توحيد الزعامة التي تخضع لها هذه الطرق، حتى تأمن شرها وتتقى عصيانها وتضمن سيادتها على أرض البلاد... ولم يكن بعيد الاحتمال أن يخضعوا جميعا من تلقاء أنفسهم لرئيس واحد يتخيرونه، ليتكلم باسمهم ويفصل في مشاكلهم وينظم علاقاتهم .

ومشيخة مشايخ الطرق في وقتنا الحاضر يشغلها بأمر ملكي، شيخ السجادة البكرية (والوفائية منذ جمع سماحة المرحوم السيد عبد الحميد البكرى بين المشيختين) وقد استحوذ البكرية على هذه الوظيفة لأن بيتهم أعرق بيوت التصوف في مصر وأقدمها جميعا، فهو منحدر عن أبي بكر الصديق، وتاريخ نشأته في مصر يرجع إلى الفتح الاسلامي كما يقول على مبارك^(١) ويؤكد

السيد توفيق البكرى (١) . وتقضى لائحة الطرق الصوفية بأن يجتمع مشايخ الطرق في القطر المصري في هيئة جمعية عمومية بدويان محافظة مصر تحت رئاسة المحافظ لانتخاب مجلس أعلى يتألف من شيخ السجادة البكرية رئيساً للمجلس ، وأربعة أعضاء يختارهم الرئيس من بين ثمانية ترشحهم الجمعية العمومية (٢) وعمل المجلس تعيين مشايخ الطرق ورفعهم من وظائفهم والفصل في منازعاتهم الخاصة بالطرق ، والحكم في الشكاوى التي تثار في هذا الصدد ، وعزل مشايخ بعض الأضرحة والتكايا والسجاجيد على نحو ما أوضحت لائحة الطرق الصوفية (٣) . هذا مظهر التوحيد في رئاسة الطرق الصوفية في يومنا الحاضر . فهل توحدت رئاسة الطرق الصوفية في مصر إبان العصر العثماني ؟ ذلك ما زعمه بعض المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ مشيخة مشايخ الطرق في مصر ، بل أرخ بعض هؤلاء المؤرخين نشأتها قبل العصر العثماني ، فما مبلغ الخطأ أو الصواب فيما يزعمون ؟

رأى جرجي زيدان ومناقشة مزاعمه :

قال جرجي زيدان : ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوجه بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها ، فكانت تسبب ذلك الفتن ، فلما أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبي خاتمه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ ، وكان لا يولى عليها إلا أعظم زجال الدولة من الأكابر والأعيان .. وما زالت الحال كذلك إلى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر في القرن التاسع الهجري ، فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى ، وكان من أعظم رجال عصره علماً وديناً ، قال الشعراي عنه (ولو قلت إنا أعلم أهل زمانه لم أبعد عن الصواب) ثم تولى بعده ابنه الإمام شيخ الإسلام العلامة الشهير

(١) بيت الصديق ص ١٩ .

(٢) المادة الثالثة من لائحة الطرق الصوفية ص ٣ ، ٤ .

(٣) المادتان الأولى والثانية من لائحة الطرق الصوفية ص ٣ .

أبو السرور البكرى ، وانتقلت بعده إلى ذريته ، ولا تزال إلى الآن في البيت البكرى الصديقي بمصر ،^(١) .

وهذا كلام سطحي ينطوى على أخطاء تزيد على الثمانية فيما يلوح .. فلنشرح هذا قليلا :

فالفقرة الأولى من كلامه تنطوى على مغالطين ، لأنها تفرض قيام الزوايا في مصر قبل خاتناه سعيد السعداء — وذلك غير صحيح فيما نعلم — لأن هذه الخاتناه قد استحالَت إلى دويرة للصوفية عام تسع وستين وخمسمائة للهجرة كما عرفنا ، بينما نلاحظ أن الزوايا التي ذكرها المقرئ في خطه — وبلغت الست وعشرين عدا — ليس بينها زاوية واحدة نشأت في مصر قبل القرن السابع الهجري ، ولو وجدت هذه الزاوية ما أهملها في تأريخه للزوايا . ثم إن هذه الفقرة تنص على خشية الدولة من الفتن التي كان يثيرها أهل التصوف في هذا العصر ، ومن الراجح أن صوفية هذا العصر كانوا قلة لا خطر لها . كان التصوف في جملة إلى هذا العهد ظاهرة نفسية فردية ، لم تتحول بعد إلى ظاهرة اجتماعية ، يشترك فيها الجماعات والطوائف ، ويمكن أن يكون بهذا مثارا للفتن ومصدرا للخطر .. ولما أنشئت أول خاتناه جعلت للواردين إلى مصر من البلاد الشاسعة كما عرفنا ، وجل الزايا والربط والخوانق التي عرضنا للكلام عنها في الفصل السالف ، قد أقام فيها الأعاجم والأحباش وغيرهم من نزلاء مصر . وقد ظل عدد الدراويش المتجولين في شوارع مصر من الفرس والأتراك أكبر من عدد المتجولين من الدراويش المصريين إلى ما بعد انقضاء العصر العثماني — كما أشار إلى ذلك الأستاذ لين ،^(٢) — ولا تظن أن هؤلاء النزلاء كانوا من الكثرة في هذا العصر بحيث تخشى الدولة بأسهم

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ، بيت الصديق ص ٣٧١ — ٣٧٢

وردد هذا الرأي زميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمي في كتابه « ابن القارض والحب الالهى » ص ١٥ — ١٦

(٢) في كتابه The Manners & Customs, p. 252

وترهب فتنهم ، فن الخطأ بعد هذا أن يتحدث جرجى زيدان عن استقلال الزوايا أو خطورة الفتن قبل خاتمه سعيد السعداء .

والفقرة الثانية من كلامه تنطوي كذلك على مغالطتين أخريين : فأنها تنص على أن صلاح الدين قد « أنشأ » خانقاه سعيد السعداء وسماها ديرة الصوفية ، وأدق من هذا أن يقال إنه حولها إلى خانقاه ، فقد كانت داراً معروفة منذ العصر الفاطمي . وثاني الخطأين دعواه بأن صلاح الدين قد جعل لشيخ هذه الخانقاه شبه تقدم على غيره من المشايخ (أى مشايخ الطرق التى تحدث عنها فى فقرته الأولى) والراجح أن شيخ الخانقاه كان يسمى شيخ الشيوخ ، وأريد بهذا التعبير الشيوخ المقيمون فى الخانقاه ، إذ كان كل فقير منهم شيخاً لأنه يدرس الدين وينقطع لعبادته والعمل بأوامره ونواهيه ، ولم توجد فى الوقت الذى أطلق عليه هذا اللقب خوانق أو ربط أو زوايا حتى يجوز الظن بأن المراد بهذا اللقب شيخ شيوخ الخوانق والربط والزوايا الأخرى .

أما الفقرة الأخيرة فتطوى على أربعة أخطاء : لأنها تنص على أن رأسه الصوفية قد توحدت فى القرن التاسع ، وذلك ما سنكشف عن بطلانه فيما يلى من حديث ، وتزعم بأن السيد محمد شمس الدين البكرى قد تولى هذه الرئاسة فى القرن التاسع ، وأنه والد أبى السرور البكرى ، مع أن محمد شمس الدين الذى عاش فى القرن التاسع (+ ٨٤٧ وهو الحنفى)^(١) لم يكن أباً لأبى السرور البكرى (ولد سنة ٩٧١ ومات سنة ١٠٠٧)^(٢) فان أباه هو السيد محمد أبوالمكارم زين العابدين أبيض الوجه ، وقد ولد سنة ٩٣٠ ومات عام ٩٩٤ هـ على ما يروى على مبارك^(٣) وهو الشهير بالبكرى الكبير فى كتب التاريخ والطبقات والمناقب ، وهو الذى قال فيه الشعرانى إن الناس قد أجمعوا على أن

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٤٨٩ بيت الصديق ص ٢١٣

(٢) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٦

(٣) بيت الصديق ص ٧٤ ، الخطط التوفيقية ج ٢ ص ١٢٦ والسكواكب السائرة

ج ٣ ص ١١٢ ولكن العيرونسى يقول إنه مات سنة ٩٩٣ هـ (النور السافر ص ١١٤) .

ليس على وجه الأرض بلدة أكثر علماً من مصر ولا في مصر مثله (١) فإذا عدنا إلى الذين ترجموا لهذين الرجلين والتمسنا عندهم صحة ما يدعيه الأستاذ زيدان ، رجح عندنا الظن بخطئه فيما يذهب إليه ، فإن كتاب التراجم في هذا العصر وما بعده ، كانوا أسخياء في خلع الألقاب على من ترجموا لهم ولو أن أحد هذين الرجلين استحوذ على لقب مشيخة المشايخ ما أهملها الذين ترجموا حياته ، ولدينا من عرضوا لترجمتهما — الشعراني والمناوي ومحمد أبو السرور البكري وعلي مبارك وصاحب النور السافر ومؤلف الإعلام بالإعلام بيت الله الحرام والسيد توفيق البكري ... الخ وليس في كلام واحد منهم ما يؤيد دعوى الأستاذ زيدان (٢) . وسنروى عن بعض هؤلاء المؤرخين نصوصاً تشهد بأن الزعامة قد تنازعها غير هذين الرجلين في عصريهما ... اقول الشعراني عن السيد محمد شمس الدين إنه أعلم أهل زمانه ، ليس ذلك على أنه كان شيخاً للمشايخ ، بل تشهد بسعة علمه في عرف الشعراني ، وسنعرف بعد قليل أن مشيخة المشايخ لم تنتقل إلى ابنه ويتوارثها ذريته من بعده كما يقول الأستاذ .

رأى السيد توفيق البكري ومنافسته : هذا الكلام السطلي الذي لا ينهض فيه صاحبه من خطأ حتى يسقط في خطأ آخر ، قد صادف قبولا عند بعض المؤرخين كالسيد توفيق البكري الذي يرويه على علاته ولا يعلق عليه بكثير ولا قليل ، بل يستند إليه في تأريخ البيت البكري ويؤثر ما جاء به على ما ذكرته عن أفراد هذا البيت كافة كتب التاريخ والطبقات . فترجموا القرون التاسع (السخاوي) (٣) والعاشر (الغزى والعيدروسي والشبلي) (٤) والحادي عشر

(١) بيت الصديق ص ٧٥

(٢) بيت الصديق ص ٧٣ — ٧٨ أمثلة لذلك .

(٣) الضوء اللامع في أخبار القرن التاسع (تسعة أجزاء) .

(٤) الكواكب السائرة بمناب أعيان المائة العاشرة (ثلاثة أجزاء) والنور السافر في أخبار القرن العاشر ، السبا الباهر بتكميل النور السافر .

(المحبي) (١) والثاني عشر (المرادى) (٢) إلى غيرهم من المؤرخين وكتاب التاريخ والطبقات كالجبرتي وابن اياس وأبي السرور البكري والشعرائي بطبقاته الكبرى والوسطى والصغرى والمناوى بطبقاته الكبرى والوسطى وغيرهم ، لم يشيروا قط إلى وجود شيء اسمه مشيخة المشايخ في البيت البكري أو غيره من بيوت التصوف في مصر . ولكن السيد توفيق البكري يقول مؤرخا بيت الصديق إن وظائف هذا البيت من قديم الزمان ثلاث : مشيخة السجادة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف (٣) . ويصر عند الكلام على مشيخة السجادة البكرية على أن من « حقوقها القديمة وأصولها المستديمة أن يتولى صاحبها مشيخة المشايخ الصوفية » ولم يقل لنا السيد توفيق متى يبدأ في عرفه « قديم الزمان » الذي استحوذ فيه البكرية على هذا اللقب .

على أن السيد توفيق وإن كان يروي رأى جرجي زيدان من غير تعليق إلا أنه لم يجرؤ على خلع هذا اللقب على جميع أفراد البيت البكري وأفرع دوحته منذ القرن التاسع إلى يومنا الحاضر كما رأى صاحبه ، وإنما تبرع بخلقه على بعض من عاشوا في مصر منذ القرن الثاني عشر الهجري ، والغريب أنه صن به على أهل القرن التاسع والعاشر والحادي عشر ، بل بخل به حتى على الذين أثرت الضجة التي أسلفناها الآن من أجلهم ، من محمد شمس الدين البكري (٤) ، وأبي السرور البكري (٥) ومحمد شمس الدين الحنفى (٦) مما يشهد بضعف ثقته في مزاعم المرحوم جرجي زيدان ، وإن لم يصرح بذلك .

فلنعرض لمن سماهم السيد توفيق شيوخ المشايخ من أهل القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، لنرى مبلغ الصدق أو مدى الخطأ في دعواه :

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (أربعة أجزاء) .

(٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (أربعة أجزاء) .

(٣) بيت الصديق ص ٣٦٦ (٤) بيت الصديق ص ٣٦٦

(٥) بيت الصديق ص ٧٣ (٦) بيت الصديق ص ٧٠

(٦) بيت الصديق ص ٢٠٤ وما بعدها .

نلاحظ أنه خلع اللقب على أربعة من أهل القرنين الثاني عشر هم السيد أبو المواهب البكرى المتوفى سنة خمس وعشرين ومائة وألف^(١) والشيخ أحمد البكرى المتوفى سنة ثلاثة وخمسين ومائة وألف^(٢) والشيخ أحمد بن عبد المنعم البكرى المتوفى سنة خمس وتسعين ومائة وألف^(٣) والسيد محمد البكرى الكبير المتوفى سنة ست وتسعين ومائة وألف^(٤). فلاحظ أن السيد توفيق يضع في عنوان ترجمة كل واحد من هؤلاء الأربعة لقب شيخ المشايخ ، فإذا أنعمنا النظر فيما يكتبه عن كل منهم رأينا يقول في ترجمته الأولى ، هو شيخ الإسلام وعلامة الأنام تولى السجادة البكرية التي من حقوقها مشيخة المشايخ الصوفية وأحيا معالم الطريق والإرشاد بمصر في المعقول والمنقول وعلوم القوم توفى سنة ١١٢٥ ودفن بزاويته ، ولم يشر السيد توفيق إلى المصدر الذي استقى منه كلامه كما فعل في أكثر التراجم التي ضمنها كتابه ، ولهذا دلالة ومغزاه . ويروى عن ثانيهم وهو الشيخ أحمد البكرى وثالثهم وهو أحمد عبد المنعم البكرى ، نص ما ذكره الجبرتي في ترجمتهما دون أن يزيد عليه كثيرا ولا قليلا ، وما يقوله الجبرتي عنهما خلو من كل إشارة إلى مشيخة المشايخ التي تبرع السيد توفيق بخلعها عليهما في عنوان الترجمتين من غير مبرر . ثم يروى عن رابعهم وهو محمد البكرى الكبير^(٥) نص ما يقوله الجبرتي كذلك فإذا النص لا يخلو من الإشارة إلى مشيخة المشايخ فحسب ، بل يقطع وجه الشك في أمرها فيقول : ولما توفى ابن عمه الشيخ أحمد شيخ السجادة البكرية تولاهما بعده باجماع الخاص والعام مضافة لنقابة الأشراف فحاز فخارا المنصبين

(١) بيت الصديق ص ٤٠

(٢) بيت الصديق ص ١٦٠

(٣) بيت الصديق ص ١٤٠

(٤) بيت الصديق ص ١٣٨

(٥) قال علي مبارك في خطه ج ٣ ص ١٢٦ ان الكبير لقب يطلق في كتب التاريخ والطبقات والمناقب على محمد أبيه المكارم زين العابدين أيضا الوجه المتوفى سنة ١١٩٦

وأكمل له فضل الشرفين ، ولم يقم في ذلك إلا نحو سنة ونصف وتوفي ، فلو أنه تولى مشيخة المشايخ لنص عليها الجبرتي أو أشار إليها . وكذلك يقول في السيد محمد البكري الصغير + ١٢٠٨ والذي وضع السيد توفيق في رأس ترجمته لقب شيخ المشايخ ، ثم أورد نص الجبرتي فيه من غير نقص ولا زيادة ، فإذا فيه : السيد محمد البكري أفندي الصديقي شيخ سعادة السادة البكرية ونقيب الأشراف بمصر المحمية ، تقلد بعد والده المنصبين وورث عنه السيادة ، (١) وكذلك الحال في السيد خليل البكري + سنة ١٢٢٣ هـ (٢) .

ومن هذا نرى أن السيد توفيق كان يتبرع من عنده بلقب شيخ المشايخ ويضعه في عنوان تراجمه ، وليس في التراجم قط إشارة تبرر وضعه .

نستطيع الآن أن نقرر ونحن على شيء كثير من اطمئنان اليقين ، أن العصر العثماني قد انقضى بقرونه الثلاثة دون أن يعرف أهل التصوف في مصر رئيساً فذاً لهم ، يوحد كلمتهم ويفصل في مشاكلهم .

نشأة اللقب قبل العصر العثماني :

لا ... بل لقد وجد هذا اللقب من قديم الزمان ١٠ منذ القرن السادس للهجرة ، أي قبل دعوى جرجي زيدان بثلاثة قرون أو أربعة ١٠ بيد أن المعنى الذي يحمله كان يختلف عن المعنى الذي قصده به الأستاذ زيدان والسيد توفيق . قال المقرئ : فكانت « سعيد السعداء أول خانقاه عملت بمصر وعرفت بدويرة الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر في ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة واتضعت الأحوال وتلاشت الرتب فلقب كل شيخ خانقاه « بشيخ الشيوخ » (٣) ويقول في

(٢) بهت الصديق ص ١٣٢ — ١٣٣

(١) بهت الصديق ص ١٣٧

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٧٣

خانقاه سرياقوس ، قرر السلطان في مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الاقصر اوى ولقبه بشيخ الشيوخ فصار يقال له ذلك ولكل من ولى بعده ، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء ، (١) وكان ذلك عام ٧٢٥ هـ .

والظاهر أن المقرئى أراد أن يقول إن شيخ خانقاه سعيد السعداء كان يستحوذ وحده على لقب شيخ المشايخ منذ سنة ٥٦٩ هـ إلى سنة ٧٢٥ حين شاركه فيه شيخ خانقاه سرياقوس ، واستمرتا بتنازعان هذا اللقب إلى أن زحفت المحن وتلاشت الألقاب في مستهل القرن التاسع ، فاستولى على اللقب جميع شيوخ الخوانق التي كانت قائمة بمصر في هذا العهد .

وقد أيد القلقشندي كلام المقرئى فقال : إن مشيخة الشيوخ كانت تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) إلى أن بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فاستقرت مشيخة الشيوخ على من يكون شيخا بها ، والأمر على ذلك للآن ، (٢) — وقت كتابة صبح الأعشى .

والظاهر أن شيخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على سائر المشايخ ، لا في مصر وحدها بل في الشام وغيرها ، فقد أورد القلقشندي نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بسرياقوس فإذا فيها : فلذلك رسم بالأمر الشريف ... أن يفوض إلى المشار إليه (الشيخ نظام الدين الأصفهاني) مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية بسرياقوس — فدى الله روح واقفها ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الإسلامية المحروسة على عاداته في ذلك ، وقاعدته ومعلومه ، وأن يكون ما يخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية بالخانقاه المذكورة للمشار إليه ، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لديران المواريث معه في ذلك

(١) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٨٥

(٢) صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٠

حديث، وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا ينتسب إلا بأذنه على العادة في ذلك... (١)

ومن هذا النص نستطيع أن نقول إن شيخ مشايخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على غيره من المشايخ في مصر وغيرها من البلاد السالفة الذكر، إلا أن اختصاصه الفعلي كان مقصورا على الصوفية المقيمين بخانقاه سرياقوس وحدها. والدلائل التي تحت أيدينا تنفي نفيًا باتا وجود شيخ مشايخ — طوال العصر العثماني خصوصا — وظيفته التكلم على كافة الطرق الصوفية والتحدث باسمهم وتنظيم علاقاتهم والفصل في مشاكلهم على نحو ماذهب السيد توفيق وجرجي زيدان، ولا بأس من أن نسردها بعض هذه الدلائل :

روى صاحب المناقب الكبرى (٢) أن شيخ الإسلام محمد شاه قد حبس الشيخ الغمري فاستغاث أقاربه بالشعراني ووسطوه لانقاذ السجين، فكتب الشعراني بطاقة إلى محمد شاه قال فيها : إن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء والأقطاب بمصر أربعة : أولهم بيت السادات بنى الوفا..... وثانيهم بيت سيدى محمد شمس الدين الحنفى (وهو فرع الدوحة البكرية وقد توفى عام ٨٤٧) (٣)..... وثالثهم بيت سيدى مدين الأشمونى (تلميذ الحنفى) (٤) ورابعهم بيت سيدى أبى العباس الغمري (سنة ٩٠٥) (٥).

وفي هذا ما يشير إلى أن الزعامة لم تكن في بيت واحد.

(١) صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٥

(٢) المناقب الكبرى ص ٨٤

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ وجاء في طبقات الشاذلية من ١٢٧ أنه ولد

سنة ٧٥٥ ومات سنة ٨٤٧ هـ

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ إلى ٩٠

(٥) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٧

ويقول المناوى + ١٠٣١ عندما عرض لترجمة الشيخ محمد كريم الدين الخلوئي سنة ٩٨٦ هـ ، صار هو وشيخنا الشعراني (سنة ٩٧٣) ^(١) شيخنا (يريد شيخى) الديار المصرية ، وكان بينهما ما يكون بين الأقران ^(٢) ، ويلاحظ أن الشعراني والخلوئي اللذين كانا يتنازعا الرئاسة ، قد عاصرهما فيها محمد البكرى (+ ٩٩٦ هـ) الذى عزا إليه جرجى زبدان مشيخة المشايخ فى أول أمرها .

ولقد كان الشعراني إذا تحدث عن كبار الشيوخ فى القرن العاشر ، قال لهم محمد البكرى (الكبير) ومحمد كريم الدين الخلوئي وخليفة الشيخ دمرداش وزين العابدين وخليفته الشيخ شاهين . . . وكل واحد من هؤلاء لو انفرد فى مصر وقراها ، لكفى الناس علما وأدبا وسلوكا ، ^(٣) ولو استحوذ أحدهم على زعامة رسمية أو معترف بها منهم ، ما أهمل ذكرها الشعراني أو المناوى أو غيرهما .

أما فى القرن الحادى عشر فقد روى عبد الغنى النابلسى ^(٤) المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ أن محمدا أبا المواهب زين العابدين البكرى ^(٥) كان له حكم الولاية فيها بطريق التوجيه من جهة السلطنة العلية ، وأن نائبه فى بلدة الخانقاه

(١) الكواكب الدرية للمناوى ص ٤٠ ، خلاصة الأثر للمحبي ج ٢ ص ٣٦٤ وتكميل النور السافر للشلى ص ٦٥٧ ، مادة Alsha'rani بدائرة المعارف الإسلامية للاستاذ شاخت (وإن كان قد أخطأ فى تاريخ ميلاده فجعله سنة ٨٩٧ هـ) وطبقات الشاذلية ص ١٤٢ — ولكن الغزى فى كواكبه السائرة ج ٣ ص ٢٧٦ قالان الشعراني قد مات فى حدود السبعين وتسمية .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٩٠

(٣) بهجة النفوس ص ٨

(٤) روى السيد توفيق أنه مات سنة ١١٤٣ (ص ٤٠ بيت الصديق) وكذلك روى على مبارك ج ٣ من خطه ص ١٢٥ وروى الهجرى أنه مات سنة ١٠٣٢ ص ٤٢٣ من ج ٢ خلاصة الأثر وذكر المرادى فى سلك الدرر ج ٣ ص ١٣٧ أنه مات سنة ١١٤٣ هـ

(٥) روى الجبرتي أنه مات عام ١١٠٧ هـ وولد عام ١٠٦٠ (ج ١ ص ٦٩) وروى السيد توفيق أنه ولد عام ١٠٥٠ (بيت الصديق ص ٤٠) والأول أرجح وروى المرادى فى سلك الدرر ج ١ ص ١٥١ أنه مات سنة ١١٠٧ هـ

كان الميقاتي على ما عرفنا (١) وحسبنا في الدلالة على أن هذا التعبير لا يفيد استحواذه على مشيخة المشايخ ، أن السيد توفيق الحريص على احتكار البيت البكري لهذا اللقب ، لم يخلعه على السيد محمد أبي المواهب زين العابدين (٢) رغم أنه اطلع على رحلة النابلسي المخطوطة ، واقتبس منها جزءا في كتابه ، وكذلك لم يشر على مبارك في ترجمته إلى هذه المشيخة .

وقد تمهيا للشيخ السادات (المتوفى سنة ١٢٢٨ هـ) نوع من السيادة الواضحة على الطرق ومشايخها في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر ، وترجمة شتى للجبرتي تقول إن الزعامة قد أسلمت قيادها له بعد أن عز وجود منافس ينازعه في أمرها (٣) . وقد أظهر الجبرتي في هذه الترجمة - التي اطلع عليها السيد توفيق ونقاها في كتابه عن بيت السادات الوفاية (٤) - أن السيد محمد البكري الصغير كان إلى جانب السادات كما مهملا لا حساب له ، ورغم ذلك يقول عنه السيد توفيق إنه كان شيخ المشايخ .

ولعل هذا يفسر لنا نصا خداعا رواه الجبرتي في ترجمة محمد أبي السعود البكري الكبير إذ قال : ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشرار البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية فيفصل بقوانينهم العادية ، (٥) فإن ما يشبه هذا السلطان قد تمهيا للشيخ السادات (الوفاي) بعد ممات محمد البكري حتى كان يصدر أوامره إلى فرق الأحمدية والسعدية والشيعية بأن تمر بداره والأمراء بضيافته أيام المولد ، فكان شيوخها ومريدوهم ينصاعون لأمره راضين أو كارهين .

وسنعرف في الباب التالي أنه بلغ من السطوة أن كان يمثل السلطين التشريعية والتنفيذية لابين طوائف المتصوفة وحدها ، بل بين عامة الناس

(١) رحلة النابلسي ص ٩٠

(٢) بيت الصديق ص ٤١

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ١٩٩ - ٢٠٠

(٤) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٥

(٥) الجبرتي ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

كذلك كما سنعرف عن « الأقطاب » الذين ظهروا في هذا العصر واستحوذوا على الزعامة في عصرهم ، وبسطوا سلطانهم على كافة الأولياء في مختلف بقاع البلاد... ١

ومن هذا نرى أن زعامة الطريق كانت لصاحب الشخصية القوية الأخاذة ، سواء أكان من بيت عريق معروف أم لم يكن كذلك ، ولعل أغلب الفترات التي مرت بمصر إبان هذا العصر ، كانت خلوا من هذه الشخصية التي تكره مشايخ الطرق على السعى لمرضاها ، والانتقياد لأمرها والسير في ركابها .

بل لقد ورد في الإجابات التي رد بها حسين أفندي الروزنامي على الأسئلة التي وجهها إليه « سنيف » عقب الفتح الفرنسي ، أن أرباب السجاجيد في مصر أربعة ، هم الشيخ البكرى وجده أبوبكر الصديق والشيخ السادات وجده الإمام علي والشيخ العناني وجده عمر بن الخطاب والشيخ الحنظري وجده الزبير ، وأن مقامهم محفوظ ومكانتهم ملحوظة ، وأن المشورة لهم في جميع الأمور... ولم يشر قط إلى زعامة واحد منهم على أرباب الطريق^(١) وقد أشار الأستاذ دلين ، إلى أصحاب السجاجيد الأربعة ، ولكنه صرح بزعامة البكرية على جميع الطوائف في مصر^(٢) ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر كثيرا ولا قليلا ، فإن الأستاذ دلين ، قد نزل بمصر بعد انقضاء العصر العثماني بسبعة وثلاثين عاما (١٨٣٥ م ١٢٥٠ هـ) وقد أورد السيد توفيق البكرى فرمانا بتولية الوالي محمد علي باشا للسيد محمد البكرى عام ١٢٢٧ هـ^(٣) وفيه اعتراف بزعامته على الطوائف كلها ، وقد أهمل الجبرتي

(١) مقال ستاذ الجليل شفيق غربال بمجلة كلية الآداب المجلد الرابع العدد الأول

سنة ١٩٢٨ ص ٢٥ .

(٢) كتاب الأستاذ دلين السالف ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٣) بيت الصديق ص ٢٦٩

ذكر هذا فرمان (١)، ولكن نص الأستاذ لين، يرجح صحة هذا فرمان، وعلى هذا يكون قول «لين»، إن للبكرى الزعامة على الطوائف كلها معقول إذا سلمنا بالفرمان السالف.

ولابأس من أن نشير الآن إلى أن التعبير بمشيخة المشايخ لم يرد في فرمان محمد علي ولا في فرمان الذي تلاه في عهد سعيد باشا عام ١٢٧١ هـ وإن نص فيهما على العمل الذي يقوم به اليوم شيخ المشايخ.

فهذا اللقب حديث عهد، ونسبته إلى العصر العثماني أو ما قبله نسبة بادية الخطأ، إذا أريد باللقب المعنى الذي يحمله في عصرنا الحاضر، ولعل السبب الذي أدى إلى وجوده في العصر الحديث، مرده إلى الرغبة في القضاء على البدع التي كانت شائعة بين أهله، ونشر الضيق بأساليبهم بعد أن تفتحت أذهان الناس ونزعوا إلى النقد، وإذن فقد كانت الفرق في مصر أثناء العصر العثماني مستقلة لا تخضع لزعامة واحدة — إذا استثنينا فترات تقضت وبين أهل التصوف — رجال أوتوا الشخصية التي تكفل لأصحابها السيادة وتضمن لهم بعد الصيت وسعة النفوذ، وتبدد المطامع من رؤوس المتنافسين وتستعبد لهم بسلطانها فإذا هم خدام أمناء وعبيد أوفياء.

ولكن كيف كان هذا النفوذ...؟ وما مدى تغلفه في طبقات الشعب وتسله إلى هيئات الحكم...؟ ذلك ما انفصل الحديث عنه في الكتاب التالي...

الكتاب الثاني
نفوذ شيوخ الطرق
أحياءاً وأمواتاً

الكتاب الثانى

نفوذهم أحياء وأمواتا

ذكرنا فيما أسلفنا بعض ما انتشر فى أرض مصر من طرق الصوفية وزواياهم، وعرضنا شيئا عن الحياة التى عاشوها، والعبادات التى زاولوها، ونريد أن نفصل فى هذا الكتاب مائتيا لهم - أحياء وأمواتا - من نفوذ استوعب وجوه الناس وطغامهم، واستبد بعلواء البلاد وحكامها، ونعرض بعض آثار النزاع الذى ثار بينهم وبين بعض الفقهاء ومن جرى مجراهم، لنبيين مبلغ قوتهم ومدى تأثيرهم فى بيتهم، حتى يتيسر لنا أن نشرح فى الكتاب التالى أثرهم فى توجيه الحياة المصرية إبان عصرهم وما تلاه من عصور، على قدر ما تسمح المادة وتسعف الملاحظة.

نفوذ شيوخ الطريق

١ - أحياء

بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان — تحررم من عرف البلاد ودينها —
مفارقات مصر — تحررم من نظم الدولة وقوانينها — تحررم على العرف
السائد عند أرباب الطريق .

بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان:

حفلت مصر إبان العصر العثماني بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائهم والمساجد والزوايا باجتماعاتهم، وانتشر الشيوخ والأتباع في الريف والحضر، وتغلغل نفوذهم في المدن وشاع في الأقاليم والقرى، وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات الشعب وأقام في صدورهم عرشه، وتسرب إلى قصور الحكام فعبث بالقوانين، واستهان بالرأى العام فتخطى أبسط مبادئ العرف، واستعلى على الدين فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه، وبذلك أضحي الفقراء في مصر إبان هذا العصر فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة .. II وكانت مصر دولتهم في الحياة الدنيا وإن ادعوا بأن الفقراء لا يملكون في هذه الحياة الفانية كثيرا ولا قليلا، وأن دولتهم إنما تقوم — كأعظم ما تقوم الدول ذات السلطان الواسع النطاق الممدود الرحاب — في جنة الله يوم الدين . فقد كان الناس في شتى الطبقات يحيطونهم بالعطف والتأييد، وقد خف إلى زواياهم مئات المريدين وألوف الأتباع، وفاضت عليهم خزائن الأغنياء والأثرياء، وسعى إليهم عطف الحكام والأمراء، ولازمهم النصر في أكثر المعارك التي أثار عثورها في وجوههم العلماء والفقهاء، وتوفر لهم عند المريدين سلطان لم يتوفر لحاكم تحبه عشيرته

ونطيعه جنوده، أو لعالم يحمله تلامذته وطلابه، وما كان الجندي الذي يتمرّد على قائده ساعة المحنة بأشدّ خيانة وأعظم جرماً - في عرف الفقراء - من المرید الذي يسيء الظن بشيخه أو يتردد في امثال أمر تلقاه عنه ولو كان يقضى بطلاق زوجته وفراق أولاده أو يمنع عن أداء ما أمر الدين من فروض وواجبات وحتمه من شعائر وعبادات... ١

وهكذا قامت في مصر دولة الفقراء إلى جانب الدولة العثمانية، بالسلاح والحيلة تضمن الثانية بقاءها وتقر بين الناس قدماً. وبالايمان تذود الأولى عن عرشها، وتقر في القلوب سلطاتها، وتخيف خصومها وأعداءها. ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدماً وأعظم نفوذاً وأقوى سلطاناً من دولة بني عثمان - تلك الدولة التي كانت مطامع الممالك - ولا سيما في النصف الأخير من العصر العثماني - تثير فيها القلق والاضطراب، بل لقد كانت فرق الجيش التي جاءت في ركبها لحمايتها من كل عدوان في نزاع يكاد يكون دائماً، وحرب يوشك أن يكون متصلاً وكان الأعراب، في غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب في رأسها ويشيعون الفرع في نفسها. وبهذا عاشت الدولة العثمانية قلقة الخاطر نائية المضجع تنفق وقتها في تدبير المؤامرات ورد الغارات والنجاة من المكائد، أما دولة الفقراء فقد عاشت في جو عامر بالاطمئنان، قوية بايمان أهلها وحسن ظن الناس بها لانهتز لانكار المنكرين - وما كان أضعف نفوذهم - فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول، ورغرف علمها في كل مكان دون جهد ملموس، وذلك لأن روح العصر، - بما كان يسوده من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الامن وظلم الحكام - عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدماً وشيوع تعاليمها بين الناس ١..

تحرّهم من عرف البلاد ودينها:

ولدينا من الشواهد ما ينهض دليلاً على أن الأولياء كانوا فوق العرف

وفوق القانون — وقبل أن نعرض للكلام في ذلك ينبغي أن نشير إلى أن الأمثال التي تشهد بخروج الفقراء على الدين، تصلح أن تكون شاهداً بخروجهم على العرف كذلك ، فإن الفروق بين الدين والعرف أثناء هذا العصر قد تضاعفت حتى كادت أن تزول وتتلاشى ، فإذا جاز لنا أن نقول اليوم إن تارك الصلاة أو شارب الخمر في القاهرة ، لا يعتبر خارجاً على العرف ، وإن عُدد خارجاً على الدين ، فإن هذا الكلام لا ينسحب على العصر العثماني ، لأن الدين قد تغلغل إبانته في العرف حتى كاد الرأي العام في كل شيء أن يكون قائماً على الدين وحده ، وكانت مصر في عزلة عن العالم الأوربي الذي كانت النهضة الحديثة تتمشى في أعصابه وتشيع في كيانه ، فأضحت الحضارة القائمة في مصر حضارة دينية بحتة . فكان الناس لا يعرفون علوماً سوى من علوم الدين ، ولا ثقافة أجدر بالعناية وأحرى بالدراسة من ثقافته ، ولا رجالاً أخلق بقيادته في حياتهم الدنيوية والدينية من رجاله ، وبهذا أصبح زعماءهم في ميدان السياسة وقادتهم في الحياة العامة وأساطينهم في مجال العلم Scientists هم الفقهاء وحملة الشريعة وأرباب الطريق ، وكاد أن يتلاشى الفارق بين صيحة الدين وصيحة العرف ، وأضحى الخروج على قواعد الدين ، استهانة بالرأي العام وجرحاً لشعور الناس .

والآن ندسط بعض الشواهد التي تجمع بين خروج الأولياء على تعاليم الدين وتخطيهم لأبسط مبادئ العرف معاً ، ثم نعقب عليها بذكر الشواهد الدالة على امتنانهم لأقدس مواد القانون ، لنرى مدى ذلك كله في نفوس الناس ، ولنعرف مبلغ الصدق في قولنا إن الأولياء كانوا في مصر — إبان هذا العصر — دولة داخل الدولة :

يروى الجبرتي عن السادات أنه حين تولى خلافة بيت السادة الوفائية عام ١١٨٢ هـ ، أحسن التصرف والتزم ما تقتضيه الأخلاق الكريمة ، حتى إذا اطمأن إلى سمعته ونفوذه عند الناس ، بدا حرصه على الدنيا وتمسكه بالمادة ،

واستيقظ جشعه وعدم اكترائه برأى الناس في سمعته، ومن دلالات هذا أنه اتفق مع محمد البكرى على أن يأخذ منه نظارة المشهد الحسينى، ويتنازل له في مقابلها عن نظارة وقف الشافعى، فلما تخلى له البكرى عن وظيفته، وأرسل إليه دفاتر الوقف، نقض هذا وعده واستولى على الوظيفتين معا ١١٠٠ بل زاد فطمع في المشهد النفيسى والمشهد الزينبى وباقي الأضرحة، وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة هذه الأضرحة، على الإبرادات ويسبهم ويهينهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم ١١٠٠، وطلق يطالبهم بالنذور والشموع والأغنام والعجول، وما يتحصل بصندوق الضريح من المال، وكانوا يختصون أنفسهم بذلك كله. وأقلهم (كان) فى رفاهية من العيش وجمع المال. وهكذا قضى غالب عمره فى طلب الدنيا وتنظيم معاشه وتهية الرفاهية فى بيته، واقتناء كل مرغوب للنفس وشراء الجوارى والممالك والعبيد والجيش والخصيان والتألق فى المأكل والمشرب والملابس وتعظيم فى نفسه وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج وحضور الحيا بالأزهر ليلة المعراج، وكذا الحضور فى مجلس وردهم وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء... (١)

وكذلك كان ابراهيم المتبولى . كان يبيع فى بدء حياته الحمص، وقد مات أبوه فكفلته أمه وتعهدت بتربيته (٢)، فلما أخذ الطريق وسار فيه شوطا أصبح صاحب زاوية فيها نحو المائة مريد يقيم طاعما كاميا على نفقة صاحب الزاوية (٣) ... وذلك كله على الرغم مما يرويه الشعرا عن رأيه فى الزهد، فقد كان من رأيه أن الزهد فى الدنيا أول أساس يضعه المريد فى الطريق، فان أعوزه الزهد فى لذاتها والإعراض عن مباحجها أخفق فى تصوفه، وكان ما يبتنيه فى الطريق هباء مشورا (٤) ١٠٠

(١) الجبرقى ج ٤ ص ٢٠٢ و ٢٠٤

(٢) الأخلاق المتبوية للشعرانى ص ١٤ (مخطوط)

(٣) لطائف المنن ج ٢ ص ١١٦

(٤) الوصية المتبوية ص ٤ (مخطوط)

كان الشيخ على أبو خوده يحب الغلمان ، ويعبت بهم بحضرة آبائهم بالغاما بلغت مكاتهم ا (١) وكان كلما رأى امرأة حس يده على مقعدها ، (٢) ، وما أكثر وقائعه معهن ا . . (٣)

وكان المجذوب محمد بن أبي بكر المغربي الطرابلسي المتوفى سنة ١٢٠١ هـ صاحب الأحوال يحب مجالس الشراب وتنهات عليه نساء البلد ، فأنكر عليه ذلك بعض الناس ولكن « أهل الفضل كانوا يحترمونه وينقلون عنه أخبارا حسنة ويحمله الأعيان وتنهال عليه الهدايا ولا يرد له الوزراء شفاعا » كما يقول الجبرتي (٤) وقد اشتهر فقراء المطاوعة بحبهم للغلمان ، حتى كانوا إذا عقدوا مجالس الذكر ، أجلسوا الصبيان من ورائهم ليحتضنهم من الخلف اذا اشتدت حماسة الذاكرين ، فان أنكر عليهم ذلك أحد من الناس ، قالوا لاجناح على من مس دبر غلام ، وانما الجناح على من فعل فيه الفاحشة وحدها ١٠ وكان وجود الغلمان في حلقات الذكر ومواكبه جزءا من نظامه عند فقراء هذه الطائفة (٥) .

وكان الشيخ « عبدالله » سنة ٩٣٧ هـ ، يصحن الحشيش ويبيعه بخرائب الأزبكية فلا يناله من الناس أذى ولا ضرر ١٠ بل لقد كان الناس يعتقدون أن من تعاطى الحشيش منه ، كفّ عن تعاطيه ١١١٠ كما يزعم المناوى والغزى (٦) . وكان الفقراء إذا أقيم مولد السيد البدوى أباحوا لأنفسهم نهب المحال وسرقة الناس وأكل أموالهم بالباطل ، قائلين إن الغريبة بلاد السيد البدوى ونحن من فقرائه ، فكل ما نأخذه حلال لنا ١٠ وكان « الشناوى » سنة ٩٣٢ هـ أول من نادى بإبطال هذه البدع ١٠ (٧) وكان النساء اللاتي يتصلن بالفقراء معرضات للزنا ،

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣ (مخطوط)

(٢) مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣

(٣) أنظر مناقب العلماء ص ٢٤٤ ب (مخطوط)

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠

(٥) فتوى الشيخ الصبيدي هل فقراء المطاوعة (مخطوط)

(٦) ارغام أولياء الشيطان ص ٨٨ (مخطوط) ، الكواكب السائرة ج ٢ ص ٢٥٩

(٧) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦

وقد اشتهر فقراء الأحمديّة والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللاتي يأخذن العهد عليهن حتى خصمهم الشعرائي بالذكر في معرض الحديث عن وقائع الزنا التي تحدث من جراء اختلاط الجنسين ^(١) وكان العيسوية إذا أقاموا الذكر على طريقتهنّ المغربية ، سعى إليهم الناس وخف للفرجة عليهم حسان الغلمان ، فيكلف بهم هؤلاء الغلمان ويسعون وراءهم — فيما يقول الجبرتي ١٠٠ (٢) وروى الشعرائي في ترجمة الشيخ عبد القادر السبكي أنه كان يتكلم بما يستحي منه الناس ولا يرضى عنه العرف ، وقد خطب مرة عروسا ورآها فأعجبته فكشف لها عن جسمه وهي في حضرة أبيها ، لكي تطمئن على خلوه من البرص وبراءته من الخشونة وغيرها بما قد يستدعي الشكوى بعد الزواج ، ثم تناول قضيبه في يده ، وطلب إليها أن تمنع النظر إليه ، لتطمئن على جسمه ومنظره ١١٠٠ (٣)

ويعصف الأستاذ إدوار لين ، هذه الحال ويشرح علتها في عرف الناس فيقول : إن المعتوه أو المجنون في عرف الجمهور ، كائن عقله في السماء وجزؤه الكثيف على الأرض — إنه حبيب الله ، ومهما ارتكب من الفظائع فإن ذلك لا يؤثر في سمعته عند الناس ، وكثيرون هم الذين يتخطون على الدوام قواعد الدين ويتمردون على مبادئه ، ولكن العلة في ذلك عند الناس ، أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية في عبادة الله ، بما أدى إلى العجز عن التحكم في العواطف — والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر ، يحفظون في الحبس ، أما الذين لا يخشى منهم الضرر ، ينظر إليهم الناس على أنهم أولياء الله ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخايل أو دجالون ، يسير بعضهم في الشوارع عاريا كامل العري ، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير — حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم ، بل

(١) العهود المحمدية ص ١٨٠

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٤١

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٩

يأذن لهؤلاء الجبناء أحيانا بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحراراً كاملي الحرية - ولئن كان هذا نادر الحصول إلا أنه لا يعتبر في عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولا منقصة... (١)

هذا رأى د لين ، الذي زار مصر بعد انقضاء العصر العثماني بنيف وعشرين عاما ، ولعله احتاط في التعبير أكثر مما ينبغي ، فإن الحوادث التي روينها عن مؤرخي العصر العثماني - من الجبرتي إلى الغزي والشعراني والمناوي - وهم من أهل هذا العصر جميعا - تبرر القول بأن تمرد الأولياء على قواعد الدين لم يكن نادر الحدوث ، ولعل الأستاذ قد أراد بهذه النادرة فظائعهم مع النساء على قارعة الطرق ، وليست الطبقة الدنيا وحدها هي التي كانت ترضى عن هذه الفظائع ، وكثيراً ما كان ينخدع بها العلماء والأمراء... ١

مفارقات العصر :

كان هذا كله يحدث على مرأى من الناس فلا يستفز شعورهم ولا يثير غضبهم ، بل كثيراً ما كان يملأهم رضا واعتباطاً - على نحو ما عرفنا في التعليقات التي صور بها كتاب العصر شعور الناس نحو هذا الفرد على قواعد الدين ومبادئ العرف ، وما كان السر في هذا أن روح العصر ، كان يسمح بالتهاون ويوجب على الناس التسامح ، فإن الرأي العام في هذا العصر كان يقوم على التعصب الشديد للطقوس والرسوم ، وأخذ الخارجيين على الشعائر بالحساب العسير ، إذ بينما نرى هذا التهاون المفرغ في حساب من يعتبرون أولياء ، نرى الطالب الذي لا يقع بصره على جرة خمر بين يدي مالك السلطان حتى يمضي إلى تحطيمها ويعرض نفسه للهلاك دفاعاً عن دينه (٢) ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات ، في رمضان من شرب الخمر والفسق بالنساء ، وكيف يطاردونهم ويتعقبونهم بالذبح وإلقاء جثثهم في اليم ونهب ممتلكاتهم حتى يقتل من الجنود نحو عشرين نفساً ومن المسلمين أدنى من

(١) كتاب الاستاذ Lane ص ٢٣٤

(٢) لطائف المذن ج ٢ ص ٤٣

ذلك بقليل^(١) ونرى كيف يجمع العلماء على تكفير من ادعى النبوة، فإن أصر على ادعائه كان مصيره القتل علانية^(٢). ونرى كيف يفتي العلماء بإحراق الذمي إذا سب مسلماً^(٣) ونرى كيف يحرم التدخين على الناس كباراً وصغاراً^(٤) وكيف تصدر الفرمانات بإبطاله في الشوارع والمحال وأبواب البيوت، وكيف تكون الرقابة ويشدد العقاب حتى ليكون جزاء المدخن إطعامه الحجر الذي يضع فيه الدخان والنار^(٥) وكيف يحرم شرب القهوة ولا يحوز الارتفاع بشمها كما هو الشأن في ثمن الخمر^(٦) ونرى كيف يلام الشبراوى لأنه أفتى بإباحة الحج للنصارى إلى بيت المقدس، وكيف يخرج الشعب والأزهريون اليهم فيرجعونهم بالحجارة ويضربونهم بالعصى وينهبون متاعهم ويحطمون كنائسهم انتصاراً للدين^(٧) على نحو ما يفهمون — ونرى الناس بعد أن يسمعوا فتوى السنباطى فى الجامع الأزهر بتحريم القهوة يمشون إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم ويحطمون أوانيها ويضربون شاربها ولا تهدأ لهم نائرة حتى يفتى علماء آخرون بإباحتها^(٨) ونرى كيف يرضون عن قتل المرأة العاهر جزاءً وفاً^(٩) ونرى كيف يعتبرون انتقال العالم من مذهب إلى مذهب طيشاً ورعونة وينحط قدر الشيخ البشيشى عند الجبرقى ووالده من أجل ذلك^(١٠) وأمثال هذه الحوادث التى تشهد بالتعصب كثيرة لا يكاد يحصىها العد. وإن كان هذا التعصب لا يبنى انحلال الأخلاق عند أهله — على نحو ما سنعرف عند الحديث عن سقوط التكاليف الدينية عن الأولياء.

كان «روح العصر» يمل على الناس التعصب فى أحكامهم ويحملهم على فداء

-
- | | |
|-------------------------|--|
| (١) الجبرقى ج ٢ ص ١٧٣ | (٢) الجبرقى ج ١ ص ١٥١ |
| (٣) » ج ٢ ص ٩٦ | (٤) » ج ١ ص ٤٢١ |
| (٥) » ج ١ ص ١٢٧ | (٦) » ج ١ ص ١٦١ |
| (٧) » ج ١ ص ١٩٥ | (٨) أنظر كتاب عمدة العقوة فى حل القهوة |
| (٩) الجبرقى ج ٣ ص ٥١ | (١٠) الجبرقى ج ٢ ص ٢٦٢ |

عقائدهم بالروح وما ملكوا ، وكان الرأى العام لا يسمح قط بالتهاون في ظاهر الدين أو تخطى قواعد العرف ، ومن أقدم على ذلك فقد عرض نفسه للأذى وقادها إلى مهاوى الهلاك — وكان هذا معنى الدين في رموس الناس إبان هذا العصر — أما الأولياء فقد كانوا في عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف — وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف ، وقد كان الناس يقابلون هذا الاستهتار بالرضا والاعتباط ، لأن الأولياء في عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنهم التكاليف الدينية ، فجاز لهم ما حرم على غيرهم ، يهملون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشيء من فروض الدين وشعائره ، ثم لا يتقيدون بعد هذا بشيء من نواهيه ، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته .. فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدين قد أحلت لهم فاستباحوا الحرمات على مرأى من الناس ، ولم يجدوا من شدة الإنكار ما يخيفهم أو يردمهم عن غيهم ويوجههم إلى أقوم سبيل .

وكان جمهرة الناس في مصر تخاف سلطان الأولياء الروحي وتخشى إن أساءت إليهم أن ينالها أذاهم ويصيبها « تصر يفهم » ، فكفت عن سوء الظن بهم واستنكار أفعالهم ، وذلك وحده كفيل بتخليص الأولياء من قيود العرف ، وتحرير شهواتهم من عقائد الدين ، وقد بلغ من جرأة الأولياء وشعورهم باستقرار قدمهم ونفاذ سلطانهم أن كانوا يصطنعون في بعض الأحيان ما يثير سخط الناس ، فكان « أبو خوده » يأمر عبيده — وكان من غواة العبيد — أن يقولوا للناس إن الشيخ يفعل الفاحشة فيهم ، حتى إذا ازدادوا سخطا عليه عطبهم .. كما يظن الشعرا^(١) ولو صحت رواية الحادثة لكان أدنى إلى العقل أن يقال إنه كان يفعل ذلك استخفافا بالمنكرين واحتقارا لسخطهم ، ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن المصادر التي أمدتنا بهذه المعلومات عن هؤلاء

الأولياء، قد كتب أكثرها كتاب يؤمنون بولايتهم ويذكرون هذه الحوادث في معرض التمجيد لهم وإعلان الإعجاب بهم .. ١ ولم يملها عليهم حقد ولا حسد ولا غير ذلك مما يجوز على الحق ويغير معاملة . ١

تحررهم من نظم الدولة :

وما كانت استهانتهم بقوانين البلاد ونظمها بأقل من استهانتهم بعرفها ودينها ، فقد كانت أولى الأغراض التي حملت الأتراك على غزو مصر ، الطمع في خبراتها والرغبة في ابتزاز أموالها ، ولهذا كان خير الولاة عند سلاطين الأتراك من استطاع أن يجبي من الضرائب أعظم قدر ممكن — وكان الناس لا يمانعون في هذا ولا يضيقون به إلا إذا أعوزهم المال ، فقد كانوا يرون أن الغرض من وجود الحكومات جمع الضرائب والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة والفصل في القضايا وحفظ الأمن ورد الغارات الخارجية^(١). ولم يكن الإصلاح والعمل على رقي الشعوب من عمل الحكومات في عرفهم — فكان طبيعيا بعد هذا أن يكون جمع الضرائب عند حكام البلاد وأهلها أول واجب ينبغي أدائه ، ولكن الحكام كانوا يعفون الأولياء في أكثر الأحيان من أخذ الضرائب^(٢). قال الشعراني إن من نعم الله عليه حماية جميع أوقاف زاووته من ظلة الحكام في مصر والريف ، فلا يعارضه ولا يعتدى عليه أحد قط رغم أنه لا يحمل مرسوما من السلطان لحمايته^(٣). وقال الجبرتي في معرض الحديث عن حرص الشيخ السادات على الدنيا ومتاعها ، أنه كان يرسل ويكتب ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة في الدفاتر ، بل يرون أن أخذها منه من الكبار ، وكذلك دواوين المكوس المبنية على الإجحاف ، فكل ما نسب له

(١) شفيق بك غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ص ١٤ ، الحركة القومية

لرافعي ج ١ ص ٣٢

(٢) لطائف المتن ج ١ ص ٦٢

(٣) لطائف المتن ج ١ ص ١٨ ، المناقب الكبرى ص ١٠٧

فيها فهو معاف له^(١)، فإن تعنت بعض الحكام على أحد المشايخ وأرسل يستشير السلطان في أمره، « رسم » السلطان باعفاء أوقافه من دفع الضرائب، ومال إلى نصرته وإرضائه كما جرى لذرية الشعرائي بعد مماته^(٢).

بل لقد كانت الدولة تمتد الأولياء بالأموال وتعينهم على دوام العز في زواياهم، فمن ذلك ما يرويه الجبرتي عن الشيخ السادات حين أراد أن يعمر زاوية أسلافه، إذ حدث الوالي في ذلك. وكان محمد علي باشا المعروف بالمعزقي المتوفى سنة ١١٩٠ هـ، فكانت الوالي الدولة في هذا الشأن، وسرعان ما ورد الأمر باطلاق خمسين كيساً لمصرف العمارة من خزينة مصر، ثم كاتب الدولة بعد ذلك بأن هذا المبلغ لا يكفي عمارتها، فاستجابت لطلبه وأطلقت له خمسين كيساً أخرى، ثم عاد الشيخ فالتمس رفع ما على قرية زفتى وغيرها من القرى التي في حوزته من الالتزام من المال الميرى الذي يدفع إلى الديوان في كل عام، فأجيب التماسه^(٣)، وفي دار الكتب وثائق بالالتماسات والفرمانات التي أصدرتها الدولة التركية لرفع المظالم التي كانت تنزل بقرية زفتى وغيرها من البلاد التابعة للسادات الوقائية^(٤).

والغريب أن يحدث هذا في أواخر العصر العثماني — أى في أيام الاضطراب التي فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبني الجنود، وأرهقت الضرائب الجهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة، وكثرت الاتاوات التي كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس، وبينما كان الضنك والظلم

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠

(٢) المتأب الكبرى ص ١٠٧

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠ — ٢٠١، بيت السادات الوقائية ص ١٦، طبقات الشاذلية ص ١٠٨ وكان تحويل الزاوية إلى مسجد سنة ١١٩١ هـ كما جاء في هذه الطبقات.

(٤) أنظر « فرمان رفع المظالم عن كفر طرشوب الكائن في تصرف الوقائية » وآخر « بمنع التعرض لبعض أوقاف على زاوية الوقائية » و « شكوى من بعض علماء الأزهر إلى فاعقام مصر بمنع من يتعرض للسيد أحمد البكرى في نظر وقف زاوية الوقائية » و فرمان سنة ١١٩٦ من ديوان مصر برفع المظالم عن جهة زفتى جوادة... الخ الخ.

يتمشى في البلد طولا وعرضا ، كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق في إعفاء القرى التي في حوزتهم من دفع الضرائب ، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاورها ١١٠٠ وكثيرا ما كانوا يرحلون من مصر إلى بلاد الروم (الترك) في طلب الدنيا ويلتمس لهم « أفضل الدين » العذر في ذلك ، فيقول من المحتمل أن يكون الله قد كشف لأحدهم أن له رزقا في بلاد الروم فيخف إليه فارغ القلب من محبة الدنيا ^(١) ١١٠٠ وكثيرا ما كانوا يعيشون الوسطاء للسعي في تحقيق المطالب ١٠٠ وقد فاخر الشعرا في أنه كان لا يقبل هذا إن عرض عليه ولا يرضى به هوأنا بالدنيا ومتاعها ^(٢) .

وكان البكري الكبير المتوفى سنة ٩٩٤ هـ ملحوظ المكانة بين الحكام ، فكانوا يهادونه ويكاتبونه ، وللسلطان سليمان خان مزيد عناية به ، حتى أنه أطلق المراتب الخاصة له ولذريته من بعده ، وكذلك فعل شريف مكة وسلطان فاس ^(٣) . ١ وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم وتخشى بأسهم وتهاب أتباعهم ، ولهذا أصدرت قانونا بنفي كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم ، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيارتهم ، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيبيون لشفاعتهم — بالغا ما بلغ خروجها على أبسط مبادئ العدالة — وقبلها يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد هؤلاء المتصوفة في هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاعته عند الحكام والأمراء . ١ وبذلك تعطل تنفيذ القانون في البلد ، وصبح الفقراء وأكثر من يلوذ بهم في أمان من عقابه إذا اقترفوا إثما أو ارتكبوا جريمة ١٠٠ وان كان هذا من رحمة الله بالشعب البائس المظلوم .

بل لقد كانت لهم قوانين تحكمهم وتحدد عقوبة المذنب منهم ، وترسم

(١) لطائف المتن ج ١ ص ٢٨٣

(٢) » » ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠

(٣) بيت الصديق ص ٧٦ ، ٧٧ ثم فارد هذا بما ورد عن الشعرا في المناب الكبرى ص ٩٦

الحدود والمعامل في حياتهم الدنيا ، ولا دخل للدولة في أمرها . قال الجبرتي في ترجمة محمد أبي السعود البكري + ١٢٢٧ ، واشتهر ذكره وسار سيرا حسنا مقرونا بالكمال جاريا على نسق نظامهم ، ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشراف كالأحمدية والرفاعية والبراهمية والقدرية فيفصل بقوانينهم،^(١) والمراد بالخلفاء نواب وشيوخ الطرق في القرى والأمصار ممن يديرون أمر المريدين والاتباع^(٢) وفي دفترخانة السادة البكرية صك بتعيين الشيخ البيجوري شيخا للجامع الأزهر (سنة ١٢٦٣ هـ) وفيه تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أو الشيخ البارز من بينهم . وقد جاء في هذا الصك ما نصه :

« وإذا رفع اليه - شيخ الجامع - دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكري كالأشراف ومشايخ الطرق فيرد إلى حاكم المذكور حكم الأصول السالفة وإن الأمر في المهمات ... لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعا لعدم تعدى أحد على أحد^(٣) ، ... وكان البلد خلو من القوانين التي تصون الحقوق وترعى العهود وتحفظ الحريات وتزود عن الحرمات . ١

ولا ينبغي أن يقال إن هذا الشاهد الذي روينا قد وقع بعد انقضاء العصر العثماني بخمسين عاما ، فإن ذلك حجة لنا لا علينا ، إذ كان الناس إذ ذاك في عصر اسماعيل باشا ، فكان الكثيرون منهم قد انصرفوا إلى التفكير في شئون المدنية الغربية التي أصبحت الأسرة العلوية ، بل أقبلت مع نابليون في غزوته ، ونمت واشتد بأسها في عصر اسماعيل ، وانشغل أكثر المستنيرين بأحداث السياسة الداخلية والخارجية فضعفت صولة التصوف وانكمش سلطانه عما كان في أيام العثمانيين ، ولكن هذا لم يمنع من استمرار الفقراء

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

(٢) جرجي : زبدان تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٠٢

(٣) بيت الصديق ص ٣٤ - ٣٥ .

في التقاضى أمام أظهر شيوخهم بفوائدهم الخاصة ، سائرين في ذلك على ما جرى عليه العرف منذ القدم ، وإن قولهم « فيرد الى حاكمه المذكور حكم الأصول السالفة ، لذو دلالة واضحة المعنى ، بل لقد كان الرجل إذا عظم نفوذه وقوى سلطانه يجمع في يده السلطتين القضائية والتنفيذية فيحكم على الناس وينفذ أحكامه . . . » فقد اجتمع بعض أولاد البلد ذات ليلة بمنزل أحدهم - كما يروى الجبرتي - وأخذوا في السخرية من أصحاب المظاهر على عاداتهم ، وتطايير النبأ حتى اتصل بالسادات فأرسل في طلبهم جميعا ، وعزهم بالضرب والامانة وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضوه في شيء بل يوافقوه ، وكذلك فعل بأحد أعظم المباشرين من الأقباط ، توقف معه في أمره فأحضه ولعنه وسبه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد ولم يراع حرمة أميره وهو اذ ذاك أمير البلدة ، ولما شكا الى مخدومه ما فعل به ، قال له وماتريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ، (١) . . . وكذلك كان يفعل مع المباشرين وخدمة الأضرحة عند حسابهم على ما في عهدهم ، فيضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم . . . وكان إذا أراد الايقاع بشخص وخشى عاقبة ذلك ، مهد الطريق سرا قبل الايقاع به ، فيتألف الفقهاء والعلماء الذين ينتظر منهم إعلان السخط على موقفه ، حتى إذا ظفر بذلك قام بالايقاع والضرب جهرا أمام الناس (٢) . . . وكان البلد من غير حكومة أو قانون ، ١١٠

التمرد على العرف عند الفقهاء

بل لقد تمردوا على أبسط قواعد العرف الذي جرى عليه أرباب الطريق من قديم الزمان . فإن التصوف لا يستقيم بغير الزهد في الحياة والإعراض عن مباهجها والميل عن مطالب النفس وشهوات الجسم ، والعيش في جو بعيد عن الأغراض الدنيا والنزعات الأرضية ، ولكن الذي يثير عجب الانسان من

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٤

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٢ .

هؤلاء الفقراء ، إقبالهم على الدنيا وحرصهم على التمتع بلذاتها والظفر منها بأوفى نصيب ، وقد يفعلون هذا كله جهاراً أمام الناس ولا يرون فيه سببة ولا معرة ، مما أدى بالمؤلفين في هذا العصر إلى الاكثار من تحذيرهم من الوقوع في هذا الشر ، وإغرائهم بالزهد وحملهم على حياة الخشونة والتقشف (١) .

وكان الفقراء يقبلون على كل شيخ كريم ويتكدسون في زاويته ، ويتزايد عددهم بين الحين والحين ، وينفضّون عن كل زاوية أدرك البخل شيخها وأصاب الحرص نقيها ، وكانت الزوايا تكتظ بالفقراء وتنج بطوائفهم أيام الغلاء ، وكان الشيوخ — في الجملة — يرون تمتعهم بالعيش الرغيد والحياة الهنيئة حقاً من حقوقهم يستحذون عليه إن شاموا ويتنازلون عنه إن أرادوا . . .

وما أكثر الذين كانوا يلتمسون أسباب الوصول إلى المال الطائل حتى إذا ظفروا به انفردوا بأكثره واستباحوا لأنفسهم وأولادهم العيش في كنفه (٢) .

والذين نادوا بتحريم هذا كانوا لا يتورعون عن التماس الأعذار لمن ينعم منهم بالملبس الفاخر ويتمتع بالطعام الشهى ، فيقولون إن المرید لا يجوز له ذلك العيش في ذلك النعيم إلا إذا كان من أصحاب الكرامات وخوارق العادات . . . وقد روى الشعراني حادثة من هذا النوع وعلق عليها قائلاً : فلو لا أن الشيخ أقام البرهان على طامه اللذيد بالسكرامة ، لفارقه تلك المرأة وهي منكرة عليه (٣) . . .

ومن هذا نرى أن أرباب الطريق في هذا العصر قد تمردوا على عرف البلاد وتحرروا من دينها وخرجوا على نظمها وقوانينها ، بل أدى بهم التمادي في التمرد إلى الخروج على أبسط قواعد العرف السائد بين أهل التصوف من قديم الزمان ، فهل يعدو الحق من يقول إن أرباب الطريق في مصر

(١) أنظر في تفصيل ذلك ، كتابنا عن الشعراني وإمام التصوف في عصره

(٢) لطائف المنن ج ٢ ص ١١٩

(٣) العهود المحمدية ص ٢٣١

كانوا دولة داخل الدولة . . ؟ وفي الحق لقد كانت دولتهم غريبة في تاريخ الدول ، لأنها أعطت أهلها الكثير من الحقوق والامتيازات ، ولم تحملهم من الواجبات كثيرا ولا قليلا . . فان الكثيرين منهم كانوا لا يحملون أنفسهم حتى مشقة الدعوة للزهد في الدنيا والتفرغ للعبادة ، بل كانوا يعلنون التمرد على هذا كله استهانة واستهتارا . فهل عرف التاريخ من قبل دولة كهذه الدولة . . ؟ إن من واجبنا أن نسهب في بيان هذا السلطان الذي أتاح لأهله أن يحطموا الأغلال ويتحرروا من القيود ويملاؤوا الدنيا بهذه الإباحة المطلقة ، في عصر تشقه القيود والسلاسل والأغلال ، فلنتتبع مظاهر هذا السلطان عند مختلف الطبقات وشتى الهيئات ، وسنرى من معجزاته ما يثير العجب . ولنبدأ ببيان مظاهره عند الشعب :

بعض مظاهر نفوذهم

دنيا الصوفية الروحية وحكامها — تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق نفوذ — القطبانية ونفوذ أهلها في مصر — آفاق نفوذهم في مناطقهم — بعض مظاهر نفوذهم عند المريدين — عند الحكام —

دنيا الصوفية الروحية وعظمائها :

وفي الحق لقد ضاق العالم الاسلامي بالحياه الدنيا وكره ما تنطوى عليه من ألوان الشر وضروب الظلم ، وانتهت الرغبة في إصلاح الدنيا عند نفر من أهلها ، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التي تعيش في رحابها ونكرع من آثامها وشرورها . وكان طبيعيا بعد أن أقام هذه الدولة في مخيلته ، أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها ، ثم يخرج من هذا إلى تصنيف هؤلاء الحكام ، فنصفهم بطريقة تعسفية في طبقات تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار والنقباء والنجباء والأبدال . . . وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة في هذه المملكة الباطنية ويسّرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون الناس خيرا عما يلقونه من شر دنياهم (١) . . .

وقد عرفت مصر في العصر العثماني من هؤلاء الحكام صنفين اثنين : وهما القطب والأولياء بوجه عام ، وقد ضاق الشعب المصري بدنيا الفاقة والظلم ، فانساق بتأثير جهله إلى الإيمان بمن يدعون الزلنى إلى الله — ولما كان الأولياء في هذا قد أصابوا المال الطائل ، وبسطوا نفوذهم على الاتباع والمريدين ، فقد تهيأ لهم

(١) كارادى قو في مادة Wall بدائرة المعارف الاسلامية ، الأستاذ أحمد أمين بك في ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، نيسكسون في Mystics of Islam ص ١٢٣ وما بعدها ، المناوى في طبقاته الصغرى من ص ٨ الى ١٢ وغير هؤلاء كثيرون .

سلطان روحى ونفوذ دنيوى معا . . .

تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق نفوذ :

انتشر الأولياء فى أرض مصر وفشا أمرهم بين أهلها ، واقتسموا مناطقها فاستولى كل ولى على مساحة من الأرض تقبل الزيادة والنقصان ، يتصرف فى أهلها ويستغل غلاتها ، فيقيم الولايم فى بيوت ملاكها ويطالبهم بالأتاوات ينظم منها موالد الأولياء - وكان الناس يخفون إليهم سراعا كلما تطاير إليهم نبأ وجودهم ، ويستجيبيون لمطالبهم راضين مغتبطين ، يحملهم على ذلك الأمل فى اكتساب البركة والظفر بالزلفى إلى الله . . . والمنطقة التى تخضع لنفوذ الولى تناسب فى سعة مساحتها طرديا مع قدرة هذا الولى على اجتذاب الناس إليه وكسب عواطفهم نحوه . وقد حرص كل ولى على إقرار نفوذه فى منطقته والعمل على توسيع دائرتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكان يطمع فى أغلب أحواله فى أن يكون كافة أهل بلده تلامذة ومريدين له وحده^(١) وكان الأولياء يؤثرون أن تكون الزعامة لواحد لا ينافسه عليها أحد ، حكى عن يوسف العجمى أن الله حين قضى بمغادرته بلاد العجم ، سمع هاتفا يأمره بالسفر لينفع الناس فى مصر ، فظنه شيطانا وأهمل أمره ، بيد أن النداء أخذ يتكرر حتى بلغ الرابعة ، فقال يوسف : اللهم إن كان هذا وارد حق منك فأقلب هذا النهر لبنا أغرف منه بقصعتى ، وتقول الرواية إن النهر قد انقلب لبنا . . . فأيقن أن الهتاف الذى سمعه وارد حق لا شك فيه . . . فلما أقبل على مصر وجد الشيخ حسن التستري ، وقد سبقه إليها ولم يتصدر المشيخة بعد ، فقال له يوسف : إن الطريق لا تكون لأكثر من واحد يقوم بها لأنها تقوم على الأخلاق الإلهية ، فإما أن أتصدر أنا وتكون وزيرى وخادمى ، وإما أن تتصدر أنت وأكون وزيرك وخادمك ، فتخلى له الشيخ حسن عن الصدارة وأخذ يقوم بخدمته حتى وافته منيته ، فأخذ مكانه بعد أن استأذنه

في ذلك وهو على قيد الحياة... وأظهر في الطريق العجائب، ودانت له الملوك
وخضع لنفوذه الأمراء (١)...

وما كان مشايخ العصر على هذا الخلق، فقد كانوا يظهرون بأنفسهم ويدعون
المشيخة دون أن يبايعهم أولياء الدائرة، ويدخلوا في طاعتهم كما كان ينبغي،
وكانوا يجلسون المشيخة وفي بلدتهم من هو أقدم منهم هجرة في الطريق
فلا يعباؤون به، مع أن الآداب تقضى باحترامهم له، وطلب الإذن منه
بارشاد المرشدين نيابة عنه، إن أحسوا في أنفسهم بأنهم أعلم منه (٢)، ولقد
أدى بهم هذا الادعاء إلى أن يجور بعضهم على حقوق بعض، ويعتدوا على
مناطق غيرهم ويحاولوا الاستحواذ على ما ليس لهم فيه حق. ولكن الأولياء
كانوا على كل حال حريصين على أتباعهم ومريديهم لا يحب أحدهم أن
ينفضوا من حوله ويلتفوا حول غيره، ولعل هذا جائز ومحتمل في رأى
المنطق وحكم العقل، ولكن الغريب أن شيوخ الطريق في هذا العصر كانوا
يطمعون في أن يقتصر على صحبتهم كل من اتصل بهم أو تلقى الذكر عنهم
بقصد التبرك والتمن، ولهذا نرى الدردير العدوى، يحذر الأشياخ من شر
ذلك، ويقول إن المريد الصادق المحبة هو وحده الذى لا ينبغي له أن يزور
ولياً ولا صالحاً من أهل عصره إلا باذن شيخه، ولا يحضر مجلساً غير مجلسه
ولا يستمع إلى أحد سواه... أما الذين يتلقون الذكر بقصد التمن وحده
فليس للشيخ أن يقيدهم بصحبته، ومن طمع في ذلك كان غير صالح لأن
يكون شيخاً في طريق الله (٣). ونرى الشعرائى يقول إن أشياخ عصره قد
ضلوا حتى عز عليهم التميز بين من يحبهم مكثفياً بهذا الحب، ومن يطلب
التربية على يدهم، ويروى ما يؤيد هذا فيقول إن أحد مشايخ العرب قد اجتمع
بأحد شيوخ مشايخ الطريق وأهدى إليه قمحاً وأرزاً وعسلاً وذهباً، وأقبل

(١) اليهود المحمدية ص ٢٠٥

(٢) قواعد الصوفية ص ٢٥١ (مخطوط)

(٣) السيد محمد البكرى: السير إلى الله ص ١٨٥ (مخطوط)

عليه إقبالا عظيما ، فقال الشيخ : إن كنت تصحبنى فلا تصحب فلانا ، فنفرت نفسه من هذا التضييق وترك الشيخ قائلا : ما طلبت أن أكون شيخا ولا مريداً ، ثم مضى الى الشعراني واجتمع به ، فظن الشيخ الأول أن الشعراني هو الذى حرصه على تركه وحوله إليه وأغراه بصحبته فحمل له العدا من أجل ذلك^(١). وما كان الأشياخ ليطمعوا فى امتداد نفوذهم إلى هذا الحد ، لو أن الشعب كان على استعداد للإعراض عنهم لو تجاوزوا حدودهم — ولعل رواية الشعراني لا تنقض ما نقول ، فليس يبعد أن يكون الشعراني — بما عرف عنه من مهارة وقدرة على اجتذاب الناس إليه — هو الذى حول شيخ العرب عن شيخه الأول ، ولولا ذلك لرشح شيخ العرب لمطلب هذا الشيخ واستجاب لرأيه ..

كان طبيعيا بعد هذا أن يغضب الولي إذا اعتدى أحد زملائه على منطقته التى تخضع لنفوذه ، بل لقد كان غالب فقراء هذا العصر يغيضون من لم يكن من تلامذة شيخهم ويتمنى الواحد منهم ألا يظهر اسم فى بلده لغير شيخه ، ويتبادلون نظرات مليئة بالحقد فياضة بالاحتقار ، كما ظن الواحد منهم أن من أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دينه^(٢) وما كان المريدون وحدهم هم الذين يحملون هذه الضغينة وينطوون على هذا التعصب ، فقد كان الأشياخ إذا تحول عنهم مريدوهم إلى شيخ آخر أصابت الإحن قلوبهم ، وأدركت الكراهية نفوسهم حتى حذر الشعراني الشيوخ من شر ذلك ، وأشار على من ابتلى به منهم أن يتخذ له شيخا يسلك على يديه حتى يرقى به إلى مرتبة الاخلاص ، فيشرح صدره لمثل هذا التحول ، لأن من ساء هذا فقد أعوزه الاخلاص لطريقه^(٣).

(١) بهجة النفوس والأخلاق ص ١٦٨ (مخطوط)

(٢) لطائف المتن ج ٢ ص ١٠٣

(٣) العهود المحمدية ص ١٢٩

كان اعتداء الولي على منطقة غيره من الأولياء عدواناً بالغاً وامتهاناً لحرمة الطريق ، على أن الأولياء كانوا إذا رأوا ولياً أقوى منهم شخصية وأكثر أتباعاً وأمضى نفوذاً وأرحب سلطاناً، خضعوا له وساروا تحت رايته ، فإن أجمعوا على الإذعان له ، عرضوا عليه ، القطبانية ، ودانت له الأرض بما رحبت ، وخضعت له الرقاب بما حملت . . . وكان وحيد عصره . . .

القطبانية ونفوذ أهلها في مصر :

والقطبانية التي جرى العرف بأن تكون لواحد فذ لا تتجاوزه ، قد ظفر بها في مصر بعض الأولياء إبان هذا العصر . . . أصابها محمد الحفناوي الخلوقي المتوفى سنة ١١٨١ هـ الذي دانت لطاعته الرقاب ، وأخذ اليهود على العالم وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار وأحيا طريق القوم بعد درسها ، وأنقذ من ورطة الجهل مهجاً من غي نفوسها فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له في كثير من قرى مصر — قبل أن يكون قطباً — نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى ، ولم يزل أمره في ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله بطريقته ، وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولي من أهل عصره إلا أذعن له . . . وأسلم على يديه خلق كثير من النصاري . . . ، وأكثر فيه الشعراء من المديح ، وبموته ، ابتدأ نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية ، لأن رحى لا تدور بدون قطبها ، وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه ، (١) .

بل لقد كان الولي إذا ثبت قدمه وذاعت تعاليمه ، في مشارق الأرض ومغاربها ، يشعر بتوطد سلطانه حتى ليأبى القطبانية إذا عرضوها عليه . . . فن ذلك ما كان من أمر أستاذه السيد مصطفى البكري الذي ، أوتي مفاتيح

العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه في مشارق الأرض ومغاربها ،
وأخذ على رؤساء الجن العهود ، وعم مدده سائر الورود ، فان قطبانية المشرق
قد عرضت عليه فأباهما (١) ١١٠٠

وبلغ من خطر القطبانية في العالم الاسلامي أن أشيعت عند المغاربة عن
الزبيدي - ١٢٠٥ في مصر - وهو صاحب الشرح الوافي لإحياء الفزالي (٢)
وتاج العروس في شرح القاموس وغير ذلك - فكان إذا وفد أحد هؤلاء
المغاربة إلى مصر حاجاً ولم يصله بشيء ، لا يعتبر حجه كاملاً . . . وكانوا أيام
الحج محتشدين ببابه منذ الصباح حتى المساء ، وكان بعضهم يحمل إليه استفتاء
من علماء بلده وأعيانه ، فان ظفره بقطعة ورق ولو بمقدار الأتملة فكأنما
ظفر بحسن الخاتمة وحفظها معه كالنخلة ، ورأى حجه مقبولا ، وإلا فقد
بأه بالخيبة والندامة وأحاطة باللوم أهل بلاده ، ودامت حسرته إلى يوم
ميعاده (٣) ١٠٠

ومن الخير أن نشير إلى أن الكتاب في هذا العصر كانوا يسرفون في
إضافة الأوصاف إلى من يترجمون لهم ، على سبيل التمجيد والتعظيم ، ولم يكن
صغار المؤرخين وحدهم هم الذين ينزلقون إلى هذا الإسراف ، وكان الناس
- في مصر - يزعمون أن الأقطاب أربعة - وقال بعضهم بل اثنان - وقد
عرض للحديث عنهم الأستاذ د. لين Lane وصور فكرة المصريين عنهم بشيء
التفصيل (٤) .

على أن الأولياء كانوا في مصر يعلنون استقلالهم إذا لم تجد القطبانية من
هو أهل لها ، قال الجبرتي معقبا على نجات الحفناوي : إن البلاء قد نزل بالبلاد

(١) الجبرتي ج ١ ص ١٧٢

(٢) أنصاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للسيد محمد بن محمد الحسيني
الزبيدي الشهير بمرتضى - طبعة مصر في عشرة أجزاء وطبعة المغرب في ثلاثة عشر جزءا .

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٢١٣ .

(٤) لين E.Lane في كتابه السالف ص ٢٣٦ وما بعدها .

المصرية والحجازية والشامية بعده ، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وساد أقطار الأرض ، وهذا هو السر الظاهري ، وهو ولا شك تابع للباطني ، وهو القيام بحق وراثته النبوة وكال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام المهدي والإسلام وإحكام مباني التقوى . لأنهم آمناء الله في العالم وخلاصة بني آدم ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ،^(١) وظاهر من نص الجبرتي أن القطبانية لو وجدت من يتولاها بعد ممات الحفناوي لما أصاب البلاد الإسلامية هذا البلاء .. ولعل هذا الرأي يخالف ما اتفق عليه جمهرة الباحثين في القطبانية ، إذ انعقد رأيهم على أن القطبانية لا تخلو لحظة واحدة من ولي يتولاها ويقوم بأعمالها^(٢) .

آفاق نفوذهم في مناطقهم :

كان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار في الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثروا حوله عديدهم ، وسدوا طريقه وانهاؤا على يديه وقدميه ثقيلًا وثِمًا ، ومن كان خروجهم إلى الشوارع يثير هذا الضجيج السيد محمد البكري ، كما يقول صاحب السكواكب السائرة^(٣) . بل لقد روى صاحب النور السافر في ترجمته أن الشعراء من فضلاء مصر المتكئين في علوم اللغة وقواعد الشعر ومذاهب الإنشاء ، كانوا يقصدون إليه بقصائدهم المليئة بالمدائح ، وأنه كان إذا قام من مجلس جلس فيه للتدريس بالجامع الأزهر أو غيره ، تقدم الناس لتقيل يده والتبرك بدعائه والتمنن بالقرب من موضعه ، وكان الازدحام يقع بينهم حتى يسقط بعضهم تحت أقدام الناس — وكان يحيط به جماعة من جند السلطان التركي وغيرهم يحلقون على حضرته بأيديهم خشية عليه من أذى الازدحام ، وربما أخذ أحدهم يده الشريفة وهي ممدودة لتقيل الناس

(١) البيرتي ج ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦

(٢) مادة Wali في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) السكواكب السائرة ج ٢ ص ١٠٨

لطول زمن مدها لهم إذ كان يمدّها لهم بعد درسه نحواً من ساعة زمانية ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية في الازدحام عليه إلى أن يصل إليها ، كما يقول صاحب النور السافر^(١) ، بل لقد كان وجود الفقير في مكان قفر كفيلاً بتعميره وجذب الناس إليه ، اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولداً قد اشتد به الظمأ حتى قتله ، فماله ما سمع ومضى إلى المكان الذي مات فيه وحفر في الأرض بئراً وأقام زاوية له فسرعان ما تماقت عليه الفقراء وعمروا لهم بيوتاً على كشب من زاويته ، فأضحى المكان الفقريّة عامرة بالفقراء والناس والنزلاء ومن يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غزة أو يهودون إليها من هذه البلاد^(٢) ، وكان أبو النجا القوي إذا سافر إلى بلده « فوه » ثم عاد إلى مصر ووصلت مركبه إلى بولاق إذ ذهب الناس أفواجا يتلقونه كأنه سلطان ، ويكون ذلك يوم عيد عندهم ، كما يقول المناوي^(٣) .

بل لقد امتد نفوذ هؤلاء إلى طريدى القانون والخارجين على قواعد الدين... فكان العصاة من قطاع الطرق يرتدون على يد الشيخ على البيومى + ١١٨٣ مريدون وأتباعاً له . ١ ومنهم من صار من السالكين . ١ وقد كان يوثقهم أحياناً في أعمدة مسجد الظاهر بسلسلة من حديد ، وتارة يضع الطوق في رقابهم أو يؤدبهم بما يقتضيه رأيه وهم سكوت عن رضا وطواعية . ١ وكان إذا ركب إلى المشهد الحسينى فى جماعته تبعه هؤلاء العصاة والمجرمون حاملين العصى والأسلحة فى موكب له روعته وجلاله^(٤) ، وكذلك كان الشأن مع الشيخ الشناوى ، فقد كان ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار به فسرعان ما يتبعه هذا ولا يملك رد نفسه عن ملازمة الشيخ والسير فى ركابه . ١ وقد ارتقى بعض

(١) النور السافر ص ٤١٥ — ٤١٦ وقد ذكره فى وفيات سنة ٩٩٣ هـ أما أبو السرور البكرى وعلى مبارك والنرى فقد ذكروه فى وفيات سنة ٩٩٤ هـ (ينظر بيت الصديق ص ٧٤ نقل عن أبي السرور البكرى ، المخطط النوفيقية ج ٣ ص ١٢٦ ، الكواكب السائرة ج ٣ ص ١١٢) .

(٢) تكميل النور السافر ص ٢٩٣

(٣) الكواكب المصرية ص ٤٨١

(٤) الجبروتى ج ١ ص ٣٤٠ ، طبقات الشاذلية ص ١٤٤

هؤلاء اللصوص الثابتين حتى صاروا من أعيان جماعته^(١) . . .
ومعنى هذا أن الشعب كان لا يعبأ بماضى الفقراء الذين يحسن الظن بهم،
ويؤمن بصدق ولايتهم ، ولعل هذا ليس أغرب من أن تقول إن حاضرم
كان لا يعنى الناس فى أكثر الحالات .

سار على البكرى + ١٢٠٧ هـ عاريا فى الأسواق يهذى فى حديثه
ويخلط فى كلامه ، فيؤول الناس هذيانه تأويلا يلائم أحوالهم ويتفق مع
أغراضهم ، واستغل أخوه سذاجة الناس فتمعه من الخروج إلى الشوارع
والأسواق - مكشوف الرأس والسواتين كما كان يفعل فى أغلب أحواله -
وحبسه فى بيته وروج له وعزا إليه من الكرامات والخوارق ما حمل الناس
على الإسراف فى الإيمان به والمصارعة إلى تقديم الهدايا والتذور إليه حتى
أثرى أخوه من ورائه ، وقد بلغ من اعتقاد الناس فى هذا الدرويش أن تبعته
امرأة ولزمت فى الشوارع والأسواق ، فسرعان ما آمن الكثيرون من الناس
بصدق ولايتها ، وأشاعوا أن الشيخ قد لحظها وجذبها ، فأضحت من أولياء
الله الصالحين ، ثم ارتقت فى درجات الجذب فخرجت معه إلى الشارع فى زى
الرجال يتبعهما أنى سارا الأطفال والصغار وعامة الناس . . . ومنهم من اقتدى
بهما ونزع ثيابه وتحنجل فى مشيته ، فقليل إن الشيخ قد جذبته أو مسته فصار
وليا . . . وكثر أتباع هذا الرجل المعتوه حتى كان إذا مر بشارع ملاءه ضجيجا ،
ونهب أتباعه محال التجار واستولوا على ما فيها من بضائع . وكانت المرأة
تصعد أحيانا على درج عال وتفحش فى القول فيزداد إيمان الكثيرين بها ويقبلون
يدها تيمنا ببركتها . . . و مر موكبهم ذات يوم ببيت جندى يسمى « جعفر
كاشف » فقبض على الشيخ وأدخله إلى داره ومعه المرأة وسائر المجاذيب -
ثم طرد الناس عنه وقدم له ما يأكله ، وأدخل المرأة والمجاذيب إلى الحبس
وأطلق الشيخ إلى حال سبيله . ثم أخذ يضرب المرأة والمجاذيب حتى طير

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦ .

الولاية من رؤسهم ورد الرشد إلى عقولهم، ثم أطلق سراحهم إلا المرأة فانه أرسلها إلى المارستان وربطها عند المجانين، ولبثت على هذه الحال حتى إذا جدت الحوادث أطلق سراحها فخرجت إلى الشوارع فاذا هي «شيخة على انفرادها، يحسن الناس الاعتقاد فيها، ويؤمن النساء بصدق ولايتها حتى أقيمت لها الموالد - بعد مماتها - وقدمت إليها الهدايا والنذور» (١) . . . ١١٠

بل بلغ من مكانته الملحوظة أن كان شيوخ الطرق في الدول الإسلامية يجتمعون به فيعطيه «إذنا عاما على عموم الطرق ويأذن لهم في أن يكونوا رؤساء يرجع إليهم في أمر عموم أهل الطرق . . .» كما يقول صاحب طبقات الشاذلية (٢) .

وكما كان هذا هو الشأن مع الأميين والمشعوذين فقد كان مع المستنيرين، وقد عرفنا من قبل كيف جمع السادات في يده السلطتين : التشريعية والتنفيذية حتى أباح لنفسه أن يستدعي المذنبين والأثمة في رأيه، ويفرض عليهم العقاب الذي يشاءه، وينفذه على مرأى من الناس ومسمع من الحكام، فلا يقضب لذلك أحد . والغريب أن روح العصر كانت لا تسمح بأن يكون الحاكم واحدا من أهل البلد . . . ١

ولم يتوافر له هذا النفوذ عند عامة الناس وطغاهم فحسب، بل كان له سلطان ممدود الرحاب على ذوى المكانة الملحوظة من رفقائه وجلسائه الذين كانوا لا يتكلمون معه إلا بميزان، وملاحظة الأركان، ويتأدبون معه في رد الجواب وحذف كاف الخطاب ونقل الضمائر عن وضعها في غالب الألفاظ، بل كلها حتى في الآثار المروية والأحاديث النبوية، وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات والوصف بالمناقب الجليلة حتى إن السيد حسين المنزلاوى الخطيب كان ينشئ خطبا يخطب بها يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرا

(١) الجبرتي ص ١١٣ و ١١٤ ج ٢ و ٨٤ و ٨٥ ج ٢ وطبقات الشاذلية ص ١٥٣

و ١٥٤ (مع سداجة في تحليل الظواهر)

(٢) طبقات الشاذلية ص ١٧٢

فيها بالمشهد الحسيني وبزاويتهم أيام المولد ، ويدرج فيها الإطراء العظيم في المترجم والتوسل به في كشف المهمات وتفريج الكروب وغفران الذنوب حتى أني سمعت قائلاً يقول بعد الصلاة : لم يبق على الخطيب إلا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات^(١) . . . أو كذلك كان شأن هذا الرجل المادى الوصولي مع أعظم المدرسين في ذلك الوقت ، قال الجبرتي كذلك ، وبالغوا في تعظيمه وتقديره يده ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا في صلاته وجوائزه وحصول الشهرة لهم ، وزال الخول والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر ، وزاد هو أيضا وبجها ووجاهة بمجالستهم وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه ، ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيضم ثيابه ويقول عند مشاهدته يا مولاي يا واحد ، فيجيبه هو بقوله يا مولاي يادائهم يا علي يا حكيم ، فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبا على ركبتيه ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه ، وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه وكذلك أتباعه وخدمه الخواص . . . الخ^(٢) . بل حسب هؤلاء الشيوخ نفوذهم عند الشعب ، مرضاته عما كانوا يرتكبونه من الزنا بالنساء والفسق في الغلمان ، وتعاطى المخدرات واستيلائهم على أموال الناس ، وحرصهم على الدنيا باسم الزهد في الدنيا والاستهانة بشهواتها والرغبة في الاتصال بالله . ١

...

بعض آيات نفوذهم عند المريدين :

أوجب شيوخ الطريق على المريدين آدابا شملت إرادته وطمست شخصيته ، ورفعت الشيخ في نظره إلى مرتبة الله ، بل جاوزت به هذه المرتبة . . .^(٣) فن .

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٥ . بيت السادات الوفاية ص ٢١

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠

(٣) أنظر كتابنا عن الشراني في الفصل الذي عقدناه على علاقته بالمريدين

ذلك ما يراه السيد محمد البكرى الكبير + ٩٩٤ هـ فى رسالة له يصرح فيها بأن من واجب العبد — أى المريد — أن يذكر أنه بين يدى أستاذه ، فى كل نفس من أنفاسه ،^(١) ولكنه يصرح فى رسالة أخرى بأن الله قد جعل أسباباً يصل بها عبده إلى حضرة الربانية ، منها مراقبة الحق وتذكر العبد أنه بين يدى الله فى « سائر أوقاته أو غالبها .. »^(٢).

بل أوجب الشيوخ على المريد أن يستجيب لأوامرهم ولو قضت بعصيانه لله وتمرده على قواعد دينه ، بافطار رمضان أو الإهمال فى إقامة الصلاة ..^(٣) ومثل هذا يقال فيها أباحه الشرع وحرمة الشيخ ، لأن الترقى لا يكون بالاستمتاع بالمباح من اللذات ، بل بالزهد فيما أحل الله من وجوه اللذة ، والتزام الجانب الوعر فى السلوك إلى الله .^(٤) واتباع نصائح شيخه — بالغاً ما بلغ وجه الإجحاف بها وقلة الذوق فيها .^(٥) بل إن السنة المروية عن رسول الله — فيما يدعون — لا تبرر اعتراض المريد على شيخه فى أمر أو نهى ..^(٦) وإذا أشرك المريد بشيخه شيخاً آخر ، كان كمن يشرك بإلهة ..^(٧) إلى آخر هذا المنذر الذى فشا فى آثار هؤلاء الشيوخ ..

بعض آيات نفوذهم عند الحكام :

وقد استبد سلطان هؤلاء الشيوخ بنفوس الملوك والسلاطين والأمراء ، فتافس هؤلاء فى الاتصال بهم والظفر بمرضايتهم وإصابة الطيبت من دعواتهم ، واستغلال نفوذهم عند الشعب فى اكتساب مرضاته عن جور هؤلاء الحكام : فمن ذلك أن كان الولاة يتقربون إلى بعض هؤلاء الشيوخ ويتخذونهم أصدقاء .

(١) هداية المريد ٤٦٠ (مخطوط) (٢) تحفة السالك من ٤٥٨ (مخطوط)

(٣) السير إلى الله من ١٥١٩

(٤) الشرائع : قواعد الصوفية من ٢٠٧

(٥) قارن للصمد السالف من ١٢٦ و ١٣١ و ٢٠٧

(٦) للصمد السالف من ١٢٠

(٧) للصمد السالف من ١٥٤ و ١٥٥ وقارن الجبرتي ج ٢ من ٦٥ — ٦٦

وندماء^(١) ويتردد نواب مصر وقضاة عساكرها وحكامهم على الدمرداش + ٩٥٤ هـ ويلتمسون تقبيل يده فلا يلتقي لهم بالا^(٢)، بل كان الأمراء والولاة في بلاد العالم الاسلامي يحسنون الظن بالسيد البكرى + ٩٩٤ هـ ويكاتبونه ويهادونه ويلتمسون عنده النصيح والإرشاد، ويستجيب لشفاعاته ولاية مصر ونواياها، ويختلف لزيارته الوزير سنان باشا كل يوم جمعة، ويقبل يده ويأتمر بأمره وينتهي بنهيه^(٣). وكثيراً ما كان الأمراء يساهمون في إقامة أضرحة الأولياء وتنظيم موالدهم المملأ بالفساد من الزنا بالنساء والواط بالغلبان ونحوه^(٤)، وكان نساء الأمراء يحسنن الظن بالدجالين من هؤلاء. ويغمرنهم بالهدايا والنذور - كما كان شائهن مع الخبولة على البكرى^(٥)، صاحب الضريح والمزار القائمين في الرويعي بالقاهرة إلى يومنا الحاضر. ولم يكن هؤلاء الحكام في موقفهم من شيوخ الطريق - صادقين كانوا أودجالين - يمتازون عن طعام الناس كثيراً أو قليلاً، وأحداثهم التي تشهد بهذه السذاجة أكثر من أن يحصيا العدد، فن ذلك أن الوزير علي باشا ابن الحكيم قد اشتد به الضيق في إحدى رحلاته، فرأى في منامه أحمد البكرى + ١١٥٣ هـ، فلما استيقظ اشتد إيمانه بولاية هذا الرجل، فاذا زاره الشيخ تلقاه الوزير باحتفاء بالغ، وخر على الأرض وأخذ يقبل قدميه، ويطلب إليه أن يأذن له في زيارته بين الحين والحين، وراح يرسل إليه الهدايا بغير حساب^(٦). بل كان الأمير إذا تعنت مع أحد هؤلاء الشيوخ، ثم أصابه شر، نسبوا، ما أصابه إلى الشيخ المبيض، واشتد إيمان الأمراء بولايته. وهذا النوع من

(١) أنظر مثلاً « الحقيقة والحجاز » للبابلي ص ١٤٧

(٢) المحجى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ج ٣ ص ٢٥٤ والحقيقة والحجاز

ص ١٠٠

(٣) توفيق البكرى : بيت الصديق ص ٧٦-٧٧ وأنظر ص ١٧٨ عن ابى المواهب البكرى .

(٤) الجبرقى ج ١ ص ٢٢٥ عن موقف الأمراء من العفيق .

(٥) الجبرقى ج ٧ ص ٨٤

(٦) الجبرقى ج ١ ص ١٦٣ وبيت الصديق ص ١٦٠

الشواهد يملأ كتب الطبقات والتراجم ، وإن كان الكثيرون منهم يرون أن التصريف بالمقدرة الالهية — وهو القدرة على العزل والإيذاء والتشكيل — لا يكون لغير واحد من أولياء الله ..

فلم يكن غريباً بعد هذا أن يلتبس الحكام معونة هؤلاء الشيوخ زلفى إلى الله من ناحية ، وضماناً لرضا الرعايا عن جورهم من ناحية أخرى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون اليهم عند المحن والأزمات ، ويلتمسون عندهم العون على تهدئة الناس وحفظ الأمن العام ، أو فى الاتصاف على الخصوم والأعداء ، روى الجبرقى أن إبراهيم بك قد مضى إلى البكرى + ١٢٠٨ هـ والعروسي + ١٢٠٨ هـ والدردير + ١٢٠١ هـ — حين أقبلت إلى مصر الحملة التأديبية التركية بقيادة حسن باشا الجزايرلى القبودان — وأنه أخذ ، يبكى لهم وتضاغر فى نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف ذلك جداً ،^(١) . وقد كان هؤلاء الثلاثة من كبار شيوخ التصوف فى مصر إبان عصرهم^(٢) . وإن جمع العروسي والدردير بين الفقه والطريق .

وكذلك كان الحال مع السيد خليل البكرى ، إذ كان الأمراء الذين أدركهم الجزع من بطش الفرنسيين بهم أيام فتح نابليون ، كانوا — فيما يقول الجبرقى — يلوذون به ، ويحتمعون فى بيته ، لأنه مسموع الكلمة مقبول الشفاعة^(٣) .

وقد بلغ من نفوذ الشعرانى عند الحكام ، أن كان يسعى لتعيين الفضاة

(١) الجبرقى ج ٢ ص ١١٨

(٢) اقرأ تراجمهم فى الجبرقى ج ٢ ص ٢٦٦ — ٧ للأول و ٢٦٧ — ٢٧٠ للثانى و ١٥٧ — ١٥٨ للثالث وقد ذكرت طبقات الشاذلية ترجمة قصيرة للعروسي ص ١٥٩ (وحدث تاريخ وفاته خطأ بعام ١١٠٨) وترجمة أخرى للدردير ص ١٥٥ — ٦

(٣) الجبرقى ج ٤ ص ٩٢ وبيت الصديق ص ١٣٢

والمحتسبين وشيوخ العرب في وظائفهم^(١) كما كان الحفناوى قطب رضى الديار المصرية، «ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا بإذنه»^(٢). وقد كان هؤلاء الشيوخ، يعملون من جانبهم على إيهام هؤلاء الحكام بسلطتهم وسعة نفوذهم، لأن هذا يعلى من شأنهم في نظر الناس، ويكثر من أتباعهم، ويبدر عليهم المال الطائل، ويحقق لهم السمعة الطائفة، فكان الشيخ يقول لنقيب زاويته: إذا أقبل الأمير الفلانى لزيارتى، فقل لى على مسمع منه إن الباشا قد أرسل اليكم السلام مع أحد أفراد جماعته، وهو يطلب اليكم ألا تضنوا عليه بدعواتكم. فإذا سمع الأمير ذلك، نقله إلى سائر الأمراء فيعلو شأنه عندهم، ويكثر ترددهم على زاويته، ويقوى اعتقادهم فى ولايته...^(٣) وكان الشيخ السادات + ١٢٢٨ هـ يلتبس شتى السبل لتوثيق علاقته بالأمراء، فكان يدعوهم إلى زيارته فى بيته، ثم يوجز إلى فقراء الطرق الأحمدية والسعدية والشعبية بأن يملوا بمواكبهم تحت دأره، حتى يدرك الحكام مبلغ نفوذه عند أرباب الطريق...^(٤).

...

ومن الأرزاق التى أجراها هؤلاء الحكام ومن إليهم من المحتسبين، عاش هؤلاء الفقراء فى ترف ورخاء — لا يستقيم مع أبسط قواعد الطريق — ولكنهم كانوا يدعون أنهم ينفقون من الغيب، لأن الصادقين من شيوخ الطريق، لا يذعنون لقبول ما يقدمه لهم الملوك والأمراء من أموال وهدايا ومرتبات، ولا يرضون عن حياتهم المألوفة بديلا^(٥). والرزق إنما يكون بما يفتح الله، فإن العبد إذا صدقت نيته، وأخلص فى عبادة ربه، أدناه الله من

(١) الشمرانى: البحر المورود ص ٢٢٣

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٥

(٣) الشمرانى: لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٢

(٤) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٣ وبيت السادات الوفائية لسيد توفيق البكرى ص ١٩

(٥) الشمرانى: تنبيه المفتقرين ص ٢ و ٣ ب (مخطوط).

حضرته ، وقربه من ساحته ، وأولاه الكثير من نعمه ، حتى ليرتفع فوق
نواميس الطبيعة وقوانينها ١١٠٠

ووجه الغرابة في هذا التعليل ، أنه قد صادف قبولا عند مؤرخي ذلك
العصر ، وفاتت حقيقته ذوى المحبى منهم ممن سبقوا عصرهم بأزمان طوال ،
فالجبرتي يؤرخ لمحمد القليني الأزهرى + ١١٦٤ هـ فيقول إنه كان من أصحاب
الكرامات والمآثر ، منها أنه كان ينفق من الغيب ، لأنه لم يكن له إيراد
ولا ملك ولا وظيفة ، ولا يتناول من أحد شيئا ، وينفق إنفاق من لا يخشى
الفقر ، وإذا منى في السوق تعلق به الفقراء ، فيعطيهم الذهب والفضة ، وإذا
دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه ، ١١٠٠ (١) ويقول المحبى في ترجمة أحمد بن
سلام المصرى ، إنه كان لا يتردد إلى أحد من الكبراء ، ويحب الفقراء ولا
يقبل من أحد صدقة مطلقا ، بل كان في غالب أوقاته يُرى متصدقا ، وليس له
وظائف ولا معالم ، وعلى ذلك كان في أرغد عيش وأطيب نعيم ، ١١٠٠ (٢) ويقول
الشعراني عن الشيخ الدريب ، إنه — حين وافته منيته — خلف مائة ألف
دينار ، لا يعلم أحد مصدرها ، لأنه كان متجردا من الدنيا زاهدا في جاهها. (٣)
ومرد الأمر كله — فيما نرى — إلى الأرزاق التي يجريها الأمراء ومن
إليهم من المحسنين خفية عن الأنظار ، وهو تقليد جذبه الاسلام وحض
المحسنين على اتباعه ، ومن هدايا الملوك ومن إليهم عاش هؤلاء في وفرة من
الرخاء ، وتيسر لبعضهم أن يبرز الملوك في مظاهر الجود والسخاء ، كما كان حال
الحفناوى + ١١٨١ هـ (٤) والرددير (٥) والسادات والشعراني (٦) وغيرهم .

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٩٦

(٢) المحبى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٧٥

(٣) الشعراني : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٩

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٢٩٢ والرددير : « الطريقة الصاوية » ص ٢٩ (مخطوط)

(٥) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٧ — ٨ (وهو يشرح قصة حجه وبناء زاويته من صلات

سلطان المغرب) .

(٦) في كتابنا عن الشعراني تحليل ما وقع له في هذا العدد .

ومن الانصاف أن نقول إن هذا النفوذ الذى تهباً لشيخ الطريق عند
حكام البلد ، كان يمثل سلطة الشعب أمام هؤلاء الطغاة ، وبهذا تجلت إرادة
الامة حتى فى أسود الأيام التى سجل فيها التاريخ استكانتها لاستعباد الحكام .
وقد أفاد الشعب من وراء هذا النفوذ شيئاً آخر ، هو رد الظلم والكف
عن البغى ودفع العدوان ، ذلك أن شيخ الطريق كانوا حلقة الاتصال بين
الشعب المظلوم وحاكمه الجائر ، وكان وساطة الشيخ مجابة وشفاعاتهم مقبولة
فى أكثر الحالات .

وهذا بالإضافة إلى أن الارزاق التى أجراها على شيخ الطريق الأمراء
ومن اليهم من الحكام ، كانت تنفق فى أكثر الحالات على الشعب المنكود
الذى أرهقهم هؤلاء الحكام بضرائبهم الجائرة الظالمة ، ابتز هؤلاء أموال الشعب
عنوة واقتداراً ، وردوا جانباً منها إلى شيخ الطريق هدايا وأرزاقاً ، أنفقت
فى الترفيه على أصحاب هذه الأموال . . .

على أن شيخ الطريق قد دفعوا ثمن علاقتهم بالحكام ، انتصاراً لظلمهم
وتأييداً للجائر من تصرفاتهم ، فأدى هذا إلى إضعاف روح التمرد على هؤلاء
الظلمة ، وإخماد نار الثورة فى قلوب المصريين^(١) .

(١) فى كتابنا السالف الذكر ، فصلنا الحديث عن هذا فى فصلين عقدهما على

٢ - نفوذهم أمواتا

جلال الموت — الأميون من مدعى الولاية —
العلماء من مدعى الولاية — نظرتهم إلى من أخذ
العهد على موتى الأولياء — الطوائف التي سلكت
الطريق على موتى الأولياء .

كان شيوخ الطريق إذا تخطفهم الموت، تسلط على الناس نفوذهم،
واستأثر بالأميين والمستنيرين، وكلما تقادم عليهم العهد، ازداد نفوذهم قوة
واستبد بهوى الناس وإعجابهم، ولا غرابة في ذلك، فإن الشعوب —
والتأخرة منها بوجه خاص — تؤمن بالآضاليل، وترث الأوهام جيلا بعد
جيل، ولا يتدخل العقل في تنظيم الحياة عند الناس إلا بقدر. وللموت حرمة
وربهة، تفضى بالناس إلى الاسراف في تقدير من تخطفهم من الصالحين،
والاشفاق من مهاجمة من يعدو عليهم من الأتقياء... والصادق من شيوخ
الطريق، بالغاً ما بلغ من صدق التصوف، يصادف المفكرين والساخرين،
ولكنه إذا أضحي في ذمة الله، سكنت عنه خصومه وحصاده، وكف
المنكرون عن التشهير به والنيل منه، وطوت حرمة الموت سوءاته، واكتفى
الناس بتناقل حسناته عملاً بالقول المأثور: اذكروا محاسن موتاكم. ومن ثم
يعلو اسمه بعد موته، وتنسع فرجة الخلاف بينه وبين سائر البشر.

الأميون من مدعى الولاية :

وقد عرفت مصر أثناء العصر العثماني طائفة من جهالة الشيوخ ومشعوذهم
الذين اتخذوا الولاية وسيلة للظفر بالدنيا وأداة للعيش الهنيء، وأحسن السكثرون
من الناس الظن بهم والاعتقاد في ولايتهم، وعاش إلى جانب هؤلاء المنكرون
لهم الساخرون بهم، فلما أصبح هؤلاء الشيوخ في ذمة الله، خفت صوت
المنكرين وتلاشت صيحة الساخرين، وخر الناس جميعاً ساجداً أمام حرمة

الموت الرهيب ، وشيدت ضرائح هؤلاء الأولياء وارتفعت قبورها وأقام العلماء والكبراء موالدهم في كل عام ، وساهم فيها خاصة الناس وعامتهم ١١٠٠ وقد كان في طليعة هؤلاء الذين عرفهم العصر العثماني في مصر على البكرى + ١٢٠٧ (١) الذي أشرنا إليه من قبل ، إذ كان رجلا مخبولا يمشي في الأسواق والشوارع عاريا مكشوف الرأس والسواتين في أغلب حالاته ، أو يلبس قميصا وطاقية ويسير حافي القدمين يخلط في أحاديثه ، فيتبعه الأطفال والصغار وطعام الناس ويسرون وراءه بين منكر عليه ومصديق لولايته ، ولكن أكثر الناس قد مالوا إليه ، وصحت عندهم ولأيته ، كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ، كما يقول الجبرتي ١١٠٠ وكان له أخ صاحب دهاء ومكر ، فبدأ له أن يستغل إيمان الناس بولاية أخيه ، عسى أن يكسب من وراء لوثته ، فحجر عليه وحرم عليه مغادرة البيت وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه أذن له بذلك ، وأنه تولى القطبانية ... إلى غير ذلك من وسائل التضليل ، فأقبل الرجال والنساء على زيارته والتمن به وسماع الفاظه والانصات إلى خلطه وتأويلها بما في نفوسهم ، وأفاضوا عليه الهدايا والندور وخصه بالكثير منها نساء الأمراء والأكابر ، حتى أترى أخوه واغتنى ، ونفقت سلعته وصادت شبكته وضمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل أبو العظيم ، ولبث على هذا حتى مات سنة سبع بعد المائتين والالف من الهجرة ، فدفنوه بمعرفة أخيه في مسجد الشرايبي على كسب من مسجد الرويعي من غير مبالاة ولا اكتراث . وأقام عليه أخوه مقصورة ومقاما ، ورتب له المقرئين والمداحين وأرباب الأشار والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه في قصائدهم وكانوا كما يقول الجبرتي « يتواجدون ويتصايحون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويفرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه في عباهم وجيوبهم » قال البدر الحجازي شاعر العصر في بعض مقطوعاته :

(١) سمي البكرى نسبة إلى سوقة البكرية التي كان يقطن بها .. فهو لا يمت بصلة إلى أسرة البكرى المرونة .

لينا لم نعيش إلى أن رأينا كل ذى جنة في الناس قطبا
 علمهم به يلوذون بل قد اتخذوه من دون ذى العرش ربا
 إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنعام يفرج كربا
 وإذا مات يجعلوه مزارا وله يهرعون عجما وعربا
 بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبلوه وتربا
 هكذا المشركون تفعل مع أصنامهم تبتغى بذلك قربا
 إلى أن قال في قصيدته الحافلة بالأخطاء:

كل ذا من عمى البصيرة والوير ل لشخص أعمى له الله قلبا
 والحجازى حسنا ينظر ما خالف الشريعة صعبا
 وهرع لزيارة هذا الدعى المخبول النساء والرجال ، محملين بالندور والشموع
 وضروب المأكولات . وصار ذلك المسجد مجمعا وموعدا^(١) .

العلماء من معنى الولاية :

وإذا كان هذا موقف المصريين من رجل جاهل معتوه كعلى البكرى ، فليس
 غريبا أن يشتد بهم الإيمان برجل جمع بين العلم والتصوف كالشيخ عبد الوهاب
 بن عبد السلام العففى + ١١٧٢ هـ . فقد كان هذا الرجل عالما على طريقة
 أهل عصره ، وقد اشتهر بينهم بصدق الولاية وصحة الكرامة وقد مسحت
 السماء مطرا غزيرا بعد مماته بست سنوات ، فتهدم قبره وامتلأ بالماء ، فتحرك
 فى القبر سره وأحس أبناءه ومريدوه بذلك ، تخفوا لنصرته سراعا . . .
 شادوا له قبرا على كسب من عمارة السلطان قايتباى ونقلوا اليه عظام الفقيد ،
 وعقدوا على القبر قبة وأقاموا له مقصورة تضم مقاما عليه عمامة كبيرة ، فأضحى
 قبر الميت مزارا عظيما بعد ست سنوات بلى فيها جسمه ونخرت أثناءها عظامه . .
 ثم أنشأوا إلى جواره قصرا عاليا - عمره محمد كتحدا أباطة - وجعلوا حوله

(١) الجبرقى ج ٣ ص ٨٤ و ٨٥ ، ج ٢ ص ١١٣ وفي طبقات الشاذلية ص ١٥٣

رحبة متسعة تحيط بها الأسوار لتكون موقفاً للدواب من خيل وحمير يفد على ظهورها زوار المقام ، وضحوا في سبيل ذلك الكثير من قبور أكابر الأولياء . وأقذاذ العلماء الأولين والمحدثين من المسلمين والمسلمات . . . ثم ابتدعوا لهذا المزار المصطنع موسماً وعيداً يقام كل عام ، ويفد اليه الناس عند إقامته من شتى البلاد - بحريها وقلبيها - وينصبون كثيراً من الخيام والسرادق والمطابخ والمقاهي ، ويختلف إليها خاصة الناس وعامتهم من فلاحى الأرياف وأرباب الملاحى والألعاب والراقصات والبغايا والحواة وأصحاب القردة وغيرهم حتى يضيق عنهم البستان وتمتلئ بجمعهم الصحراء ، وهم يطئون القبور بأقدامهم ويوقدون النيران ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغولون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمر ليلاً ونهاراً ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر . .

وما كان العوام وحدهم الذين يسوقهم الجهل إلى تقديس الجثث التى أبلاها الزمن ، وإن العلماء ليساهمون فى إكبار الموتى من هؤلاء الشيوخ وتقديس ذكراهم ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار ، بل يعتقدون أن ذلك قرينة وعبادة ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلاً عن كونهم يفعلونه ^(١) ولقد وصف الأستاذ « اين » E.Lane انتشار الأضرحة فى قرى مصر وإقبال المصريين على زيارتها ولثم عتباتها وتقبيل نوافذها وحوائطها ومقاصيرها ، وتقديم النذور إليها وإقامة الموالد لها ، وشرح ذلك كله فى كتابه الذى وصف فيه رحلته إلى مصر بعد انقضاء العصر العثمانى بوضع عشرات من السنين ^(٢) .

نظر نهم الى ممة أقدم العرب على موتى الأولياء :

هذا موقف الناس من الأولياء إذا طوتهم القبور ، وإن الإنسان ليعجب

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ وطبقات الشاذلية ص ١٥٧

(٢) Lane, Manners and customs of Modern Egypt p. 244-6

لهذا السلطان الذى بلغ من قدرته على الاستبداد يهوى الناس أن كان يحمل بعضهم على التلمذ على يد من أصبحوا فى ذمة التاريخ... كم عرف تاريخ التصوف فى العالم الإسلامى من فرق وطوائف تعيش على ذكرى أولياء طوائم الرمس منذ سنين طوال . ولم يقدر لواحد من هؤلاء المريدين أن يرى هذا الولي أو يسمع عنه بمن عاصروه... وقد شاع فى مصر إبان العصر العثمانى هذا النوع من الولاية: يدعى المشيخة واحد من عامة الناس ويزعم أنه قد أخذ العهد على البدوى أو الرفاعى أو الجبلى... أو أى من هؤلاء الأولياء الذين لم يسعد برؤيتهم والاستماع عليهم، ولكن سحرته سمعته التى تتطأ فى العالم الإسلامى كله... وسرعان ما يلتف حوله أزباب الحرف وغيرهم من سذج الناس .

ثم يعيش هذا الشيخ وهؤلاء الاتباع والمريدون على بركة هذه الذكرى التى خلفها لهم الولي الكبير الذى يفاخرون بأنهم أخذوا الطريق عليه لأنهم ليستمدون منه السر ويستلهمونه الولاية ويستعينون به على إتيان الكرامات، ويستمطرونه الرحمة ويكادون أن يستغفوا به عن الله... وإن سلطانهم لقوى لا يخشى بأس منكر ولا ساحر، فلا يعأون بمن طعن فى تصوفهم أو اتهمهم بالجهالة أو الشعوذة، أو الخروج على ظاهر الشرع، ففى شيخهم الأكبر فى قبره غناء وأى غناء... ولقد كان التلمذ على يد شيخ طواه القبر جائزاً حتى فى عرف من أنكروا على هذه الفرق تصوفها من غير شيخ حتى... لأنهم يستثنون فى هجومهم من أخذ الطريق على ولي كبير غير مطعون فيه — كالسيد البدوى مثلاً — وفى هذا الاستثناء ما يبرر قيام هذه الفرق فى نظر أهلها .

قالوا إن الأموات فى البرزخ قد صارت وجهتهم إلى الآخرة وظهورهم إلى الدنيا فلا يعنهم خرابها ولا يههم عمارها إلا إذا كانوا شيوخاً حنث ولايتهم ووجب الاقتداء بهم، كالأئمة المجتهدين وأصحاب الرسل . فإن

الاقتداء بغير هؤلاء اقتداء ناقص ، لأن لكل إنسان أمراضاً لا تعرف بغير المشافهة مع شيخ حتى يدل مریده على كيفية الدواء^(١) ، ثم إن المشيخة ليست تركة تنال بالميراث ، وإنما هي ثمرة الصبر والرياضة والمجاهدة والجد والاجتهاد^(٢) . على أن الصالحين من الموتى أولياء قد أوتوا القدرة على تربية الصادقين من المريدين ، وهم في البرزخ - كالسيد أحمد البدوي - فإن مریدیه يسمعون صوته منبعثاً من قبره كما وقع ذلك للشيخ محمد الشنواي + ٩٣٢ هـ على مسمع من الشعراني حين زاره في روميه واستشاره في السفر إلى مصر فأذن له وقال : سافر وتوكل على الله ، . . . ١١ ويزعم الشعراني أنه سمع ذلك بأذنه الظاهرة . . . ١١ وكذلك كان عز الدين الأصفهاني يجتمع في المنام بشيخه أحمد الرفاعي ، فيأمره هذا وينهاه ويربيه ويشير عليه بما ينبغي اتباعه في حياته . . . ١١ ومن صح له هذا المقام جاز له ألا يتلذذ على يد شيخ حتى مكثياً بشيخه الميت . ١ على أن من واجب المرید ألا ينصاع للأوامر التي يسمعها من شيخه في قبره إلا إذا عرضها على علماء الشريعة ، مخافة أن يكون الناطق بها شيطاناً لا ولياً . على أن الذين يشترطون هذا الشرط يقولون إن صحة الاقتداء بالموتى من الأولياء وامثال أوامرهم ونواهيهم لا يستلزمان رؤية صورهم الظاهرة ، ويقولون إنا اقتدينا برسول الله وصحابته والأئمة من بعده ، وما اجتمع واحد منا بأحد منهم . وما منع جمهور العلماء من ذلك^(٣) . . . وهكذا كان أهل التصوف جميعاً ، على اعتقاد في صحة الاقتداء بالموتى من الشيوخ ، وإن رأى بعضهم أن ذلك لا يجوز لغير كبار الصالحين من الأولياء ، ولا ينتفع به إلا الصادقون من المريدين والأتباع .

الطوائف التي سلكت الطريق على موتى الأولياء :

وقد حفلت مصر في العصر العثماني بهذه الفرق التي عاشت عمالة على الموتى

(١) الشعراني لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٩

(٢) قواعد الصوفية ص ١٧٣

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٩

من الأولياء ، كفرق الأحمدية والبرهامية والمطاوعة والرفاعية . . وكانت تضم ألوف الاتباع المريدين ، فأكسبها هذا سلطاناً واسع النطاق ، وهون من شأن الحملات التي أثار غيرها خصومهم ، واستفز حفيظة بعض الشيوخ - من أمثال الشعراني والخواص والجارحي - وحملهم على الطعن فيها والخط من شأنها . . . قال الشعراني إنه لا ينكر على هذه الفرق إلا ما خالف صريح الشرع أو الإجماع^(١) ، وأنه يحسن الظن بهذه الطرق جميعاً ، ولا يحكم على فقراء هذه الفرق التي أسلفنا ذكرها بأنهم خارجون على الشريعة لمجرد إشاعة تطاير حولهم ، بل لا بد له من أن يرى بعينه حتى يستطيع أن يحكم حكماً نطمئن إليه نفسه ، فإن في كل طائفة من الفقراء الصالح والطالح ، فلا ينبغي أن يشمل الحكم كافة فقرائها ، لأن في ذلك غناً على الصالحين فيها^(٢) .

والظاهر أن الذي حمل الشعراني على الرفق في هجومه على هذه الطوائف هو مذهبه في تملق الناس وبجاملة الفرق ومسألة الخصوم ولا سيما إذا كانوا أقرباء^(٣) . فإن رأيه فيهم كان سيئاً ، وقد ظهر ذلك في فقرات أخرى ذهبت أشتاتاً في مختلف مصنفاته ، منها قوله على لسان أحمد الزاهد : إن الملامية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية خارجون على الشريعة في عصره لأن أفعالهم يكذبها طريق أشياخهم من الصدق والزهد والكرامات والخوارق والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة^(٤) . ويقول في مهاجمتهم إن كثيرين من الفقراء الذين لم يسلكوا على يد شيخ يتركون حرفتهم ويدورون في الزوايا كلا على الناس وال الإخوان يأكلون من الصدقات ، وأوساخ الناس ، بعد أن كانوا يقتاتون

(١) لطائف المثنى ج ١ ص ١٢

(٢) لطائف المثنى ج ١ ص ٢٣٤

(٣) انظر شرح هذا في كتابنا عن « الشعراني إمام التصوف في عصره » .

(٤) الشعراني : قواعد الصوفية ص ١٧٥

من حرقهم^(١)، وأن بعض فقراء الأحمديّة والبرهامية قد قنعوا بلبس الزى وجعلوا قروض الوضوء وشروط الصلاة، ومثل هؤلاء ليسوا شيوخاً بإجماع المسلمين . فقد أدرك الشعرائى للأحمديّة والبرهامية شيوخاً كانوا على الكتاب والسنة^(٢) وقال إنه يكثر من إرشاد هؤلاء الفقراء إلى التلبذ على يد شيخ من الأحياء ، يريهم وينصحهم بالأى يكتفوا بالسوك على يد الأموات من الأولياء^(٣)، وروى المناوى عن أبى السعود الجارحى أنه كان يرميهم بقصور الهمة ولا يأخذ العهد على من تلبذ لهم من قبل . . . الخ^(٤).

وإن هذا الطعن كله لينىء بما كان لهذه الفرق من نفوذ وما توافر لها من سلطان ، ولعل من الانصاف أن نقول إن هذا الوهم الذى سلطته حرمة الموت على الناس كان إذ ذاك أمراً طبيعياً لا يدعو إلى دهشة ولا يثير عجباً، لأنه وليد عوامل كثيرة تضافرت على وجوده وتعاونت على بثه فى نفوس الناس ، فمن ذلك ما ساد العصر من شعور دينى عميق كان يحمل الناس — خاصة وعامة — على الإيمان بقدااسة كل ما يلصق بالدين من طقوس ورسوم وما يرتكب باسمه من بهتان وضلال . ثم هذه الجهالة التى تملكته روس الناس وأضعفت من تفكيرهم فى ظواهر الحياة وجرتهم إلى الخلط والاضطراب كلما عمدوا إلى تحليل إحداها حتى جعلوا العلة الأولى ، سبباً مباشراً لكل ما نرى فى الحياة من شر أو خير . ثم هذا الضنك الذى كانوا يعانونه ويقاسون ضيقه ، وذلك الجزع الذى ملأ هذا العصر الذى كانت فيه بيوت الأمراء فى تشاحن وانقسام حتى لانكاد نطلع إلا على وثبة من حزب على حزب أو فتكة من أمير بأمير^(٥) . ولا شك أن ذلك كله كان كبير الأثر فى قلق الناس وجزعهم من عدالة الأرض ، والتماسهم الإنصاف فى رحاب السماء ، ومادام الإيمان بالله قد عمى نفوسهم ، والجهل قد عشى فى رؤوسهم ،

(١) البحر المورود ص ٢١٦ — ٢١٧ (٢) قواعد الصوفية ص ١٧٦

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٤ (٤) الكواكب البرهانية ص ٤٧٨

(٥) محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٢

والضئك قد أخرج صدورهم ، والخوف قد أنقض ظهورهم ، فإن إيمانهم بأولياء
الله بعد الممات يصبح أمراً طبيعياً محتوماً لا مندوحة عنه ولا مفر منه ..

عرضنا فيما سلف من فصول هذا الكتاب مظاهر النفوذ التي تهيأ لأرباب
الطريق — أحياء وأمواتاً — عند شتى طبقات الشعب ومختلف هيئاته ، وعرفنا
كيف استعبدوا السادة واستبدوا بالطغاة وأذلوا الجبابرة وأخضعوا الخصوم
وانتصروا على الحساد واستولوا على أموال الأثرياء ... ونريد الآن أن
نعرف الأسباب التي هيأت لهم هذا النفوذ الواسع عند مختلف الهيئات .

اسباب انتشار التصوف

صلاحية مصر لانتشاره — الترف في معيعة أرباب
الطريق — سقوط التكاليف الدينية عن مدعى
الولاية — حالة مصر تحت الحكم العثماني —
حب الأتراك للدروشة

مقدمة مصر لانتشار التصوف :

يقول الأستاذ لين Lane ، إن العرب قوم شديدو الإيمان بالخرافات ، وليس بين الشعوب العربية شعب أشد إيماناً بالخرافات من المصريين ، وكثير من خرافاتهم الشائعة بينهم يؤلف اليوم جزءاً من دينهم ، لأن القرآن قد قال بها وأيد وجودها . . . وأظهر هذه الخرافات جميعاً هو الإيمان بالجن والعفاريت^(١) . ثم أسهب الأستاذ في شرح هذا النوع من الإيمان عند المصريين ، وعقباً عليه بشرح نوع آخر من الإيمان الخرافي ، هو الإيمان بقداسة الأولياء رغم ما كانوا عليه من خبل أو جنون أو دجل .

ويعتينا من النص السالف أن نلاحظ إطلاق الكلام فيه إطلاقاً لا يحده قيد ولا شرط ، لأنه يقرر أن العرب بطبيعتهم أهل خرافة ، وأن المصريين بفطرتهم عباد أوهام ، وربما انتهى بنا هذا التقرير إلى الدعوة العريضة التي حمل عليها في مستهل القرن الماضي رينان Renan ، وأشياعه ، يوم فرقوا بين الشعوب في قدرتها على الفكر والنظر ، بدعوى الاختلاف في حظهم من الطبيعة السامية والطبيعة الآرية . . . على أن النظرة التي أملاها التعصب في القرن الماضي ، قد أخذت تذوب وتلاشى في القرن الحاضر أمام الأبحاث العلمية التي يقوم بها مؤرخو الفكر البشري ، ولا سيما من أهم منهم بدراسة الفلسفة الإسلامية .

(١) كتاب الأستاذ لين Lane ص ٢٢٨ .

والرأى عندنا أن انتشار الخرافات في شعب من الشعوب يتناسب طردياً مع شيوع الجهل ، عكسياً مع انتشار العلم ، وإذا فشت الجهالة في شعب وأصابته الفاقة وأدركه الضنك وثقلت عليه الحياة ، كان هذا الشعب أصلح البيئات لشيوع الخرافات وانتشار الأوهام . وقد توافرت في المصريين إبان العصر العثماني هذه الصفات : ملأت الجهالة رؤوسهم وأنقضت الفاقة ظهورهم ، وأخرجت المظالم صدورهم ، فلاذوا بالخيال يستعينون به على احتمال تلك الحياة التي ثقلت على كواهلهم ، وأقوى مظاهر الخيال الذي يميل إليه هذا النوع من الشعوب . ما كان له اتصال بالعقائد الدينية ، لأن التدين يغذي هذا النوع من الإيمان الخرافي ويقويه في نفوس أهله . فرد الأمر في هذا الإيمان إلى الظروف التي أحاطت بالشعب المصري لا إلى طبيعته .

هذا فيما يتصل بالدجالين من مدعى التصوف ، فأما المستنيرون فقد كان سبيل الاطلاع على كتب السلف من أهل التصوف ميسراً لهم ، فالغزالي — على وجه الخصوص — كان ذائع الصيت في العالم الإسلامي كله ، وقد انتشرت تعاليمه وشاعت مؤلفاته في التصوف وغيره ، وتناولها الكتاب بالشرح والتلخيص والاعتراض والتأييد ، وحسبنا أن نعلم في هذا الصدد أن كتاب الوجيز قد كتب عنه سبعون شرحاً بعضها في ستين أو ستة عشر مجلداً^(١) ، وقد ساهمت مصر بنصيبها في هذا الميدان ، ومن مظاهر الاشتراك في فهم تعاليمه إبان العصر المملوكي أن محمد بن علي العجاوني ٨١٣ هـ قد قام

(١) الزيدى ج ١ من أبحاث السادة المتقين ص ٤٣

وقد وضع كتاب الأنوار القدسية ، ولخص فيه « الفتوحات المكية » لابن عربي ، وخص به العلماء الأكابر ، إذ « ليس لغیرهم منه إلا الظاهر » ثم اختار منه كتاباً سماه « الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر » في جزئين ، « ووضع البواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكبر » في جزئين ، حاول فيه التوفيق بين عقائد أهل الكشف والبيان وعقائد أهل الفكر والاستدلال ، وأقام هذا الكتاب مكملاً على أقوال ابن عربي في الفتوحات وغيرها من آثاره ، ووضع كذلك « سواطع الأنوار القدسية فيا صدرت به الفتوحات المكية » وهو — فيما نعلم — لا يزال مخطوطاً ، و... الخ .

بتلخيص كتاب « الإحياء »، وكان شيخ خانقاه سعيد السعداء، وقام أخوه باختصاره في كتاب وصفه الشيخ زين الدين قطلوبغا الحنفي المصري + ٨٧٩ هـ كتاباً أسماه « تحفة الإحياء فيما فات من تخاريج أحاديث الإحياء »، ثم وضع الجلال السيوطي + ٩١١ مختصراً آخر « للإحياء »، وكان السيوطي طائر الشهرة قوى النفوذ بين معاصريه، وجاء الشعراني فوضع رسالة في كلفة اللغزالي هي « ليس في الامكان أبدع مما كان »، واطلع الشعراني على كتب ابن عربي وتأثر بها تأثراً أدى به إلى أن يصبح « بوقاً » لابن العربي يردد في كتبه آراءه بين الحين والحين ^(١). ثم جاء « الزيدى » في أواخر العصر العثماني + ١١٠٥ هـ فشرح الإحياء في عشرة أجزاء كبار ^(٢)، وقراء الجبرتي وغيره من مؤرخي العصر يعرفون أن كتاب الإحياء للغزالي والرسالة القشيرية وعوارف المعارف للسهروردي كانت شائعة منتشرة بين المستنيرين.

ومن الخير أن نقب على هذا الكلام المجمل، بذكر ظواهر أخرى كانت من أعظم البواعث أثراً في شيوع التصوف بين الناس :

كان للفقراء أروح بالاولأ كثر طمأنينة من الفلاحين في حقوقهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم، فقد كانوا كما أسلفنا من قبل في أمان من تطبيق القوانين، ومنجاة من ضغط الرأي العام، واستعلاء على أبسط مبادئ الدين، وقل من الحكام من سوى بينهم وبين سائر طبقات الشعب في جمع الضرائب وأخذ الاتاوات وإزعاجهم بالعدوان بين الحين والحين، لكن الشعب يئن ولا سيما في فترات الظلم إبان هذا العصر — من شدة الضنك والاعتداء على الحرمات وامتهان الحريات على أيدي فرق الجند التي كانت لا تجد لها رادعاً يردعها عن هذا الفنى، وكان الحكام — في الكثير من

(١) انظر كتاباً من « الشعراني إمام التصوف في عصره » ص ٥٩ — ٦٣

(٢) طبعة مصر — أما طبعة المغرب فتقع في ١٢ مجلداً (ومن الصعب على المصري تجاوزها للاختلاف في رسم الحروف بين الصريين والتاربة .

الأحايين — إذا اهتموا بعلاج هذا الفساد عجزوا عن الضرب على أيدي
الآثمين والمعتدين ، فلبجأوا إلى الشعب الذي يئن ويشكو من هذا العدوان ،
وطالبوه بانخلاء نفسه عن المفسدين ، وشددوا التكبير على من لا يستجيب
لهذه الأوامر^(١) ، وما أكثر حوادث العبث بالمشايخ بخطف عمائمهم
والاستهتار بالناس والاستهانة بالحرمات بخطف النساء والصبيان من
الطرق ليلاً ونهاراً^(٢) . وكان التجار — في فترات الظلم — لا يأمنون على
بضائعهم وأموالهم من العدوان الذي يتوقعون نزوله بهم بين الحين والحين .
وقد كان من عادة الفرق العسكرية إذا فتحت بلداً شاركت أهل الحرف
في مكاسبهم ، فيمضي الجندي منهم إلى التاجر ويخلع سلاحه ويعلقه في المحل
ويصبح شريكاً في أرباحه ... حتى ثقل على أهل البلدة هذه الفعلة لتكلفتهم
مالاً ألفوه ولا عرفوه^(٣) . وكان التاجر لا يكاد يستقر في متجره حتى يسمع
الناس يتصايحون ويتسابقون في العدو ، فرعان ما يحسبها فتنة قد شبت
نارها فيبادر باغلاق محله ويلوذ فراراً ... وكثيراً ما كان يتضح له بعد ذلك ألا
فتنة ولا قتال ، فيعود إلى محله فيفتحه^(٤) . وكان الفلاح في قريته معرضاً
لنوع آخر من الفرع والجزع ، كان القضاة والكشاف يحطون عليه ويطالبونه
بدفع الضرائب والأدوات ، فان عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه^(٥)
وأذاقوه العذاب ألواناً وأشكالاً : بالمقارع والكسارات وعصر الرأس
وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم والتعليق
ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس^(٦) وما إلى ذلك من ضروب القسوة
البالغة ، وكان المباشرون — ولا سيما في بداية الفتح — كالمملوك يتصرفون

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٤٩ ، ابن اياس ج ٢ ص ١٥٠ و ١٨٣

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ١٤١ و ١٨٣

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤ (٤) الجبرتي ج ٢ ص ١١٩

(٥) الرافعي في الحركة القومية ج ١ ص ٣٠ (٦) المناقب الكبرى ص ١٢١

في أمور الدولة بما يشاءون « وليس على يدهم يد »^(١) وما كان الولاية والكشاف والأعراب وقطاع الطرق ومناصر اللصوص هم وخدم الذين يلقون بال فلاحين والتجار بين الحين والحين ، فقد كان الأغنياء والفقراء ينزلون بضيافتهم فيبادر هؤلاء بإعداد الطعام الفاخر لهم ، وتهيئة الجو الصالح لضيافتهم ، ويتحملون في سبيل ذلك ما لا قبل لهم باحتماله^(٢) ، بل كان التقصير في أداء هذا الواجب يعتبر عند الناس فضيحة^(٣).

أما المجاورون في الزوايا فقد كانوا — حتى في أغلب فترات الظلم الفادح — في نجاة من هذه الشرور كلها ، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم ويخشون سلطانهم الروحي ، ويؤمنون باتصالهم بالله فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضاء منهم ، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال .

الترف في معيئة أرباب الطريق :

وكان للفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك ، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه ، بل كانوا يعيشون في الزوايا طاعمين كاسين على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله . ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهدة الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش ، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف ، وقد وصف مؤرخو العصر — من الجبرتي وابن اياس والشعراي ومن إليهم — حال المصري تحت الحكم العثماني ، بما ينوء تحت نيره من فاقة وضنك ، ثم وصفوا حال الفقراء في الزوايا وما كانوا ينعمون به من أطايب العيش وسائر مظاهر

(٢) ودع الفقراء من ١ ، ٢ ، ٢٠

(١) ابن اياس ج ٢ ص ١٨١

(٣) البحر المورود ص ٣٠٤

اليسر والهناءة . فظهر خلال وصفهم نوع من التباين يثير الدهشة ويدعو إلى العجب (١) .

سقوط التكليف الديني عن مدعى الولاية :

كان من العوامل التي أدت إلى انتشار التصوف شيوع الرأي القائل بأن الولي يسقط عنه كل ما أمر به ، ويحل له أن يفعل كل ما نهى عن فعله ، والأصل في الرأي أن طائفة من المتصوفة أجازته لمن بلغ الغاية القصوى في الولاية . فرأى طغام الناس أن ادعاء الولاية ينقذهم من تكاليف الدين ، وينجيهم من فروضه وواجباته ، ويتيح لهم التمتع بما حرم عليهم من رذائل وشهوات — وكان طبعياً أن يشيع مثل هذا الرأي بين فاس قد انحلت أخلاقهم في عصر مشابه للذل وتمشي فيه الضنك وساده الفقر ومست الحاجة إلى أسباب الترويح عن النفس — فنزع بعض الناس إلى الهرب من ضغط التقاليد وتضييق الرأي العام على حرية الناس ، بالتماس الحرية في رحاب التصوف ، وإدعاء الولاية التي ترفعهم عن سائر البشر ، وتجعلهم فوق قواعد الدين وأوضاع العرف ومقتضيات التقاليد .

ولعل انحلال الأخلاق في هذا العصر قد ساعد على ادعاء الولاية ، ولا عجب في أن تنحل أخلاق قوم يشتد في نفوسهم التعصب لرسوم الدين وطقوسه ، فان تاريخ الأديان يقول إن عصور الاضمحلال تسودها نزعتان دينيتان متضادتان : نزعة ترمي إلى التشبث برسوم الدين والتزام طقوسه ، ونزعة ترمي إلى التهاون في تنفيذ تعاليمه والاستهتار بقواعده ومبادئه ، وأن هاتين النزعتين تسيران جنباً إلى جنب في العصر الواحد والبلد الواحد والشخص الواحد . ١١ وبهذا وجد انحلال الأخلاق في مصر إلى جانب ما أسلفنا ذكره

(١) انظر في تفصيل ذلك الفصل الثاني من كتابنا عن « الشمراني » . وقد أدى الترف الذي بنعم به المريدون ومن إليهم من مجاوري الزوايا وروادها ، إلى إقبال الناس على امتناق التصوف والانادة من ثمراته .

من تعصب شديد ، وكان من مظاهر هذا الانحلال الخلقي شيوع الزنا وانتشار المخدرات وغيرها من حشيش وخمرة وبوزة^(١) وشيوع الشذوذ الجنسي من عشق المرد والغلمان ، ومن أمثلة النوع الأول ما رواه الشعراني عن طالب علم اعترف له بأنه أحب زوجة شيخه وزنا بها وهي تخادع زوجها وتستغل غفلته^(٢) ١١.. وقد كان هذا الداء شائعا في هذا العصر ، فقد انتشر الزنا بحيلة الجار أو من غاب زوجها ، حتى لم يسلم منه أحد ، ضم أحد المجالس جماعة من أكابر الناس فقال أحدهم من سلم منكم من الوقوع في الزنا فليحلف بالله على ذلك ، فما تجرأ واحد منهم على القسم واعترفوا جميعا بأنهم وقعوا فيه إبان شبابهم^(٣).

ومن أمثلة النوع الثاني ما رواه عبد الغنى النابلسي عن إمام مسجد السناية بيولاقي فقد حضر النابلسي مع زين العابدين البكري + ١١٠٧ صلاة الجمعة بهذا المسجد فأدهشه أن الخطيب كان كثير اللحن في خطبته وصلاته ، وكان زين العابدين كلما سمع لحنه نظر إلى النابلسي وابتسم فظن الإمام أنه معجب به مغتبط بكلامه ، فلما انتهت الصلاة مضى الخطيب إلى زين العابدين في زاوية الكشنية وأخذ يتشفع عنده ، في أن يأخذ له بقية الخطابة لأن له شريكا فيها لا يستحقها ، فأفهمه بعض الحاضرين حقيقة حاله وعرفوه بأن الشيخ كان يتسم لكثرة لحنه في خطبته وصلاته ، فاعتذر بأنه كان غائبا يأكل الحشيشة التي هي مناه ، ثم عدل عن ذلك كله إلى السخرية وأظهر الكلمات المضحكات والاصطلاحات العامية فطرده الحاضرون^(٤) ولو أن تعاظم الحشيش كان اتهاما يشين صاحبه أو يقضى على سمعته ، لالتبس هذا الامام عذرا للحنه غير

(١) كان الأفيون غير شائع بين المصريين وإن شاع بين الأتراك في مصر وقد فشى الحشيش بين المصريين كما يقول كلوث بك في «لحة إلى مصر» ج ٢ ص ٢٥٥

(٢) اليهود المحمدية ص ٢٧٩

(٣) اليهود المحمدية ص ٣٤٧

(٤) عبد الغنى النابلسي : الحقيقة والمجاز + ١٠٧ - ١٠٨

هذا العذر ، والجبرتي وابن إياس خير من يتحدثان من المؤرخين عن انتشار الحشيش والخمر والبوذة والفسق بالنساء والمرد إبان هذا العصر^(١).

والأمثلة على النوع الثالث (الشدوذ الجنسي) كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، فكثيراً ما ترى في كتب التاريخ والتراجم والطبقات أن هذا العالم أو غيره كان يعشق الغلمان سماحه الله^(٢) وقد عرضنا بعض مظاهر هذا النوع من قبل. وليس أدل على شيوع الشدوذ الجنسي بين هؤلاء الناس من دهشة رفاعه بك طبطاوى حين سافر إلى فرنسا لأنه لم يجد هذا الداء منتشرًا بين أهلها. كان انتشاره هو الشيء الطبيعي وغير الطبيعي حقاً ألا يكون شائعاً بين الناس^(٣).

هذا الانحلال في الأخلاق قد ساعد الناس على التهاوت على دخول الطريق وادعاء الولاية ، وعاون على تمهيد السبيل لانتشار الدجل وشيوع الشعوذة ، ولو كانوا على خلق عظيم أو تدين صحيح لكان من المحتمل ، بل من المؤكد أن ينفروا من هذا الادعاء ، ويتساموا بأنفسهم عن تضليل الناس وينبى أن نشير الآن إلى أن العوامل التي أسلفناها لم تكن وليدة العصر العثماني وحده ، فقد قامت في مصر وعظم أمرها قبله ، وازداد خطرهما واستشري داؤها إبان العصر العثماني ، وذلك متفق مع رأينا الذي أعلنه من قبل حين قلنا إن التصوف الذي قام في مصر إبان العصر العثماني ، كان امتداداً طبيعياً للتصوف الذي شاع في مصر قبل ذلك ، وأن الخلاف لم يكن في نوع تياراته بل كان في قوتها أو ضعفها ، وسنزيد هذا الكلام وضوحاً فيما يلي من حديث .

(١) في ابن إياس ج ٣ ص ١٣ ، ٨٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٨٨ ،

١٩٨ أمثلة لتأييد ذلك .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢٧٦

(٣) الذهب الأبريز لرفاعة طبطاوى .

حالة مصر تحت الحكم العثماني :

ساعدت الحالة في مصر تحت الحكم العثماني على نمو التصوف وازدياد انتشاره ، والرغبة في تأييد هذا الرأي لا تمنعنا من التصريح بأن الحالة في هذا العصر كانت فيما نرى امتدادا طبيعيا للحالة قبيله ، وأن الخلاف بينها كان فيما شمل التيارات من قوة أو ضعف . . لا نقول إن الحكم في العصر العثماني قد ساء ، ولكننا نقول إنه ازداد سوءا فترتب على ازدياد سوء فيه نتائج ، كان من أكبرها خطرا ما اتصل بالتصوف وموقف الناس إزاءه ، إذ أدى بهم شعورهم بنمو سوء في الحكم الجديد الى مضاعفة الرغبة في دخول الطريق واعتناق التصوف . . ولكن هذه الآراء كلها أحكام عامة لا يحسن بنا أن نمر بها دون أن نحاول التدليل على صحتها :

إن الشعوب إذا مرضت بالفاقة والجهالة تناسب رضاؤها عن الحكم تناسبا طرديا مع رخاء العيش وصيانة العقائد الدينية في عهدهم ، فالحاكم الذي ينجح في تحقيق اليسر لهم ويصون تقاليدهم الدينية من عبث الاستهتار ، يكون أحب للحكام الى نفوسهم ، وأدناهم الى عواطفهم ، ولو امتن حرياتهم واحتقر كرامتهم وداس كافة حقوقهم وحرمانهم ، فاذا نظرنا الى الحكم العثماني بهذا المنظار وقارناه بالحكم المملوكي في نهايته ، قلنا إن المصريين قد ساء لهم حكم المماليك في أواخره ، ثم ازداد استيائهم في أيام العثمانيين سوءا بالغا ، فلنشرح هذا في إيجاز .

فمن ناحية الحياة الاقتصادية ، اضمحلت ثروة البلاد باكتشاف رأس الرجاء الحسن وتحول التجارة عن مصر ، وخويت خزائن بيت المسلمين في عهد الغوري حتى رشق جامع الضرائب بالحجارة في شوارع القاهرة^(١) وبلغ من شدة العوز أن اختار الأمراء بعد مماته طومان باي ، ليخلفه فامتنع عن قبول

ذلك وألح في الامتناع حتى استعان الأمراء عليه بأحد كبار الأولياء — هو أبو السعود الجارحي — فجمعهم به وجعلهم يقسمون على المصحف أمامه بأن يطيعوه وبهذا تولى «طومان باي» السلطنة على مصر^(١) ولكنهم حشوا بأيامهم وتخاذلوا عن نصرته في رد العدو الزاحف حين أعلن إفلاس الخزانة وعجزها عن مدهم بالمال الذي يتطلبه القتال^(٢) وكان الشعب يشعر بصدى هذا الإفلاس في معيشته .

وأما من حيث الحرص على تقاليد البلاد الدينية فقد عجز الحكم المملوكي عن القيام بهذه المهمة في أواخر أيامه ، فقد كان الناس يجاهرون بارتكاب المعصية ، فاذا حرم عليهم ذلك وحتم على اليهود والنصارى ألا يبيعوا الخمر والبوزة والحشيش ، لم يمثل لأمره أحد منهم ، ولم ينته الناس عما هم فيه — بالغاً ما بلغت القسوة في التهديد بالعقاب^(٣) .

كان طبعياً بعد أن يشعر الناس بعجز الحكم المملوكي عن توفير أسباب الرخاء وصيانة التقاليد الدينية أن يبغضوه ويرغبوا عنه ويميلوا إلى حكم جديد ؛ فاعتبطوا بالحكم الجديد ولا سيما وقد اشتهر أهله بالجهاد الديني ، وذاع عنهم العمل على نشر الاسلام وبسط نفوذه ، ولكن اغتباطهم لم يدم طويلاً ، لأن الحكم الجديد قد أثبت منذ وطئت قدمه أرض مصر أنه أعجز من الحكم القديم عن ارضاء الناس بتوفير اليسر لهم ، وحماية عقائدهم من عبث العابثين ، فمن ناحية الحياة الاقتصادية ، ازدادت أحوال الناس ضيقاً لأن الحكومة الجديدة كان عليها — كما عرفنا في الكلمة التمهيدية للرسالة — أن ترسل للسلطان خراجاً يبلغ الستمائة ألف ريال وهدايا بنحو ستمائة ألف أخرى عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود في مصر وما يتقاضاه الوالي الذي كان يشتري الولاية على مصر بمبلغ يتراوح بين الأربعمئة ألف والخمسمئة ألف

(١) ابن اياس ج ٣ ص ٦٩

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ٨١ — وقد أراد أن يرضاهم بالقليل فرمى في وجهه ص ٨٤

(٣) ابن اياس ج ٣ ص ٨٥

ريال . ولما كان الأتراك يعتبرون مصر مزرعة تدر عليهم المال والخير الوفير فقد كانوا يقصدونها بين الحين والحين لتحقيق لهم مطالبهم ، وقد تباروا في نهبها منذ اليوم الذي وطئوا أرضها ، وقد عرفنا هذا في الفصل التاريخي الذي مهدنا به لهذا الكتاب .

وأما من حيث الحرص على التقاليد الدينية فإن الحكم الجديد قد عجز كذلك عن أداء هذه المهمة ، فكان ينادى بإبطال بيوت الحشيش والخمر والنبيذ والبوزة ويحرم الزنا ويقتل كبريات البغايا من أمثال « أنس » ، ثم يطالب العثمانيون بإعادة ذلك ويتعصبون مصريين على إجابة مطالبهم فلا يلبث ملك الأمراء حتى يستجيب لهم ويقر بأن « أولاد « أنس » لا يعارضون فيما يفعلون من جمع « بنات الخطا » كما كانت تفعل أمهم ^(١) » . وقد عرف الناس هذه الاستهانة منذ استولى « سليم » على البلد ، فقد شاع بينهم أنه حين طلع القلعة رأى خيمة المولد فباعها للبغاربة بأربعمائة دينار ، وباعها هؤلاء قطعا للناس ، مع أن قابتباي قد أفق في صنعها عشرين ومائة ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك حتى كانت من عجائب الدنيا ^(٢) وقد كان العثمانيون في الجملة يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس ، وغالبهم لا يصوم رمضان ولا يقيم في المسجد صلاة - حتى صلاة الجمعة إلا قليلا وكذلك كان أمراؤهم ووزراؤهم كما يقول ابن إياس ^(٣) . وبلغ من عدوانهم على الناس وحرمانهم أن كانوا يخطفون النساء ويفسقون بهن على قارعات الطريق والناس تنظر اليهم وتكظم الغيظ منهم ، وغير ذلك من ضروب الشذوذ الذي كان نادر الحدوث قبل العصر العثماني .

على أن المقارنة التي أسلفناها غير وافية لأنها تشمل فقرتين قصيرتين ، وقد أردناها لتوضح حالة الجمهور النفسية في أواخر العصر المملوكي وأوائل

(١) ابن إياس ص ١٩٧ ، ١٩٨ (٢) ابن إياس ص ١١٢ ، ١١٣

(٣) ابن إياس ص ١٣٤

العثماني ، ولنعرف موقفه من الحكم الجديد على وجه الدقة ، وينبغي أن نقول في معرض المقارنة بين العصرين أن المماليك كانوا يرتقون العرش بحمد السيف ، وأنهم كانوا بحكم مهارتهم في فن الفروسية أقدر على حفظ الأمن والفصل في قضايا الناس من الولاة العثمانيين الذين كانوا يشترون الولاية بالمال ، وكان الفائز بها منهم أقدر جميع الطامعين فيها على ابتياعها ، وأن المماليك كانوا لا يعرفون لأنفسهم وطنا غير مصر حتى كان الكثيرون منهم يفاخر بأنه مصري ، وسماه بعض المؤرخين بالأمراء المصريين ، ولهذا أثره في عطف الحاكم على شعبه ، وكان عصرهم في الجملة أقل ضنكا وفاقا من عصر العثمانيين فان رأس الرجاء ، لم يكن قد كشف بعد ، وكانت التجارة تدر عليهم أموالا طائلة ، ولم تكن هناك دولة أجنبية تطالبهم بالخراج أو الضرائب ، فكان حكم المماليك في الجملة آثر عند المصريين من حكم العثمانيين الذين طغت فرقتهم العسكرية على الحقوق وامتنت الحريات واستهانت بالحرمانات ، وهي المنوطة بحفظ الأمن وصيانة الحقوق ، فكان الفتح الجديد نكبة لا حيلة للمصري حيالها ، فشر بأن الأرض قد خلت من سند ينصره فراح يلتمس العون في رحاب الأخرى وأحس بأنه غير آمن على نفسه وماله وولده ، وأنه لا يملك في الدنيا شيئا نفيسا ولا تافها ، فزهد في الدنيا ومال إلى جنات الآخرة التي يحميها حرس الله ويشرف عليها بعدله ولا تغفل عنها عينه ، وتكتمل الإنسان فيها طمأنينته ، أما ملوك هذه الأرض وطفاتها فسيعرفون يوم الدين كيف تذلل الرقاب العاتية ، وتعلو رؤوس الضعفاء وتشمخ أنوف الفقراء ويتملك من كان بالأمس ذليلا . . .

ومن طبيعة الفقر أن يحمل أهله على الإيمان بالله والاعتقاد في رحمته ، وتاريخ الأديان يقول إن الذين استجابوا للرسالات الأنبياء وخفوا لنصرتهم سراعاً هم الفقراء والمعوزون والمحتاجون ، وقد كان تسعة أعشار الأمبراطورية الرومانية يرزح تحت نير الفاقة فاستجاب للمسيحية حين دعاها الداعي إلى اعتناقها دون تمهل ولا إبطاء . . .

ضاق الجمهور المصري بحاله فلاذ بالدين وزهد في الدنيا ومتاعها ، واشتد ميله إلى المسرفين في الروحية وعظم حبه للزهد والقانعين بالتافه من شتون العيش . فكان المتصوفة في عرفه أقرب إلى الله من الفقهاء - أصحاب الوظائف وأرباب الزلفى عند الحكام - وبهذا ازداد التفافه حول الدراويش وعظم إيمانه بكل من ادعى الولاية وأسرف في التظاهر بالتصوف .

على أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الحكم العثماني في مصر قد صلح حاله بعد بداية الفتح ، ولكن ذلك - على فرض صحته - لا يغير من رأينا كثيراً ولا قليلاً ، فإن الاضطراب الذي صاحب الفتح في بدايته ، قد ساعد على اطراد نمو الدروشة واستمرار انتشارها ، فكان غير طبعي أن يرتد هذا التيار الجارف بعد حين ، وإذا كان علماء المنطق يقولون إن الحكم إذا ثبت بعلّة فالقياس أن يزول بزوالها ، فإن علماء الاجتماع ليعرفون بطلان هذا الحكم عندما يطبقونه على الكثير من الظواهر الاجتماعية ، فكثيراً ما تصادفهم ظاهرة من الظواهر ، ويعرفون العلل التي أوجدتها ووجهتها في تبارها ، ثم يرون أن العلل التي كانت السبب في وجودها قد تلاشت واختفت ، ولكن الظاهرة التي نجمت عنها ما لبثت سائرة في مجراها ماضية في تيارها لا ترتد عن طريقها حتى يدركها الضعف فيوهن من سيرها وينتهي بها الوهن إلى الزوال ، فهي تسير مدفوعة بالقصور الذاتي . . . وقد يستغرق هذا الانحلال من الزمن أجيالاً طويلاً ثم بعد زوال العلل التي أدت إلى وجود هذه الظاهرة . . .

هب الأتراك للدروشة :

كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم ، ولئن كان الولاة قد قربوا العلماء واعتمدوا عليهم بعض الاعتماد فيما يتصل بالشعب من شتون الحكم ، فذلك لأنهم أوفر علماً من أرباب الطريق .

فأما موقف الحكام العثمانيين وجنودهم من المتصوفة فقد أعلنه الجبرتي عندما عرض للكلام على عمارة التكية المجاورة للقصر العيني المعروفة بتكية البكتاشية ، إذ قال إن الذي قام بتجديدها بعد خرابها رجل من الدراويش قابل حسنى باشا وهو في هيئة الدراويش وطلب إليه العون فاستجاب لمطلبه وساعده على تعميرها من رشوات مناصب المكوس التي توسط لأربابها هذا الباشا ، وقال الجبرتي إن الذي حمله على هذه المساعدة أن الأتراك « يملون لذلك النوع — أى الدراويش — فصار صاحب الخائفاء من أخصائه لأنه من أهل عقيدته » (١).

والمعروف أن الجنود على شجاعتهم في ميدان الوغى يستعبدون سلطان الأولياء الروحي ، فيؤمنون بالأساطير والخرافات ، لأن القتال شدة تحمل صاحبها على الاعتقاد في الله والإيمان بما وراء المادة ، وقد كان الجند في مصر على هذه الحال . روى المناوي في ترجمة ابراهيم الكلثني المعجمي الذي دخل مصر في دولة بنى عثمان ، ومات سنة أربعين وتسعمائة . أن الجند تهاقوا عليه وعظم اعتقادهم فيه حتى صاروا يقتلون على شرب الماء الذي بقي من غسيله في الحمام .. وقد خافت الدولة من سلطانه وخشيت من تفكيره في الاستيلاء على مصر وأخذها من يد السلطان فقررت نفيه إلى بلاد الروم مدة من الزمان . فلما عاد إلى مصر طرد أغلب الجنود عنه امثالاً لأمر السلطان (٢) .. وقد بلغ من تهاقت الجند على الطريق أن كان بعضهم يأخذ هذه الحال فيجذب ويصبح فاذا هو ولي من أولياء الله « وفرح » المجذوب أصدق مثال لهؤلاء (٣) وقد روى المحبي في ترجمة محمد المرزناقي ١٠١٤ أنه اشتهر بالتعويذات فراج حاله عند الأروام « بسبب اعتقاد المتقدمين منهم ونال بسبب ذلك وظائف ومعاليم كثيرة » (٤).

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٤ (٢) الكواكب الدرية للمناوي ص ٤٧٢ ب
(٣) الكواكب الدرية للمناوي ص ٥٠٩ ب (٤) خلاصة الأثر للمحبي ج ٤ ص ١٥٨

وقد روى المحبى والنابلسى فى ترجمة شاهين الدمرداش + ٩٥٤ أن نواب مصر وأمرائها كانوا شديدي الاعتقاد فى ولايته^(١) وأنهم كانوا يلتصقون تقبيل يده فلا يلتفت اليهم ولا يعبا بهم^(٢).

وقد رويانا الكثير من أمثال هذه الحوادث من قبل، وكلها تشهد بمدى اعتقاد الحكام العثمانيين فى أرباب الطريق، وليس ينفي هذا أن حكام مصر قبل العصر العثمانى كانوا — فى الأغلب — أتراكا، فالفارق كبير بين تركى يعين فى الآستانة حاكما لمصر ويفد عليها تركى العقل والروح واللسان، وتركى يفد على مصر مملوكا صغيرا فيتأقلم فى أرضها ويعيش فى جوها ويتعلم لغتها ويصبح تركيا فى أصله مصريا فى روحه وعقله ولسانه.

وليس من شك فى أن وجود العثمانيين حكاما لمصر قد شجع الكثيرين من دراويش الأتراك على الهجرة إليها والإقامة فى أرضها، ولسنا نعرف على وجه الدقة متى تكونت فى مصر الفرق التى تنحدر من أصل تركى، ولكننا نستطيع أن نقول إن الحكم العثمانى فى مصر لم يكن معدوم الأثر فى التصوف وطرقه ..

أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى انتشار التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، وهى تخفينا عن السبب الذى التمسه الأستاذ د. لين، وأشرنا إليه فى مستهل الحديث عن هذا الموضوع، لأن الطبيعة البشرية واحدة فى أصلها، وإن كان من المسلم به أنها تختلف باختلاف الزمان والمكان، وهى فى كل حالاتها تتأثر بالبيئة التى تعيش فيها، وتتغير بتغير هذه البيئة — اجتماعية وجغرافية معا .. فن الخطأ أن يقال بعد هذا إن الشعوب تختلف فى طبقاتها وتتفاوت فى الفطرى من ميولها ونزعاتها ..

حسبنا هذا من أسباب انتشار التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى، ولنعرض بعد هذا إلى الإبانة عن الحملات التى كابدها شيوخ الطريق لنعرف أثرها فى دولتهم التى تحدثنا عنها فى هذا الفصل :

(١) الحقيقة والحجار للنابلسى ص ١٠٠ ب (٢) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢٥٤

الفصل الثاني

١ - الإنكار على أرباب الطريق

حالات الناس : موقف المنكرين من الجنود والحكام
— النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق — الحقد في
صدور العلماء — بعض مظاهر العملية — التناسب
الطردى بين حقد الفقهاء وعلم أرباب الطريق —
بعض مظاهر الحقد النظرية — تصوف الفقهاء الذين
اتصروا لمشايخ الطرق — بعض مظاهر حب الفقهاء
لأهل التصوف — موقف المتصوفة من الفقهاء —
استمرار النزاع إلى اليوم — حالات أرباب الطريق
على إخوانهم في الطريق — بعض مظاهر المقاومة
العملية ضد — بعض مظاهر المقاومة النظرية .

أبنا فيما أسلفنا كيف كان الفقراء دولة داخل الدولة ، يميزهم عن سائر
الناس عرف وقانون ودين .. وعرفنا شيئا عن واسع النفوذ الذي تهيأ لهم
عند شتى الطبقات ، وكفل لهم السيادة على جميع الهيئات ، وأذل أمامهم
جبابرة وطغاة كانوا لا يعرفون في الحياة الدنيا مذلة ولا هوانا ، وهيا لهم
استعباد الاتباع استعبادا يقره الدين لخير الله على عباده .. ولكن هذا
السلطان الواسع النطاق المبسوط الرحاب كان كثيرا ما يصادف المنكرين له
الساخرين بأهله ، وقد كان ذلك طبيعيا في شعب يكثر دجالوه وتفشوشعوذتهم ،
ويظهر فيه الأدعياء سافرين من غير حجاب ، لا يقنعون بالاعتداء على
الحريات ، والعدوان على الحرمات ، بل يستمرثون العيش على حساب الأغنياء
والفقراء معا ، ولا يتورعون عن الظهور بمظهر الحياة المترفة أمام الناس كما
أبنا فيما سلف . وإن كان علينا أن نسارع بعد هذا إلى التصريح بأن

المنكرين وإن كانوا كثيرين — فيما نظن — فإن سلطانهم كان ضعيفا وجرأنهم على مقاومة هذا الضلال كانت كسيحة تعوزها القدرة على النهوض والحركة . ولعل هذا كان ما أغرى الدجالين بالظهور أمام الناس سافرين لا يستردجلهم حجاب ، ولا يوارى استهتارهم بالدين والعرف نقاب ...

ومن الدلائل الشاهدة بظهور المنكرين في هذا العصر ، أن أرباب الطريق فيه قد أكثروا من الدعوة إلى احترام التصوف والتحذير من الإنكار على أهله ، وقد حفلت كتبهم بالإلحاح في الدعوة إلى التصديق بالكرامات والتسليم بمزاعم الأولياء ، والإسراف في تصوير المصير السيء الذى ينتظر المنكرين ومن سار سيرتهم .. وهذا كله عميق الدلالة على أن دولة الفقراء كانت مهددة بضروب من المعاول تحاول هدمها وتسمى إلى تحطيمها — وإن كانت المعاول ضعيفة لا تقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق الوعر كما أشرنا الآن .

وكان الذين يحملون معاول الهدم في أيديهم فئات من : (١) الناس (٢) والجنود والحكام (٣) والفقهاء وحملة الشريعة (٤) بل أهل الطريق كذلك . فلتناول مظاهر هذا التهجم على دولة الفقراء مظهرا بعد مظهر .

مجموعت الناس :

حسبنا عن حملات الناس ما تشهد به النصوص التى وردت متناثرة في آثار أهل العصر ، فمن ذلك قول الشعرائى عن أدعياء الطريق من الدجالين : « وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم ما دريتم ما جرى — فلان الآخر عمل شيئا ... إكأنهم لا يسلون له بما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهوتها والتلذذ بمطامعها وملبسها ومناكحها والسعى على تحصيلها حتى أنى قلت لبعض التجار لم لا تجتمع بالشيخ الفلانى . ؟ فقال : إن كان الشيخ شيئا فأنا الآخر شيخ ، فانه يحب الدنيا كما أحبها ويسعى في تحصيلها كما أسعى ، بل هو أشد منى سعى على الدنيا لأنه يسافر الى الروم (بلاد الترك) في طلبها وأنا لم أسافر وربما أكل الدنيا بصلاحه وأنا لم آكلها بصلاحي فأنا أحسن منه حالا ،

فأردت أن أجيب عنه فرأيت الحس يكذبني ،^(١) ويقول في كتاب آخر ، وقع لبعض المغفلين أنه جهز بنته فاحتاج الى طرحة ولحاف وليس معه مال فأتى التاجر بكيس فيه شعر من رأس شيخه رهنا على الثمن ، فسخر به التاجر وقال له : لو أتيتني بأردب من شعر شيخك ما أخذته بمجديد . فكث أهل السوق يضحكون على ذلك ويسخرون به مدة طويلة ،^(٢) .

وفي كتب المناوى والمحبي والشعراني والجبرتي كثير من الحوادث التي تشهد بوجوب هذا الانكار عند كثير من الناس ، فمن ذلك ما يرويه المناوى والشعراني عن ابراهيم عصفير + ٩٤٢ من أنه كان ينام مع النصارى فلما سئل في ذلك قال : نمت مرة بجامع الأزهر فسرقوا عمامتي ونعلى ولى عشر سنين أنام عند الرهبان ما سرقوا لى شيئاً . ١ ، مع أنه كان كثير العطب لمن يؤذيه كما يقول مترجمو حياته^(٣) ١٠٠ .

وروى المحبي ، عن ابراهيم النبتى ، — من أهل القرن الحادى عشر الهجرى — أنه أقام بجامع اسكندر باشا نحو عشرين عاما كان الناس طوا لها يستخفون به ويتناولونه بالسب والتهزى ، حتى كان بعضهم يطرده من المسجد مخافة أن يلوثة بقذارته^(٤) .

وقد صور الجبرتي موقف الناس من مدعى الولاية عند ترجمة على البكرى + ١٢٠٧ والمرأة التى لازمته فقال : وإذا جلس الشيخ فى مكان وقف الجميع وازدحم الناس للفرجة عليه وتصعد المرأة على دكان أو علوة وتتكلم بفاحش القول ساعة بالعربى وساعة بالتركى والناس تنصت لها ويقبلون يدها ويتبركون بها وبعضهم يضحك ومنهم من يقول (ساخرا) : الله الله . وبعضهم يقول

(١) قواعد الصوفية ص ٢ (٢) لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٦
(٣) الكواكب الدرية ٤٧٢ ، الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٢ ، تكميل النور
الساخر ص ٤١٣ ، الخطط التوفيقية ج ٦ ص ١٧
(٤) المحبى : خلاصة الأثر ج ١ ص ٦٢

دستور يا أسيادى وبعضهم يقول لا تعرض بشئ^(١) .
هذا بعض ما كان يقع من الناس بصدد الإنكار على هؤلاء الأدعياء.

موقف المنكرين من الجنود والمخاطم :

أشرنا من قبل الى اعتقاد الجنود فى ما وراء الواقع وإيمانهم بالله تعالى وأوليائه ، بيد أن المنكرين للولاية قد ظهروا بينهم وكانوا قساة الأكباد مع من لا تعجبهم ولايته . وكثيرا ما أدى إنكارهم له الى ضربه أو قتله دون اكتراث ولا اهتمام .

روى الجبرتي عن على البكرى السالف الذكر أنه مر بموكبه بمنزل جندى اسمه جعفر كاشف فقبض على الشيخ وأدخله الى داره ومعه المرأة وباقي المجاذيب وأطلعهم وطردهم الناس عنه ثم أطلق سراحه أما المرأة والمجاذيب الآخرون فقد أثنهم طعنا وأمطرهم ضربا حتى طير الولاية من رؤوسهم وردهم الى الرشد فاستغاثوا معلنين التوبة فأطلقهم الى حال سبيلهم إلا المرأة فانه أرسلها الى المارستان مع المجانين^(٢) .

وروى عن العليمي + ١١١٠ هـ أحد الأدعياء أن الناس كانوا يحسنون الاعتقاد فى ولايته ويجتمع عنده النساء والرجال وتنشأ عن اختلاطهم مفسد عظيمة ، فاستاء الجنود لذلك وانطلقوا اليه وانهاهوا عليه بسيوفهم حتى أجهزوا عليه ، وقد قال فيه حسن الحجازى شاعر العصر نظما جاء فيه :

ونساء مع رجال جالسات بالبدية
سلط الله عليه بعد هذا حاكميه
قتلوه مع ثلاث بحسام صالتيه
طول ليل ونهار أجل فسق تبتغيه
لثلاث بعد عشر من جماد الثانى فيه
وكفى الله البرايا شره مع تابعيه^(٣)

وإننا لننلس الاستهتار بدعوى الزلفى الى الله فى عبد الرحمن كتخدا ، الذى

ذبح عنزة كان يدعى كبير خدام المشهد النفيسى أن السيدة أوصت بها خيرا حتى كانت تأتى الكرامات أحيانا مما أدى بالنساء الى أن يعتقدن فيها ويرسلن اليها القلائد الذهبية والأطواق والحلى والفسق واللوز وماء الورد والسكر المكرر وغير ذلك . . فدعى الأمير صاحب العنزة اليه وأدخلها الى زوجته بقصد التيمن بها ثم أمر بذبحها وإطعام صاحبها من لحمها دون أن يعرف - ثم أعلمه بعد الطعام بنبتها وأمره بالانصراف بعد توبيخه على أن يضع جلد العنزة على عمامته ويزفه طوال الطريق أصحاب الطبول والأشار على نحو ما يقول الجبرتي في حوادث سنة ١١٧٢ (١) .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة ، وكلها تنبئ عن قيام الإنكار في نفوس بعض الجنود والحكام .

النزاع بين أهل الفقه وأرباب الطريق

المقدّم في صدور الفقهاء :

تولى الصدارة بين الناس في هذا العصر حملة الشريعة وأرباب الطريق ، ورغم ما كان بين الطائفتين من خلاف في وجوه النظر فقد كان الدين سبيلهما إلى ارتقاء الزعامة ، ولهذا كان طبيعيا أن يثور في صدور كليهما الحسد والضغينة والبغضاء وأن يقوم بينهما النزاع للذود عن الدين حيناً ولحيازة السلطة أحيانا . وقد اتخذ النزاع بين العلماء والمتصوفة في العصر العثماني مظهرين عنيفين : مظهر المقاومة الفعلية التي اتخذت صورة الضغينة والضرب والقتل وما يشبه ذلك ومظهر المقاومة النظرية بتأليف الرسائل يحملون بها على مسلك خصومهم في لهجة تتراوح بين العنف واللين . فلتتناول المظهرين في إيجاز مبتدئين بالحقد الذي ربض في صدور الفقهاء .

بعض مظاهر المقاومة العملية :

كان العلماء في الكثير من هجماتهم قساة غلاظ الأكباد يتخطون أوامر

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٤

الدين ونواهيہ بدعوى الحرص على قواعده وتعاليمه ، فكثيرا ما كانوا يقتصون من خصومهم بالتكيل بهم أو تدبير المؤامرات التى تودى بحياتهم مدعين بأنهم يحمون الدين من شرهم — وكان اتصاف الرجل بالتصوف — ولو قام تصوفه عن فقه بالدين — كفيلا فى أكثر الاحايين ييغض العلماء له وقسوتهم فى معاملته وسعيهم للتكيل به ، وتاريخ التصوف فى هذا العصر حافل بالمآسى التى تشهد بالتعصب الدينى وتنتطق بضيق العقول وكدر النفوس ، ومن أفضع هذه المآسى اغتيال « عبد الرؤوف المناوى » + ١٣٠٣ هـ رغم ما كان عليه من علم أدى الى إعجاب الكثيرين من الفقهاء به :

روى « المحبى » ، أن « المناوى » ، اعتزل الناس واعتكف لدراسة الدين والتبحر فيه ثم ظهر لهم فأنكروا عليه علمه ، ولما تولى التدريس فى المدرسة الصالحية برم بذلك العلماء لأن التدريس فيها كان وقفا على أكبر علما الشافعية — وهو شيخ الجامع الأزهر فى العادة كما يقول الجبرتى^(١) — وهالهم إعطا هذا المنصب لرجل لا يعرفون عنه إلا أنه من أهل التصوف . فلما حضر الدرس أقبل عليه البارزون من شيوخ المذاهب وتأهبوا لانتقاده ، ولكنه شرع فى أقراء مختصر المزنى ونصب الجدل فى المذاهب وأتى فى تقريره بما لم يسبقه إليه أحد . فاضطر الذين حضروا درسه إلى الإعجاب به والثناء عليه ، وأخذ أجلاء العلماء يبادرون لحضوره ويفيدون منه ، وقد انتفع به جمهور كبير منهم ، ولكنه كان معروفا بالتصوف وكان صاحب زاوية بخط المقسم بين زاويتى « أحمد الزاهد » ، ومدين الأشموني . فأثار هذا الضغينة فى نفوس حساده وفسدوا له السم « وتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى ، ولما عجز صار ولده تاج الدين محمد يستمل منه التأليف ويسطرها ، حتى مات عام ١٠٣١ ودفن بزاويته^(٢) .

اغتيال الفقهاء المناوى وحاول سلفهم أن يمثلوا المأساة مع عبد الوهاب الشعرانى + ٩٧٣ فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى التكيل به والتشهير باسمه^(٣) ،

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٥٩ (٢) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤١٢

(٣) البوائيت ج ١ ص

وكان الشعراني عالماً من خيرة علماء عصره غزير المادة وحب الاطلاع واسع
الحيلة ملماً بمختلف آفاق الدين على نحو ما كان يفهم معاصروه ، وقد شهد له بذلك
كثير من حملة الشريعة وكان صاحب زاوية كبيرة تضم مائتين من مريديه وأتباعه .
فتكفل هذا الاتهام ببعض العلماء له وسعيهم لتشويه سمعته ، وقد حاولوا نفيه من
البلاد بعد أن عز قتلته وإراحة الناس من شره ... وقد كان الشعراني في كافة كتبه
يحتم على الفقراء التفقه في الدين والتبحر في شئونه ، واعتبر الفقه مقدمة للتصوف
وحاول التوفيق بين التصوف والفقه ووقف على هذه الغاية بعض مؤلفاته
- كالبرقيات والجواهر - ومع ذلك فقد كان له من حملة الشريعة حزب
بناوثة وينفس عليه نفوذه وشهرته ، وحزب آخر ينتصر له ويروج لتعاليمه ،
وقد ظهر هذان الحزبان في فتنة أثارها عليه في الجامع الأزهر في مصر
والحجاز خصومه وحساده .

ثم سكنت الفتنة وخبت نارها ولكن الضغينة ما زالت رابضة في صدور
خصومه من الأزهريين تتمثل في وجوههم العابسة المقطبة كلما مر بهم هذا
الخصم الذي يهدد الدين بالخطر .. وقد أقاموا على بغضه طيلة حياته وتولوه
بالنظرات الشذراء كلما صافحته أبصارهم كأنما كانوا على السنة وهو على البدعة
وربما كان العكس هو الصحيح كما يقول بل لقد سعى بعضهم إلى قتله مرات
كثيرة وتمنى غيرهم لو نجح مسعاه في نفيه من مصر وكثيراً ما أدى الحقد
ببعض حساده إلى رميه بالجبل في الشريعة والحقيقة معا^(١).

الناسب الطردى بين مقر الفقهاء وعلم أرباب الطريق :

وعلام هذه الضغينة كلها ؟ لقد كان الشعراني لا يكتب كتاباً إلا أعلن
فيه التزامه للكتاب والسنة وبراءته من المارقين من الدين الذين يظنون أن
الحقيقة شيء والشريعة شيء آخر ، وما أكثر الكتب التي حفلت صفحاتها

(١) اقرأ تفصيل ذلك في كتابنا « الشعراني » في الفصل الأول من الباب الثاني .

بشرح مذهبه في هذا الصدد. ^(١) لا بل لقد كان الفقهاء على حق في مناهضة هذا الرجل وأمثاله ممن يدعون الالتزام بظاهر الشرع ولا يلبثون حتى ينقضوا ما أسلفوه بنصوص أخرى تكشف عن نياتهم . ولهذا كان الحق الذي يحمله الفقهاء لأهل التصوف يتناسب في قوته وعنفه تناسبا طرديا مع علم المتصوفة عكسيا مع جهلهم - فالمتتبع لحركات النزاع بين الطائفتين ومظاهر العدوان والتحدى يرى أن المتصوفة الذين نادوا بدراسة العلم وحثوا على الفقراء التبحر في الدين قد نالهم من أذى الفقهاء وعدوانهم فوق ما نال دعاة الجهل وأنصاف الأميين من أهل التصوف . وإذا قارنا موقف العلما من المناوي والشعراني بموقفهم من محمد كريم الدين الخلوتي + ٩٨٦ ، وعلى البيومي + ١١٨٣ هـ عرفنا مبلغ الصدق فيما نقول . كان الخلوتي يمثل دعاة الجهل من أهل التصوف خير تمثيل . وقد كان حريصاً على جهله وفراره من معرفة الدين وأحكامه واعتقاد مريديه الذين تضج بهم زاويته في سلامة مبدئه وسخريتهم من شيوخ الطريق المتبحرين في فهم الدين . ولكن كل ما نعرفه عن أذى الفقهاء له لا يتجاوز ما رواه المناوي في ترجمته حين قال إنه لم يسلم من مناوأة طائفة من الفقهاء سنة الله في الدين ، وأن فقيه الشافعية شمس الدين الخطيب الشربيني قد أنكر عليه في حياته الابتداء بالجلالة في الذكر وقال إنه مبتدأ ولا بد لكل مبتدأ من خبر فوضع الخلوتي في الرد عليه رسالة صغيرة حاصلها أن القوم ما زالوا على هذا المنوال وأن الخبر محذوف تقديره المعبود والمطلوب أو الموجود ^(٢) وقال فيها إن الذكر على هذه الطريقة يؤدي إلى الفتح في باطن الذاكر ويؤتيه من نور الكشف ما لا تنتجه عبر ^(٣) .

(١) مثل الجواهر والدرر ص ١٧٢ - ١٧٣ ، قواعد الصوفية ص ١٧٧ و ٢٣٤ ، درر الخواص ص ٥٦ ، البحر المورود ص ٣٤٧ ، ارشاد الطالبين ص ٦٧ ، لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢ ، اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٢ و ٣ و ٢٣ ، ج ٢ ص ١١٥ ، وفي غير هذه الكتب .
(٢) السكواكب الدرية ص ٢٠ . (٣) رد المتوقف بلا محالة .

ويمثل على اليومى أنصاف الأميين ، رغم أن الجبرتي يروى في الدلالة على علمه موقفا شبيها كل الشبه بالموقف الذى يرويه المحبى ، للدلالة على سعة العلم عند المناوى فان الفقهاء قد ثاروا عليه وعلى جماعته ، كما ستوضح ذلك الآن ، فلما قام بالتدريس فى الطيرسية أفحهم ودهشهم ولجم الثائرين منهم - كما فعل المناوى تماما - ولكن الفارق بينهما فيما يبدو أن كتب المناوى تنبىء عن سعة علم وغزارة مادة ، وكتب اليومى تنطق بالجهل وضيق النظر ، ولعل قدرته على إقناع العلماء فى دروسه مردها إلى طلاقة فى اللسان ومهارة فى التعبير ووضوح فى الشخصية - والظاهر أنه قد أوتى هذه المواهب كلها وإنما هى التى جعلت المجرمين والعصاة وقطاع الطرق يتهافون عليه ويترامون على قدميه ويطلبون المغفرة على يديه ويحتملون ما يسومهم به من عذاب كما أشرنا من قبل .

وكان من عادة هذا الرجل ، أن يعقد مجلسا للذكر كل ثلاثاء فى محن المشهد الحسينى . وكان أكثر أتباعه يدخلون المسجد حفاة الأقدام فيلوثرنه ، وكانوا يرفعون بالذكر أصواتهم فيزعجون المصلين وغيرهم . ولكننا لانعرف من ضروب العدوان الذى أوقعه به العلماء إلا ما رواه الجبرتي من أمر المقاومة التى أرادوا بها منع جماعته من تلويث المسجد والتشويش على المصلين ^(١) . فالأذى الذى أصاب دعاة الجهل وأنصاف الأميين من أهل التصوف ، قد اتخذ صورة المقاومة ولم يرتفع قط إلى مرتبة العدوان الذى ينتهى بالقتل والنفى والتنكيل كما كان الحال مع العلماء من أهل التصوف .

وليس ينفي هذا الظن الذى رجحناه ماسية العلماء لجملة الفقراء من أذى على يد نابليون ، فقد روى الجبرتي أن نابليون بعد دخوله مصر سأل العلماء فى شعبان من سنة ١٢١٥ عن الفقراء الذين يدورون فى الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصرخون ويدعون الولاية ويعتقدون العوام ولا يعملون صلاة

المسلمين ولا يصومون صيامهم واستفسر عن جواز مسلكتهم في الدين الاسلامي
أو حرمة . فأجاب الفقهاء قائلين إن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا
وسنتنا ، فشكرهم نابليون على ذلك وأمر رجال الإدارة بمنع هؤلاء الفقراء
والقبض على من يلتزم مسلكتهم فإن كان مجنوناً ربط بالمارستان وإن كان كامل
الرشد نفي من البلد إن أبي تغيير مسلكه^(١).

والظن الذي رجحناه لا تنفيه هذه الفتوى التي رد بها الفقهاء على سؤال
نابليون ، لأننا لم تنف المقاومة من جانب العلماء إذا توفر الجهل في أرباب
الطريق ، وإنما قلنا إن العدوان كان يتناسب في عنفه طردياً مع علم المتصوفة
عكسياً مع جهلهم .

وسنعرف أن المقاومة النظرية كانت تظهر في صورة الكتب والرسائل
يضعها الفقهاء في مهاجمة الجبهة من الفقراء . ولم يعن العلماء — فيما نعلم —
بوضع كتب وتأليف رسائل يردون بها على التعاليم التي كان ينشرها المستنيرون
من أهل التصوف وإنما اهتموا بتدبير المؤامرات التي تفقد السمة الطيبة
وتفرض الناس من حولهم إذا لم تنته بقتلهم وإراحة البلاد من شرهم ..

ولعل السر في هذا التناسب الطردى بين علم المتصوفة وكراهية العلماء
أن الفقهاء قد لاحظوا أن العلماء من أهل التصوف أكثر خطراً على نفوذهم
عند الناس والحكام من جهة أرباب الطريق ، لأنهم يتساوون مع العلماء أمام
الجمهور في سعة العلم وفهم الدين ثم يزيدون عليهم هذا التصوف الحبيب إلى
نفوس الناس ، وفي هذا الامتياز ما يمد لهم سبيل الانتصار على الفقهاء
في اكتساب النفوذ عند طبقات الشعب وهيئات الحكام ..

أو لعل السر في هذا التناسب الطردى أن العارفين بالدين من أهل التصوف
أخطر على عقائد الناس من جهالهم وسنوضح هذا بعد .

بعضه مظاهر الحق النظرية :

قلنا في مقدمة هذا الكتاب إن هذا العصر كان عصر الشروح والخواشي وإن العلماء كانوا يتناولون المتن الذي وضع من قبل فيضعون له الشروح والتعليقات ثم يأتي بعدهم من يتولى شروحيهم بالشرح والتعليق ، فبدأ ركود في الحركة الفكرية وقلة في المؤلفات مع كثرة الخواشي والشروح ، وكان طبعيا بعد هذا أن تقل الكتب التي يضعها الفقهاء في الرد على ما يروونه في سلوك المتصوفة من خروج على قواعد الدين وتعاليمه ، وأن تكون هذه الكتب - في الأغلب والأعم - رسائل صغيرة حافلة بضروب السباب وألوان الشتائم محشوة بأقوال في الدين يقتبسها المؤلفون من كتب السلف ، وقل منها ما دل على فكر مبتكر أو سداد نظر لم يستعره صاحبه من الأغيار . والظاهر أن واضعي هذه الرسائل كانوا أصنافا ثلاثة : أولها الفقهاء الخالص وقد كانت رسائلهم تنضح بالحق وتفيض بالضعيفة وتنهال على الخصوم بالسباب والتهم ، ويمثل هؤلاء الشيخ علي الصعيدي العدوي وغيره من العلماء الذين نالوا من المتصوفة كل منال وأخفوا عن القراء أسماءهم كما سنعرف بعد قليل .

وثاني الصنفين : العلماء الذين أشربوا بروح التصوف - فيما يلوح لنا - وقد كانوا في الأغلب والأعم أميل إلى نصرة المتصوفة ورد التهم التي كانت توجه إليهم فكانت رسائلهم مشبعة بروح اللين والعطف . وثالث الأصناف المتصوفة الذين كانوا متفقيين في الدين . وقد كانوا فريقين : قام أحدهما بالدفاع عن أهل التصوف ورد التهم التي كانت تنهال على رموسهم ويمثل هذا الفريق : السيد محمد البكري ، + ٩٤٤ - وتولى الفريق الثاني الفقراء بالطعن واشتد في حسابهم وكان أقسى عليهم من خلص العلماء القساة - كما سنعرف بعد - ويمثل هؤلاء الشعرا نى + ٩٧٣ . ولا بأس من أن نزيد هذا الكلام وضوحا .

(١) كتب الشيخ الصعیدی سنة ١١٩٧ للهجرة فتوى على سؤال وجه إليه بصدد طريقة الذكر عند طائفة المطاوعة التي عرفنا عن فقرائها أنهم يتخذون المغنين والأعلام والطبول والتقباء والسبح الكبيرة والملاحف والسراويل يضعها الغلمان الذين يجلسون خلف الذاكرين فوق رؤوسهم أو يمسكون بها ظهورهم . . . وغير ذلك من ضروب البدع عند فقراء المطاوعة (١).

فاستهل الشيخ الصعیدی فتواه باقتباس فقرة من رد المشايخ يوسف الزرقاني (المالكي) وعامر الشبراوي (الشافعي) وأمين الدين (الحنفي) على مثل هذا السؤال إذ قالوا : رقصهم نقص وسماعهم سفاهة وتواجدهم خفة من الرأس والقائل منهم هذا عن رسول الله كاذب في ذلك ويتبوأ مقعده من النار ويعزر على إفتائه بغير علم . ويمنعون من الاختلاء بالمرء ومن مسهم ، ويثاب ولي الأمر على زجرهم ، وعقب على ذلك بذكر ما رواه مالك في تحريم الغناء ، والجنيد في كره السماع ووصف اتخاذ الغلمان بأنه ضلال مبين وقال إن مسهم دبر الولد وإباحتهم ذلك ودعواهم بالأجناح عليهم في غير فعل الفاحشة كفر لا ريب فيه ، وحرم اتخاذ الرايات من الحرير وغيره لأنهم يخدعون به الناس ويوهمونهم بأنهم فقراء ليتمكنوا من أكل أموالهم بالباطل والاستمرار في أخذ العوائد ، من البلاد ومرضاة الناس عن مبيتهم في بيوتهم وتحمل نفقات ذلك ولو أدى بهم الأمر إلى الاستدانة من غير المعوزين ، ووصف هذا بأنه ظلم مبين ، وحرم الضرب على الكأس . . . إلى أن قال لهم في لهجة المغيظ المحقق « وأتم معشر المطاوعة احتوى عليكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزيف لكم ما أنتم عليه من القبائح التي لا يقول بها إمام من الأئمة . . » ثم حمل عليهم في اتخاذ الأولاد الملاحف والسراويل وقال إنه سفاهة وقلة أدب وطلب شهرة والنبي يقول « ومن لبس ثوب شهرة كساه الله يوم القيامة ثوب ذل وصغار ثم أشعل عليه نارا » وأدخل في ثوب الشهرة اتخاذهم السيوف

من الخشب والمزاريق من الجريد والطواقي من السعف والطرطير التي يضعون عليها أنواع الريش والخرق الملونة والأباريق الملامى بالماء والسبح الكبيرة... ووصف دوران الغلمان على الذاكرين واحتضانهم من الخلف بأنه ضلال يسوله لهم الشيطان وأورد من الفضائح ما ينبئ عن بغضه الدفين لهم ورغبته الملحة في التشهير بهم والانتقام منهم على نحو ما نرى في فتواه (١).

ومن الرسائل التي هاجم بها العلماء أهل التصوف هجوما لا رفق فيه ولا هوادة — دون أن يعلنوا للقارىء أسماءهم — رسالة باسم الصاعقة المحرقة كتبها أحد العلماء سنة ١١٠٥ هـ في الفقراء الذين اتخذوا الرقص واللعب دينا وخططوهم بالعبادة، وراحوا في حلقات الذكر يدورون مركبين أيديهم إلى وراء وقدامهم وسهم بالتصعيد والنسfil والتلوي، على هيئة معروفة في لعبه (ركض الديك) عند النصارى كما يقول المؤلف. والرسالة فياضة بالحق والصفية والموجدة. ولعل الذي حمل هذا الصنف من العلماء على إخفاء اسمه، الخوف من أذى أرباب الطريق وأتباعهم (٢).

وهذان مثالان للمقاومة النظرية عند العلماء الخالص، نرى منهما بعض مظاهر البغض الرابض في الصدور والحق الجاثم في القلوب.

(٢) ويمثل طائفة العلماء الذين يكتبون عن المتصوفة بروح مشبعة بالعطف واللين، أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوح الشهير بابن النجار (الحنبلي) وناصر الدين اللقاني (المالكي) وشهاب الدين أحمد بن يونس (الحنفي) وشهاب الدين الرملي (الشافعي) وقد كان هؤلاء الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة خير من انتصر للشعراني في محتته التي عرضنا لها من

(١) فتوى الشيخ علي الصعيدي في فقراء المطاوعة وأحوالهم (مخطوط).

(٢) وقعت في يدى نسخة أخرى لهذه الرسالة — بعد كتابة هذا — ذكر فيها اسم المؤلف وهو محمد بن الدين الحنفى وقد وجدت بين النسختين خلافا في بعض الفقرات.

قبل . ونرى شيئا من الدفاع الحماسي الذي قاموا به مع غيرهم من العلماء في إجازاتهم المنشورة في البحر المورود ، ولطائف المتن^(١) .

ونرى صورة أخرى لهذا الدفاع الذي تولاه هذا الصنف من العلماء في استفتاء وجهه مصطفى الرومي بقناطر السباع في أواخر القرن الحادي عشر إلى اثني عشر عالما عن (١) ذكر الله بطريقة الدر داشية والخلوتية والشناوية ومصطفى الرومي بقناطر السباع (٢) الهوية عندهم وهي دورانهم في حلقة الذكر وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض وراحوا يقولون . هو هو هو ... فأجاب عن السؤال الأول المشايخ أبو الخير أحمد المرحومي الشافعي ومحمد الأحمدى الشافعي ومحمد المهمل المالكى وأحمد الأزهرى وعبد ربه البربرى الشافعي وأبو الصفا الشنواني وعلى بن عامر الانباني المالكي - وأجاب عن الفتوى الثانية المشايخ أبو العزيز بن أحمد العجمي الشافعي الوفاي والشهاب الرملي وعبد الحى الشرفلالى وسليمان السراخبي المالكي ومحمد الخليل الشافعي . ولما كانت إجاباتهم انتصارا لأهل التصوف وتأيدا لوجهات نظرهم فقد حمل الشيخ مصطفى الرومي هذه الإجابات إلى عبد الغنى النابلسي وأطلعه عليها ونشرها هذا في رحلته^(٢) .

وثمة رسائل كثيرة من هذا النوع .

(٣) وثالث الأنواع دفاع المتصوفة المتبحرين في الدين عن طوائف الفقراء وأعمالهم ، ويمثل هؤلاء السيد أبو بكر محمد زين العابدين البكري (١٠٩٩٤ هـ)^(٣) الذى كتب رسالة ينتصر فيها لفقراء الطائفة السعدية الذين يكثرون من ذكر الله حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدا واضطربوا وتساقطوا على الأرض وافتقدوا الحس وزايلتهم الحركة حتى أضحوا كالخشب المسندة لا يقوون على النهوض حتى يسارع اليهم نقيب الشيخ فيكبس أيديهم وأرجلهم

(١) البحر المورود ص ٣٦٨ إلى ص ٣٧٦ ، لطائف المتن ج ١ ص ٤٢ - ٤٥

(٢) الحقيقة والمجاز ١٢٣ إلى ١٢٧ ب

(٣) بيت الصديق ص ٧٣ .

ويقومهم على بركة شيخهم . ويزود عن بعض فقراء هذه الطائفة بمن يخرجون من أجسادهم شيئا ملونا بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم كالعرق من غير جرح أو منفذ له على سبيل الكرامة - فتولى الدفاع عنهم والذود عن مسلكهم والانتصار لطريقتهم بما نراه في رسالته - حتى السائل الذى يخرج من أجسادهم ملونا دون جرح ولا منفذ قد زعم بأنه كرامة فقال فيها كرامة طاهرة وآية ظاهرة حيث كانت أنوارها مشرقة من سماء نفوس لا تعدل عن اتباع الشريعة ولا تأوى إلا إلى حصونها المنيعه، وكأنه أحس بأن دعواه فى التزام هؤلاء الفقراء للشريعة سافرة البطلان فعقب على هذا قائلا ، وإذا ظهرت على من يخلط بالعصيان بعض الأحيان ، فالكرامة لأستاذه الذى ينتسب إليه ، ولكن لطهارة قلبه فى ذلك الوقت ظهرت عليه .. ١١ ، (١) .

تصوف الفقهاء الذين انتصروا لمناجى الطرق :

قلنا فيما أسلفنا أن العلماء الذين تولوا الدفاع عن مسلك المتصوفة كانوا فى الأغلب والأعم يجمعون بين عنصرى الفقه والتصوف ، وإن عرفوا بين الناس بأنهم فقهاء لغلبة العنصر الأول على الثانى فى مسلكهم . فهل ثمة دليل يشهد بصحة هذا الزعم ؟

كان بين العلماء الذين انتصروا للشعراني فى محنته وذاذوا عنه فى فتنه الأزهر وكتبوا له الأجازات التى تشهد بتدينه : ناصر الدين اللقاني وشهاب الدين المالكي والفتوحى الحنبلى .. وقد ترجم لهم فى كتاب له فكانت تراجمهم الشاهد العدل على صحة ما نقول (٢) .

وكذلك نقول فى عبد الله الشبراوى الذى انتصر لليومى فى ثورة العلماء عليه وسعيهم لإلغاء مجالس الذكر التى كان يعقدها لجماعته بالمشهد الحسينى ،

(١) النصرة الالهية للطائفة السعدية وملحق الرسالة ص ٣٨٥ - ٣٨٨ .

(٢) انظر كتابنا « الشعراني » إمام التصوف فى عصره ص ٨

فقد كان الشبراوى شديد الحب للمجاذيب كما يقول الجبرتي (١) فسعى له عند الباشا والأمراء حتى منع عنه ما كان وشيكاً أن ينزل به من حيف .
وكذلك يقال في كثير من العلماء الذين انتصروا لأهل التصوف ودافعوا عن طريقتهم .

بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف :

ولكن تصوير التصوف في أذهان الفقهاء على هذا الوجه من الكراهية غير صحيح ، فقد كان بعض المتصوفة في رأى الكثيرين من العلماء موضع حب وتقدير ، وكثيراً ما احتفى الأزهر بعلمائه وطلبته بأهل التصوف الذين يفدون لزيارة مصر من أمثال مصطفى البكرى وعبد الغنى النابلسى — وقد أشار هذا في رحلته إلى مظاهر الحفاوة التى كان يستقبل بها بين العلماء وطلاب الأزهر ، وكثيراً ما كانوا يتوافدون على دار زين العابدين للتيمن به ويرحبون بزيارته لهم (٢) . وإنه ليصف موقفاً رائعاً ينطق بهذا الحب فيقول إنه زار الجامع الأزهر ، فأقبل عليه العلماء والمدرسون وطلبوا إليه درساً تبركاً منه وتيمناً فاعتذر لهم عن ذلك ، وقال يصف مبارحته للأزهر : انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون الدعاء مع زيادة الاعتقاد فأخذتنا هبة ذلك الحال فصرنا نبكى وهم يبكون وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع ١١٠٠ ، (٣) .

ولكن لماذا لم يلق هذه الحفاوة البالغة في رحاب الأزهر كبار المتصوفة من المصريين ونزلاء مصر المقيمين بها ؟ . . . أليس يدل هذا على أن الفقهاء قد احتفوا بالنابلسى لأنهم لا ينفون عليه نفوذه ولا يضيقون بسلطانه

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) الحقيقة والمجاز — ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ — وفي مواضع أخرى من هذه الرحلة .

(٣) الحقيقة والمجاز ١١٣ .

لأن بقاءه في مصر محدود الأجل... ألا تكون هذه الخصومة التي ثارت بين العلماء المتصوفة مردها إلى النزاع على حيازة السلطة عند الناس والحكام معاً؟ الواقع أن الكثيرين من الفقهاء كانوا يحسنون الظن بأرباب الطريق - روى الجبرتي (في حوادث سنة ١١٩١هـ) عن مفتي الشافعية الشيخ الكفراوي أنه كان يعتقد أن الشيخ صادومه من كبار الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات، فأخذ يعلى من شأنه عند الأمراء (وخصوصاً أمام أبي الذهب) حتى راج حاله وطار صيته، واختلى أبو الذهب ذات يوم بمحظيته فإذا على سواتها كتابة: «واعترفت له بعد أن هددها بالقتل أن الشيخ صادومه هو الذي كتبها ليدنيها من قلب سيدها»، فأمر الأمير بقتله وإلقائه في النهر. فآلقوه في النهر وصادروا داره فوجدوا فيها تمثالا من القطيفة على هيئة الذكر... (١). وذكر «الحجّي»، عن «فايت المصري»، (من أهل القرن الحادي عشر) أنه كان يقيم باب الجامع الأزهر وكان كبار العلماء يحترمونه ويعتقدون في ولايته، وكان إذا أقبل لزيارته أحد هؤلاء العلماء وقف بين يديه، فإن أشار إليه الشيخ فايد بالجلوس جلس وإلا لبث واقفاً حتى يأمره بالانصراف أو ينصرف هو من نفسه... (٢).

وقد لاحظ الأستاذ «فولرز» أن من مظاهر النزاع بين الفقهاء والمتصوفة أن الشرعاني لم يكن له مكان في الأزهر رغم نباهة ذكره وشيوع اسمه وكونه ممثلاً لرجال التصوف في عصره (٣) ورغم أن الكثيرين من الأزهريين - علماء وطلبة - كانوا يفضون الشرعاني ولا يحبونه على نحو ما أشرنا، إلا أن السبب في بعده عن الأزهر ربما يرجع إلى رغبته في الاستقلال بمريديه الذين بلغوا في زاويته المائتين على ما عرفناه، فإن الكثيرين من المتصوفة

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٨.

(٢) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢٥٤.

(٣) مادة الأزهر في دائرة المعارف الإسلامية.

كانوا يقيمون في المساجد أو يتخذونها مقراً لتلاوة الأوراد و ذكر الله — وقد كان محمد المنير + ٩٣١ يعتكف كل سنة في رمضان بالجامع الأزهر ويجمع عنده الفقراء يقرءون كل يوم ختمة بالنهار وأخرى بالليل^(١). وقد تعبد الشراني في بدء حياته بالجامع النعمري فلما كبر شأنه وكثر مريدوه انتقل إلى زاوية خوند^(٢).

موقف المتصوفة من الفقهاء :

كل ما أسلفناه من مظاهر المقاومة النظرية والفعلية منصب على تصوير الموقف الذي التزمه الفقهاء من أرباب الطريق، ولم نشر فيما ذكرناه إلى موقف المتصوفة من العلماء — والذي يلاحظه الباحث عند النظر في أدوار هذا النزاع أن المتصوفة قد قاموا فيه بدور سلمي بحث، وأن الفقهاء هم الذين قاوموا أرباب الطريق واشتدوا في حسابهم وأغلظوا في معاملتهم وتعقبوا آثارهم ورصدوا حركاتهم وطاردوا مريديهم ونالوهم بالأذى في كل فرصة حانت لهم. ولعل السر في هذا : (١) أن أرباب الطريق هم الذين خرجوا على ظاهر الشرع وأعلنوا هذا دون مداراة فاحتاجوا إلى من ينصرهم من أهل الفقه ويؤيد مسلكهم في كل ما لا يلتزم مع ظاهر الكتاب والسنة، فاستعانوا بالعلماء في أخذ الأجازات التي تشهد بالتزامهم قواعد الدين كما فعل الشراني في كتابه «البحر المورود في المواقف والعهود»، وفي غيره من الكتب. وقد تغنى بذلك في غير موضع من مؤلفاته^(٣). (ب) أن أرباب الطريق في الجملة يدعون إلى السلام ويبشرون بالحب والصفاء ويطالبون مريديهم باحتمال الأذى والصبر على الاضطهاد أملاً في نيل الثواب ورغبة في اكتساب الصفاء النفسى الذى يؤدي إلى حضرة الله. فساعدتهم هذه الدعوة على موقفهم السلبى من هجمات العلماء

(١) تكميل النور المسافر ص ٢١٤ .

(٢) أنظر كتابنا الشراني في الفصل الذى عقدناه على سيرته .

(٣) المواقف والجواهر ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٤ وخاتمة المواقف وخاتمة البحر

المورود ولطائف المتن ج ١ ص ٤٢ — ٤٥ .

والظاهر أن هذا هو الذى حمل الأستاذ فولرز ، على القول بأن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء على أرباب الطريق^(١) ولكن إن صح هذا الرأى فى القدم فإنه غير صحيح فيما نظن فى العصر العثمانى . فقد كان الشعب فى صف الفقراء وكان إيمانه بهم أشد بكثير من إيمانه بالعلماء . وما عرفنا عالماً كان له من الأنباع الذين يستجيبون لمطالبه وينصاعون لأرائه ويستحيلون أدوات مسخرة لتنفيذ مآربه ، ما كان لكبار أرباب الطريق — ولا بأس من أن نزيد هذه الدعوة وضوحاً .

أسرفوا فى الدعوة إلى احتمال الأذى حتى طالبوا المظلوم بالرضا عن ظلمه وشكر الله على ما أصابه وعذر من أقدم على إهانته ، لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه غافل لا يذكر أن المعتدى عليه واحد من عباد الله ، وأنه وهو يعتدى عليه قائم فى حضرة ربه الذى نهاه عن ذلك . وقد كان احتمال الأذى ظاهرة تميز الأولياء^(٢) عن غيرهم من سائر الناس . وقد كان الشعرانى يتظاهر بأنه مغتبط لإنكار العلماء عليه ، لأنهم لم يفعلوا ذلك إلا حرصاً على ظاهر الشريعة^(٣) . ونزعم أن من نعم الله عليه محبته لطلبة العلم الذين بادروا بالإنكار عليه وانضموا مع الحسدة فى تشويه سمعته بنشر مأساؤه فى كتبه^(٤) .

وكان الشعرانى إذا تناول العلماء بنقد عدد مظاهر خروجهم على قواعد الدين وأنكر عليهم التهافت على الدنيا وغفلتهم عن تكاليف دينهم ، وقلما كان يعرض لهم بالسباب أو يتهمهم بالشتائم^(٥) ، بل لقد كان يدعو إلى

(١) مادة الأزهر (V. Vollers) فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر كتابنا الشعرانى فى الفصل الذى عقدناه على سيرته .

(٣) لطائف المتن ج ٢ ص ١٨٢—١٨٦ .

(٤) بهجة النفوس ص ٩٤ (مخطوط) .

(٥) لطائف المتن ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٦) فى البحر المورود أمثلة تؤيد هذا ص ٥٤ و ٥٥ و ٢٦٧ و ٢٦٨ .

احترامهم وتوقيرهم ولو لم يعملوا بالشريعة التي كلفوا بنشرها بين الناس (١) ..
ولا نظن إلا أن سائر أرباب الطريق قد ساروا سيرته واقتدوا به أو تابعوه
— غير عامدين — في موقفه من العلماء ، وكتب المتصوفة تقول إنهم كانوا
يلبسون مسوح الراهب الوديع ويحملون غصن الزيتون ويطوفون داعين إلى
الوثام بين الطوائف ، وقد وضع الشعراني كتباً للوصول إلى هذه الغاية —
ككتابي اليواقيت والجواهر . الميزان وغيرهما .

على أن ذلك كله لا يمنع من القول بأنهم كانوا يردون هجمات الفقهاء
بتأليف الرسائل والتعرض لنقد آرائهم فيما يصنفون من كتب ، فأما الرسائل
فحسبنا الإشارة إلى رسالة محمد كريم الخلوتي (٢) التي رد بها على الشرييني الذي
انتقد طريقته في الذكر بالجلالة وقال إنها مبتدأ وكل مبتدأ محتاج إلى خبر (٣)
على أن الرسالة هادئة لينة — فأما رد النقد في كتبهم فإن مصنفات الشعراني
حافلة بذلك كما أشرنا الآن .

وما كان لين المتصوفة في نقد العلماء وليد العجز عن رميهم بالتهم وصب
الشتائم فوق رؤوسهم فسرى شيئاً من قسوتهم حين يهاجم بعضهم بعضاً .

استمرار النزاع إلى اليوم

وقد استمر النزاع قائماً بين الفقهاء ومشايخ الطرق إلى يومنا الحاضر ،
ترثه الطائفتان جيلاً بعد جيل ، فبعد انقضاء العصر العثماني بأربعين عاماً
استفتى الشيخ إبراهيم باشا أحد العلماء من تلامذة الشيخ الصعیدی (هو الشيخ
الأمير) عن الغناء والتواجد والرقص في حلقات الذكر فأفتى بمثل ما أفتى به
شيخه من قبل (٤) وقد هدأ هذا النزاع في الأيام الأخيرة ولكنه ما زال

(١) العهد الحمدي من ١٣٧ .

(٢) رد المتوقف بلا محالة في الابتداء بالذكر بالجلالة (مخطوط) .

(٣) الكواكب الدرية ٥٢٠ وتكميل النور السافر من ٧٥٢ .

(٤) استفتاء الشيخ إبراهيم باشا إلى العلماء سنة ١٢٥٢ هـ (مخطوط) .

كأننا في صدور الطائفتين وقد ثار منذ بضعة أعوام ثورة رددت الصحافة صداها ، إذ كتب وزير الأوقاف عبدالعزيز باشا محمد كتابا إلى شيخ الجامع الأزهر الأستاذ المراغي في شأن البدع الشائعة وما فشى بما لا يتفق مع قواعد الإسلام ، واقترح تأليف لجنة يشرف عليها الأزهر وتكون مهمتها تمحيص هذه البدع الشائعة بين الطبقات الدنيا في مصر ووضع قواعد تستند إليها الحكومة في مصادرة كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين ، وبعد تبادل الرأي بين الوزير ومشيخة الأزهر ، اتفق الرأي على تكوين لجنة يرأسها مفتي الديار المصرية الشيخ عبد المجيد سليم ، وصدر قرار بتأليفها لوضع كتاب جامع عن البدع الفاشية والمنافية للإسلام .

وما فرغوا من تكوين اللجنة حتى ثارت ثائرة الصوفية وأرسلت مشيختهم بيانا إلى الوزير تعلن فيه الاحتجاج اللين على معاليه ، لأنه تخطى بكتابه هذا سلطة لها بحق القانون الإشراف والهيمنة على كل ما يتعلق بشئون الصوفية دون غيرها من السلطات ، ثم ختمت بيانها بتوجيه كلمة فيها شيء من العنف إلى شيخ الجامع الأزهر ^(١) .

أرباب الطريق

قلنا فيما أسلفنا إن أرباب الطريق أنفسهم كانوا بين الذين حملوا معارل المهدم في أيديهم وسعوا بنا إلى تحطيم دولة الفقراء - عامدين كانوا أو غير عامدين - ذلك لأن دولتهم كانت تقوم على الإيمان بها والتسليم لأهلها ورفعهم فوق كل نقد أو عتاب ، فكل إنكار يوجه إليهم أو نقد ينصب على رموسهم يزلزل هذا الإيمان الذي لا قيام لدولتهم بدونه - وقد ثارت الضغينة في نفوس أرباب الطريق حتى كره بعضهم بعضا وحمل بعضهم على بعض حملات تنضح قسوة وتفيض عنفا . وقد اتخذ النزاع بين المتصوفة بعضهم

(١) جريدة روزاليوسف (اليومية) ٢١ و ٢٥ يناير سنة ١٩٣٦ وجريدة البلاغ

١٦ و ٢٤ يناير سنة ١٩٣٦ .

مع بعض مظهرين عنيفين شبيهين بمظهرى المقاومة التى أثارها الفقهاء فى وجه أرباب الطريق — مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب وما يشبهه ومظهر المقاومة النظرية — بوضع الرسائل فى النشيع على مسلك بعض الطرق — فلتتناول المظهرين بشئ من التوضيح :

بعض مظاهر المقاومة الفعلية

روى المناوى فى ترجمة عبد الله محمد الصبان + ١٠٠٨ هـ أنه أخذ مكان شيخه بعد موته فضاق بذلك جماعة من مريدى شيخه ، وقالوا إن حفيد الشيخ (وكان ابن بنته) أحق وأولى يارث المشيخة من تلميذه ، وانطلق بعضهم إلى زاوية دمرداش وانهاكوا على الشيخ الصبان وجماعته الذين قبلوا مشيخته وأثنوهم ضرباً ثم أخرجوهم من المنزلة ، ولولا تدخل بعض العلماء وتهديد المعتدين بالحاكم لنال الصبان ، شر مستطير ^(١) .

وكذلك نقول فى النزاع العنيف الذى قام بعد ممات الشعرانى (+ ١٧٣) على زاويته بين ابنه وأولاد عمه — وفى طليعتهم عبد اللطيف — فقد بلغ من أمر هذا النزاع أن ترفعوا إلى الحكام أكثر من مرة ، ولم يقض عليه إلا ممات أحد المتنازعين ^(٢) .

وقد روى الشعرانى عن نفسه أن جماعة من مدعى التصوف قد اجتمعوا بجامع الغمري — حيث كان يتعبد — وأوقدوا كثيراً من القناديل وجلسوا تجاهه وأخذوا يرفعون بالذكر أصواتهم ويشوشون عليه فانتقل إليهم وجلس فى مجلسهم وقال لهم كلنا فى الخير سواء فمتعوه من الذكر معهم . فلما طلب إليهم أن يخفضوا أصواتهم أبوا عليه ذلك . ولكن الله أنقذه من شرهم وسلاط

(١) الكواكب الدرية ٢٥٧ .

(٢) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٣٦٤ ، الكواكب الدرية ٤٩٦ ، تكميل النور السائر ص ٦٦٥ وانظر فى كتابا عن الشعرانى تفصيل ذلك .

عليهم النوم فناموا حتى الصباح . ثم ذهبوا إلى عبد الدايم بن بقر وطلبوا إليه أن يقيم لهم مولداً في الجامع ليلة الجمعة ، رغبة في التشويش على الشعراني وجماعته ، وجاء المقرئون والوعاظ بخفض الشعراني وجماعته أصواتهم بالصلاة على النبي دون أن يطلوا مجلسهم ، فجاء عبد الدايم ووقف على رأس الشعراني وقال له في لهجة المحتق المغيظ : « أنت يا عبد الجعاص ما تسكت ، فسمى الله بالجعاص ، فثار جماعة الشعراني لذلك وهجموا عليه وأثخنوه ضرباً وطعنوا قائلين له : كفرت .. ثم اجتمعوا وعقدوا النية على أن يضربوا رقبته صباح الغد ، ثم أجمعوا رأيهم على أن يعضوا به إلى القاضي ليحقن دمه ، وبطل مولدهم تلك الليلة ^(١) .

وهل نريد شاهداً أدل على هذه الضغينة من قول الشعراني : « وقد رأيت أنا جماعة أخذوا عن الشيخ فصاروا مع إخوانهم كأنهم في دين وهم في دين ، فتنافروا وتشاحنوا وترافعوا إلى الحكام وامتلات قلوبهم بالشحناء والبغضاء .. » ^(٢) وقوله للمريدين الذين يتصلون بشيخ ويبغضون إخوانهم في الطريق لأنهم ليسوا من مريدي شيخهم : « وإياكم بعد الاجتماع عليه أن تقبضوا وجوهكم عن إخوانكم وتقرمطوا أنوفكم وتطأطأوا رقابكم بل كونوا كما كنتم قبل اجتماعكم عليه .. » ^(٣) .

ولقد أكثر كتاب التراجم من الإشارة إلى أن بعضهم كان يؤذى إخوانه في الطريق ، روى الشعراني عن المنير + ٩٣١ أنه قتل محمد بن عراق لأنه أنكر عليه ، وذلك أنه أراد الاجتماع به فأبى ابن عراق فشكاه إلى النبي فمات بعد عشرين يوماً ، وإن كان الشبلي يشك في وقوع هذه الحادثة لأن المنير مات سنة ٩٣١ وابن عراق سنة ٩٣٣ ^(٤) — وذلك لا ينفي إيذاؤهم لمن أنكر

(١) المناقب الكبرى ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) و(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٢ .

(٤) تكميل النور السافر ص ٢٩٥ (مخطوط) .

عليهم — كما يدعى المؤمنون بقدرتهم على الإيذاء — والكتب حافلة بما يؤيد ذلك . والغريب أنهم كانوا أحيانا يؤذى بعضهم بعضا رغبة في التسلي ، روى الشعراني عن علي أبي خوده أنه رآه مرة بباب الشعرية يقول لخادمه : إيش قلت من يخلى هذا الرجل (عبد القادر الدشوطي) هراره في رجله .. فلما مر به كركبت بطن عبد القادر ، وصاح هراره على المصطبة التي كان قاعداً عليها ، كما يزعم الشعراني ^(١) وقد كان الكثيرون منهم معروفين بأن دعاءهم مستجاب كمحمد بن عز المصري + ٩٣٠ ^(٢) وغيره .

وينبغي أن نشير الآن إلى أن الفتنة التي ثارت من أجل اتهام الشعراني بالخروج على الدين قد اشترك بعض خصومه من المتصوفة في إثارتها كما نص على ذلك المناوي والشبلي في ترجمته ^(٣) .

بعض مظاهر المقاومة النظرية :

تصادفنا فيما كتبه أهل التصوف رسائل يهاجمون بها بعض الطوائف ، وفقرات ذهبت أشتاتا في بطون كتبهم نفثوا فيها مرارة نقدهم وسموم حقدهم ، فمن الرسائل التي وضعت في الهجوم على الطوائف رسالة كتبها محمد الغمري في فرقة المطاوعة التي أسلفنا الحديث عن فقرائها وطريقتهم في الذكر وقد نتقده الشعراني على قدوته في الهجوم عليهم والتشنيع على مسلكهم بهذا العنف ، قائلا إن الطائفة الواحدة تجمع بين الشرير والخير فلا ينبغي أن نعمم أحكامنا أو نأخذ بظاهر ما نرى ^(٤) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٢ — ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ٢٤٣ (مخطوط) .

(٢) تكميل النور السافر ص ٣٤٨ .

(٣) الكواكب الدرية ٤٩٦ وتكميل النور السافر ص ٦٦٢ .

(٤) لطائف المنن ج ١ ص ٢٣٤ .

والغريب أن الشعراني الذي يعيب على الغمري قسوته في نقد المطاوعة برسالته ، قد وضع رسالة سنة ٩٣٣ هـ يهاجم بها طائفة من الفقراء في عصره ادعت الولاية الكبرى زوراً وبهتاناً ، وضمن هذه الرسالة شتى ضروب السبايب ومختلف ألوان التهم حتى كانت الضغينة تطل من ثنايا سطورها ^(١) ، قال فيها إن هؤلاء الفقراء أضل من الأنعام واثمهم بالجهل والكفر وسوء الأدب ^(٢) وقال إن الفلاحين أقرب إلى الله من هؤلاء المضللين ، لأنهم يقضون العمر في نفع العباد وأما هؤلاء فيقضونه في ضرر الناس ^(٣) ، وقال إن المشيخة على يدهم قد أصبحت باباً من أبواب التسول والشحاذة ^(٤) وأن إبليس لما اجتمع به (الشعراني) وبخه على قبول هؤلاء المغرورين تعظيم الناس لهم ، وقال للشعراني إنه يأبى ذلك لنفسه مع أنه إبليس ١١٠٠ ^(٥) .

وتعقبهم بمثل هذه المطاعن في غير هذه الرسالة فرماهم في بعض كتبه بالكفر والتضليل والكذب والافتراء وخفة العقل ورمى الفرق التي تتلذذ لمشايخ قد طوتهم القبور بالمروق من الدين ، فقال عن فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والدسوقية والمسلمية والبرهامية إنهم خارجون عن الشريعة ^(٦) ، واثمهم بالجهالة فقال إنهم يقنعون بلبس الزى فإن سألت شيخاً منهم عن قواعد الإيمان قال لأدرى أو فرائض الوضوء قال لأدرى ١١٠٠ مع أنه شيخ في زاويته يأخذ العهد على الناس ومثل هذا ليس شيخاً باجماع المسلمين ^(٧) .

فالشعراني الذي كان مع الفقهاء لينا وديعاً رغم قسوتهم عليه وإهاناتهم له ، نراه مع إخوانه في الطريق شديداً يتابع لطعماته لهم دون رفق ولا هوادة .

(١) اسم الرسالة ردع الفقراء من دعوة الولاية الكبرى ولها أربعة أسماء أخرى ذكرناها في ملاحظتنا على مصادر كتابنا عن الشعراني .

(٢) نفس المصدر ص ٢ .

(٣) ردع الفقراء ص ١ .

(٤) نفس المصدر ص ٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٩ .

(٦) قواعد الصوفية ص ١٧٦ .

(٧) قواعد الصوفية ص ١٧٥ .

وشبه بهجومه ما نراه في كتاب السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والاحاد ، وقد وضعه السيد مصطفى البكري الذي لقن الطريقة الخلوتية للحفناوى + ١١٨١ قطب رعى الديار المصرية كما عرفنا — والكتاب نقد لاذع ينصب على رموس أرباب الطريق الذين حرروا أنفسهم من قيود الدين وتمردوا على قواعده وخرجوا على تعاليمه (١)

* * *

هذه هي بعض معاول الهدم في دولة الفقراء ، حملها حتى أهلها ، ولم يبق في الشعب طائفة إلا قام فيها المنكرون لأرباب الطريق الراغبون في تحطيم سلطانهم والانتقام من دجلهم ، ولكن هذه القوى التي تعاونت على هدمهم كانت — كما قلنا من قبل — كسيحة تنقصها الحركة ويعوزها النشاط مريضة لا تقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق ، فعاشت دولة الفقراء على كره من هؤلاء المنكرين جميعا مبسوطة السلطان ممدودة الرحاب يرفرف عليها في شتى الأنحاء — والزمان وحده هو الذي تمكن بتطوره السريع من تقليم أظافرهما وقص أجنحتها وإلزامها الحدود التي لا ينبغي أن تتخطاها . ولكن ما السبب الذي أدى إلى قيام هذا النزاع ؟ ذلك ما نعرفه بشيء من التفصيل فيما يلي من حديث :

٢ — أسباب الانكار على أرباب الطريق

أسباب الانكار عند الناس والجمود وأرباب الطريق — أسباب النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق : الخلاف في وجهة النظر — اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله — التنافس من أجل الدنيا .

أسبابه عند الناس والحطام وأرباب الطريق :

محاولة الكشف عن الأسباب التي أدت إلى قيام النزاع بين أهل الفقه

(١) السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والاحاد للسيد مصطفى البكري مخطوط

وأرباب الطرق ، تنير السبيل إلى فهم الأسباب التي أثارت الإنكار في نفوس الناس والحكام ، وبعث الضغينة عند أرباب الطريق ، لأن أسباب الظاهرة الأولى أعم وأشمل ، وفي بيانها ما يغنيننا عن الكلام على أسباب الإنكار عند غير الفقهاء . ويمكننا أن نجعل أسباب الإنكار عند الناس والجنود في ظهور الشعوذة سافرة من غير حجاب ، مع عدم اقتناع المنكرين بولاية المشعوذين ، فقد قلنا فيما أسلفنا إن مدعى الولاية كانوا إذا جهروا بامتهان الدين والخروج على قواعده وتعاليمه ، سر الناس لهذا الشذوذ سرورا عظيما . واستنخفهم الرضا بما يرون من مظاهر التمرد على ما ألقوا من قديم الزمان ، ولكن هذا الرضا كان مرده إلى إيمان الناس بولاية هؤلاء الأدعياء . وكان بعض الدجالين والمشعوذين لا يقوى على إقناع بعض الناس والحكام بصدق ولايته ، فكان ذلك يثير السخرية ويبعث الإنكار في نفوس المنكرين .

أما إنكار مشايخ الطرق بعضهم على بعض ، فرده إلى ضيقهم بعجز العاجزين من إخوانهم عن إقناع الناس بولايتهم ، مما كان يؤدي إلى الإنكار على أرباب الطريق جميعا ، وكان مرجع هذا الإنكار بين أهل التصوف إلى التنافس الذي كان بينهم ، وأدى إلى إثارة الحفيظة وقيام الضغينة في نفوسهم ، فكان شيوخ الطريق الذين يفشلون في إقناع الناس والحكام باحترامهم وتقديس ولايتهم ، يتساوون مع الذين يلقون النجاح ويصادقون الرواج عند الناس من حيث إنكار إخوانهم في الطريق عليهم — وإن اختلف السبب الذي أدى إلى هذا الإنكار — ولهذا كثرت حملات أهل الطريق بعضهم على بعض كما عرفنا من قبل . والآن تنتقل إلى الأسباب التي أدت إلى النزاع بين أرباب الطريق وأهل النظر :

الخلاف في وجهة النظر :

يقول تاريخ العلم إن الخلاف بين أهله لا يثير الضغائن إلا إذا اتصل بالعائد الدينية أو المنافع الشخصية أو المصالح القومية ، لأن الخلاف في النظر العلى قائم على العقل وحده ، ومن شأن العقل التسامح . أما تاريخ

الاديان والعقائد فيقول إن الخلاف بين أهلها مثار الأحقاد والضغائن دواما ،
لأنه قائم على العاطفة أو الغريزة ، وذلك مما يثير في النفس الضغينة والحقد ،
ويدفع صاحبه إلى الإنكار — وقد يحمله على الانتقام — ولهذا كان رجل
كالغزالي — وهو حجة الاسلام — مثار النزاع العنيف بين أنصاره وخصومه
رغم الجهود التي بذلها في الدعوة إلى الدين والتبشير بطاعة الله — وفي الزيدى
تصوير طريف للخصومة التي قامت بين مؤيديه والمنكرين عليه (١) — وما
قبل في الغزالي خلق بأن يقال في غيره من رجال الدين .

كان طبيعيا إذن أن يقوم النزاع بين الطائفتين : أهل التصوف وحمله
الشريعة ، فقد كانتا على خلاف في وجهة النظر ، إذ كان الفقهاء على اعتقاد بأن
الدين إنما يستقى من الكتاب والسنة ، وقلّ منهم من كان يميل إلى تيه العلم
اللدني الذي آمن به أهل التصوف . وقد انقسم هؤلاء المتصوفة في هذا
العصر إزاء العلم بالدين معسكرين : يبشر أحدهما بالعلم ويدعو ثانيهما إلى
الجهالة من غير مداراة ، ولكن المعسكرين قد اتفقا على أن استقاء الدين
من ظاهر الشرع عجز ونقص ، وأن المعين الذي ينبغي أن ينهل منه الإنسان
معرفة بالدين — وغير الدين — هو الله ، ويكون ذلك بإخلاص العبد في
عبادة الله والتفاني في طاعته حتى يصل إلى حضرة ، يأخذ عنه العلم رأسا
من غير وساطة ، وشتان بين من يستقى العلم من ميت عن ميت ، ومن يستقيه
عن الحي الذي لا يموت (٢) .

إباحة التأويل لأهل الله :

وقد أدت بهم هذه الدعوى إلى إباحة التأويل لأنفسهم ، مدعين أنهم
يعرفون بالكشف باطن الشريعة ، وأعلنوا احتقارهم لطريقة الفقهاء الذين

(١) إتحاف السادة المتقين بصرح إحياء علوم الدين ج ١ .

(٢) انظر تفصيل هذا في كتابنا « الشعرائ » في الفصل .

يقفون عند ظاهر النصوص ولا يبحون التأويل لأحد من الناس ، وتمادوا في هذا الاحتقار حتى بلغ الأمر بأحد زعماء الطريق من دعاة الجهل ، أن يسخر من صوفي متبحر في الدين قد تبرع بتعليمه مبادئ الدين ، فيقول عنه مع مريديه في زاويته ، إنه يريد أن يعملنا فقهاء كما هو فقيه . ١١ .

ونرى — من مظاهر هذا الاحتقار ، امتناع « عبد الغنى النابلسي » ، عن إلقاء درس في الحديث على طلبة الأزهر وعلمائه عندما زار الجامع واحتفوا به ، فاعتذر إليهم بسفره إلى بلاد الحجاز ، وانصرافه إلى زيارة الصالحين والتمسك بمقاماتهم ، وعدم الفراغ إلى الطائفة وحبس النفس في تقرير العلوم الظاهرة ، وعقب على هذا الاعتذار الذي قاله لهم بذكر السبب الصحيح لاعتذاره فقال : « لانا رأينا ذلك ينقص علينا مانحن فيه من ممارسة علوم الحقائق ويعكر علينا صفاء الروح لتلقى المواجيد العرفانية » (١) .

احتقروا الفقه وأهله ، وقبحوا طريقة العلماء في فهم الكتاب والسنة ، وشتموا مع الفقهاء في استهجان التأويل ، ولكنهم أباحوه لأنفسهم ، وقالوا إن المذموم من التأويل ما كان عن فتك وتخمين ، أما خواص العباد من الأولياء الذين فنوا عن بشريتهم ، فقد أطلعهم الله على ما أخفاه عن كافة البشر ، فكان لهم وحدهم حق التأويل . أما الفقهاء وغيرهم فمن واجبه أن يقفوا عند ظاهر الشرع دون أن يزيدوا عليه حكما واحدا ، فما حرمه الحق حرمه ، وما أحله أحله ، وما أباحه أباحه ، وما ندب إليه ندب إليه ، وما أوجبه أوجبه ، وما سكت عنه سكت عنه ، فمن فعل ذلك صحت له موافقة الحق تعالى ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، (٢) .

وتمادوا في زعمهم فقالوا إن ألفاظ كبار الأولياء خليفة بالتأويل ، شأنها في ذلك شأن ألفاظ الأنبياء ، لأنها جميعا من بحر واحد ، بل إنها أحق وأولى

(١) رحلة النابلسي ص ١١٣ .

(٢) الجواهر والدور ص ١٢٤ — ١٢٦ .

بذلك من كلمات الأنبياء ، لقصور الأولياء عن الإفصاح عما يقصدون ، قال الرسول أنا في الليلة آت من ربي — وفي رواية أنا في ربي عز وجل فوضع أصابعه بين يدي حتى أحسست برد أنامله فعلمت علم الأولين والآخرين . فلو قال ذلك ولي من أولياء الله لاجمع العلماء على قتله ، وغاب عنهم أن الأولياء لهم الإشراف على حضرات الوحي ، وربما هبت على قلوبهم من تلك الحضرة نفحات تكشف لهم عن حقائق الأمور الإلهية ، فمن الأدب قبول تلك النفحات بالإيمان كما قبلت من الأنبياء ^(١) .

وكان علماء العصر لا يسلمون بأن للشرعية باطنا وظاهرا ، ولا يجيزون تأويل آية ولا حديث ، والمطلع على الكتب الدينية التي كتبها أهل هذا العصر ، يعرف مبلغ تقيدهم باللفظ ومدى ضيق التفكير عندهم ، ومؤرخو الآداب المصرية يسمون هذا العصر — عصر الحواشي والشروح ، والكتب التي وضعت فيه تبرر هذه التسمية ، وكانت الحواشي على المتون قائمة على التقيد بظاهر الكلام واللف والدوران حول الألفاظ ، هذا النوع من التفسير شائع في الكتب ، فكان طبعيا أن يلتزمه الفقهاء في الكتاب والسنة ، فتأويلهم بتأويل أو الحديث بما يناقض الواضح من معانيه ، زاعمين أن من عباد الله من تهب على قلوبهم نفحات إلهية لو نطقوا بها كفرهم المؤمن وجهلهم صاحب الدليل ^(٢) وهم من الكفر والجهل أبرياء في عرف أهل الطريق .

كان طبعيا أن يضيق الفقهاء بمسلك الفقراء ، فان إباحة التأويل لأهل الله قد مهدت السبيل لشعوذة الدجالين — وما كان أكثرهم في هذا العصر — فقالوا كل ما خطر لهم ، وفعلوا كل ما اشتبهوا فعله ، وخرجوا من الآيات والأحاديث بما يبرر سلوكهم ، واستغلوا مذهبهم في التأويل والقدرة على

(١) الشمراني : درر القواسم ص ١٠٩ — ١١٠

(٢) الشمراني : الجواهر والدرر ص ١٧٧

معرفة باطن الشريعة في ابتكار آراء ليس للكثير منها أصل من الدين ، ثم اعتنقوا هذه الآراء التي حاربها الدين وروجوا لها بين المتصلين بهم ، كالقول بإلغاء المسكية اعتماداً على أن مالك الدنيا والآخرة هو الله وحده ، والانحدار من هذا الرأي إلى القول بالعفو عن السارق واستنكار القصاص من الجناة والمذنبين والتبرم بعقاب المجرمين ، وشتان بين هذا وبين موقف الدين من القصاص كقوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، وغير هذا كثير .

اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله :

وقد ذكرنا في مستهل هذا الكتاب ما انتهى إليه الكثيرون من الخروج على قواعد الدين ومقتضيات العرف ، بارتكاب المعاصي على ملأ من الناس ، والتقصير في القيام بتكاليف الدين . وقد مهدوا لذلك برفع أنفسهم فوق كل نقد وملامة ، فأحاطوا أنفسهم بهالة من التقديس والإكبار ، وبالغوا في ذلك مبالغة لا يقرها دين ولا يسفيها عقل ، فزعموا أن الله يخضع على المقرين من عباده مواهب تخرجهم عن كافة الناس ، وترفعهم عن عجز البشر إلى مرتبة الأنبياء ، بل إن مرتبتهم لتعلو على مرتبة الأنبياء والرسل . قال الخواص : « إن الأولياء قد أوتوا القدرة على الاطلاع على علوم الأنبياء من غير وساطة ، ولولا أن الله طالبهم بالأدعاء ما ليس لهم لادعاء النبوة ، ومن هنا قال عبد القادر الجيلاني : أوتيت معاشر الأنبياء اللقب وأوتينا مالم توتوا — أي حرم علينا اسم النبي مع اطلاعنا على علمه من طريق الكشف كما يقول الخواص (١) .

بل تبادوا في شططهم فتركوا الكلام في وجوه الشبه بين الولي والنبي وأخذوا يعددون وجوه الشبه بين الله والولي ، قال تعالى : « وإنما أمره إذا

أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فادعوا أن الأولياء قد أوتوا ما يشبه هذه المقدرة ، فإن الله يعطيهم لفظه كن ، ففسير الدنيا في ركاياهم ، تستجيب لأمرهم وتنصاع لأشارتهم^(١) .

وتواضع بعضهم فقال إن القدرة التي يوثاها الولي ليست قدرة مطلقة كقدرة الله ، فليس في وسع الولي أن يخاق شيئاً أو ينزل مطراً أو ينبت زرعاً إلا أن يشاء الله ، على أن الاستثناء بمشيئة الله يبرر تقيد القاعدة في كل حين ، لأن مدعى الولاية كثيرون ، بل قال بعضهم إن الفقير مهما ارتفعت درجة معرفته في الطريق لا يستطيع أن يجعل الشوك تفاحاً لأن الحقائق لا تبدل^(٢) ولكنهم كانوا مع هذا يعتقدون أن الولي يستطيع أن يبول على الرصاص فيستحيل ذهباً ، وعلى الصفيح فيتحول ماساً بإذن الله . ١١٠ على أن اعترافهم بأن قدرة الولي مستمدة من قدرة الله ، لم يمنعهم من القول بأنهم يمتازون بها على الملائكة ، لما انطوى عليه الإنسان من الخلافة والنيابة على العالم^(٣) . وقد وصف الله تعالى نفسه بنوع من اليقظة الأزلية والأبدية فقال : لا تأخذه سنة ولا نوم ، فرأى بعضهم أن الأولياء قد أوتوا هذه الموهبة ، وتواضعوا فقالوا إن الفرق قائم في أن الله لا تأخذه سنة ولا نوم أبداً ، أما الولي فإنه يستطيع البقاء على هذه الحال أمداً طويلاً ، فقد كان عيسى بن نجم ، بساحل البحر المالح بثواحي البرلس على هذه الحال ، وقد مكث سبعة عشر عاماً لم يغمض له جفن في ليل أو نهار ١١٠٠^(٤) .

والله تعالى مطلع على الخواطر ما ظهر منها وما بطن ، عارف بعباده لا يستره عنهم حجاب وقد أدعوا أن المقربين من عبادة المخلصين قد أوتوا ما يشبه هذه الصفات ١١٠٠^(٥) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٦ ، لطائف المنن ج ١ ص ٥٥ ، بيت الوفاية من المناوي ص ٣٩

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦

(٣) الجواهر والدرر ص ١٢١ — ١٢٢

(٤) » » ص ١١١

(٥) » » ص ١٧٩

بل لقد بلغ بهم الشطط في ادعاءاتهم أن شبهوا الله بالولي في بغض الأمور .. فقالوا في معرض الحديث عن التجلي إن الولي يستطيع أن يعزف بالكشف ما يحمله غيره ، وأن الحق تعالى كذلك . II يتجلي في الثلث الأول من الليل للأبصار ، والثلث الأوسط للأجسام الشفافة ، وفي الثلث الأخير للأجسام الكثيفة ، ولو لا هذا التجلي ما صحت معرفته تعالى لأحد من الخلق ، فاعلم ذلك فانه من علم الأسرار ، أي العلم اللدني — كما يقول الشيرازي (١) ، وقد أشرنا من قبل إلى أنهم أوجبوا على المرید أن يذكر شيعته في كل أوقاته ، أما ربه فحسبه أن يذكره في غالب أوقاته .

وكان أصحاب هذه الدعاوى على يقين من أنهم سيتهمون بالزندقة ، فقالوا إن هذا الاتهام إذا وجه إلى الأولياء كان الشاهد العدل على التزامهم بالشرع على أكمل وجه وأنهم صورية ، لأن الولي إذا بلغ درجة الحقيقة ، زال الوجود في حسه ، وأصبح لا يرى إلا الله ، ومن لا يرى غير الله لا يختص بكلامه بدين ولا ملة ، فلا يسع الصديق إلا أن يرميه بالكفر والالحاد غيرة على شريعة محمد ، ولا بد لكل سالك (٢) من الوقوع فيما وقع فيه الخلاج إلا أن يشاء الله (٣) .

وبهذا فقد أضحت الولي في عرفهم لها صغیرة ، لا بل كان أعظم من الله — والعباد بالله ، وقد حملهم هذا التصور الجامع على أن يكفلوا له من الحقوق على أتباعه ما لله على عباده ، فكما أن الدين يطالب المؤمنين بطاعة الله وامثال أوامره في شتى الصور والألوان دون اعتراض ولا إنكار ، فكذلك حثم أرباب الطريق على المریدين أن يتصاعفوا لأوامر شيعتهم بالغيا ما بلغ الشطط فيها ، فحرموا عليهم التردد في طاعة أمر ، أو التفكير في مبرراته أو

(١) الجواهر والدرر ص ٥٨ .

(٢) في إشالة تكميلاً الأنصاري في بيان الألفاظ التي يتداولها الصوفية أن السالك موجهة ،

فوق المرید ودون العارف .

(٣) الجواهر والدرر ص ٣٠٩ .

النتائج التي تترتب عليه ، وقالوا في تعبير يلائم تصورهم ، كما أن الله لا يقبل في محبة شريكاً له ، فكذلك الشيخ لا ينبغي أن يقبل من مريده أن يشرك به أحداً من الأشياخ أو غيرهم . . . أو كما أن الإنسان ليس له إلهان ولا للمرأة زوجان ، فكذلك المريد لا يجوز أن يكون له شيخان ، بل ساروا في شططهم حتى قالوا إن أوامر الشيخ إذا تعارضت مع أوامر الله ، وجب على المريد أن يطيع شيخه ويهمل أوامر ربه ، فإن الشيخ لا يريد من وراء أوامره إلا مصلحة مريده ، والمريد الذي يتردد في طاعة شيخه إذا أمره بإهمال الصلاة أو الكف عن الصيام أو تطليق زوجته وفراق أولاده . . . لغير ما سبب معروف ، لا يفلح في الطريق أبداً ولو كان على عباده الثقيلين . . . إلى آخر ما عرفنا من قبل .

ومن هذا نرى أن الولي لم يكن في عرفهم إلهاً صغيراً ، بل كان أعظم من الله الذي يدعون الفتاء في حبه والحياة من أجله ، وما كان هذا المذنب ليرضى الكثيرين من العلماء .

فلما هبوا لأنفسهم هذه القداسة كلها ، واطمأنوا على ما أوجبوه على المريدين والناس من رفع الأولياء فوق كل نقد وملامة — بالغاً ما بلغ شذوذ سلوكهم واعوجاج تفكيرهم ، أعلنوا أن التكاليف الدينية قد سقطت عن الأولياء ، فجاز لهم أن يحرروا أنفسهم من تبعات الدين وفروضه ، ويتمرّدوا على أوامره ونواهيه ، وقد أدت بهم هذه النظرة التي فشت في هذا العصر إلى إهمال الصلاة والصيام والتقصير في سائر فروض الدين ، ثم الخروج على نواهيه بالزنا في النساء والفسق بالغللمان وتعاطي الحشيش والأفيون وشقى ضروب لمخدرات جهارا أمام الناس دون تورع ولا استحياء — كما عرفنا من قبل — وقالوا إن العبد إنما يتقيد بأوامر الدين ونواهيه رغبة في الوصول إلى الله ، فإذا وصل جاز له التحرر منها جميعاً . . . وما كان هذا الجهر بارتكاب

المعاصي والتقصير في القيام بالطاعات ليرضى كافة الفقهاء — ولو كانوا لا يلتزمون في حياتهم العمل بأوامر الدين ونواهي .

التنافس من أجل الدنيا :

يضاف إلى هذا كله سبب لا يقل في خطورته عما أسلفناه — إن لم يكن أعظمها جميعاً — ذلك هو التنافس على الزعامة ، فقد كانت الصدارة بين الناس في هذا العصر موزعة بين الفقهاء وأرباب الطريق ، وكانت ذات مكان موقر من الأمراء والأثرياء والناس عامة ، فكان طبيعياً أن يشور الحسد في نفوس المتنافسين على الظفر بهذه الزعامة ، وأن تشتعل الضغينة في قلوبهم ، وقد أشار إلى ذلك الشعرا في نفسه (١) ، وقد عرفنا أن العلماء كانوا يكثر من التردد على بيوت الأمراء ، وقل منهم من لم يعرف عنه ذلك كما روينا عن الجبرتي في أكثر من موضع ، وأن مشايخ الطرق كانوا على اختلاف نزعاتهم يتصلون بالأمراء ويأخذون منهم الهدايا والأموال — حتى الذين كانوا يعلنون احتقار الظلمة من الحكام — وقد كان الأمراء يعلنون مرضاتهم عن ذلك ، وإن كانوا يبطنون احتقارهم ويضمرون السخريّة بهم ، وليس من شك في أن هذا التهافت على دور الحكام كان بثير في نفوس الطائفتين أعمق ضروب الحقد والضغينة .

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى الإنكار على الفقهاء ، عرضناها موجزين بعد أن عرفنا مظاهر نفوذهم عن شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، ونريد الآن أن نعرف أثر التصوف في توجيه الحياة المصرية ، وليس يتبنا لنا ذلك ، من غير أن نعرف نظرة هؤلاء الشيوخ للحياة في شتى صورها وألوانها .

(١) البواقيت والجوامع ج ١ ص ١٤ وقال في ج ٢ ص ٨٧ نفس المصدر أن سبب الإنكار دلة المدارك ، وفي الكبريت الأحمر ص ١١ ، ١٢ أن أصل الإنكار إبليس .

فصل ختامى

عن

أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية

تمهيد — نفوذ أرباب الطريق عند المصريين : مجاورين كانوا أو أتباما
ومعين ومنكرين — أثر تعاليمهم فى توجيه الحياة المصرية فى العصر الثمانى
وما بعده — موقف الاسلام من هذا التوجيه ، والهوة التى تفصل بين تعاليمه
ومختلف آرائهم فى الحياة العلمية والمقلىة والعملية والخلقية — خاتمة

تمهيد :

أبنا فيما أسلفنا عن نظرة أرباب الطرق إلى الحياة فى شتى الصور ومختلف
الألوان (١) ، ولا حظنا بمدى اتصال هذه النظرة بسلوكهم ، ومبلغ توجيهها
لحياتهم ، ونحاول الآن أن نربط أطراف الموضوع الذى انصبّت الرسالة
على دراسته بكلمة موجزة ، نصل بها ما انقطع من أوصاله ، أو نكشف
فيها عما استتر من أجزائه ، لنبين منها أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية ،
مستعينين بترداد بعض ما أسلفناه وتكرار ما أسهبنا الحديث فيه ، لنثير فى
الذاكرة ما يعيننا بما شرحناه ، ونستغله فى إثبات ما ادعينا فى مقدمة الرسالة
حين قلنا إن الحياة المصرية لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بعد دراسة دقيقة
مفصلة تناول بالإيضاح ما مر بأهلها من حركات الدين ، وما استغرق عواطفهم

(١) فصلنا الحديث عن هذه الموضوعات فى عدة فصول عن «نظرتهم إلى الحياة العلمية
— العقلية — الخلقية» — الخلقية « وخلاصتها فى الباب الثالث من كتابنا «مهم
الشرائى — لأنه كان يمثل مذاهب التصوفة فى هذا العصر فى هذه الميادين كلها ، فليرجع إلى
كتابنا عنه من شاء التوسع فى فهم ذلك .

من تياراته، واستوعب أذهانهم من موجاته، لأن الأفكار التي تداع باسم الدين تفشو بين الشعوب — في عصور الاضمحلال خصوصا — وتتخذ صورة العقائد عند الناس، ومن شأن العقائد أن تستعيد معتقبيها. وتستبد بهوام وتهمين على توجيه حياتهم وتحديد تصرفاتهم والتحكم في وجودهم — كما يقول المحدثون من علماء النفس والاجتماع، ولهذا لم نكن مبالغين حين قلنا إن الذين يدرسون الحركات الدينية التي مرت بالشعب المصري يقدمون لمؤرخ الحياة المصرية تفسيرا جديدا لظواهرها، وفهما واسعا لمختلف جوانبها، ويعينونه على أن « يفلسف » التاريخ كما أشرنا في مقدمة الكتاب .

وينبغى أن نقول في التمهيد لهذه المحاولة إن التصوف الذي قام بين المصريين كان — فيما يرجح على الظن — أقوى الحركات الدينية توجيهها لهم وأعظمها أثرا في حياتهم، لأنه كان في عرف الناس زبدة الدين وخلاصته، وأنا تناولناه في المرحلة التي استفحل فيها أمره واستشرى فيها داؤه — ولكن هذا الترجيح لا ينسبنا التصريح بأن الاقتصار على دراسة التصوف قد أعجزنا عن تفسير القليل من ظواهر الحياة المصرية على ضوئه، وإن كان يقدم لنا حلولا للكثير من المعتقد في ظواهرها، بل لعله ينهض بتفسير المجهول منها أو يضطلع بإزالة نواح من الغموض الذي يحوطها وإن عجزنا عن بيان ذلك في هذا الفصل، فإن المصريين كانوا في هذا العصر — على ما عرفناه — أسرى شيوخه وعبيد تعاليمه .

وتصادفنا عقبة أخرى عند الإقدام على هذه المحاولة، وهي أن الحياة المصرية في العصر العثماني لم تؤرخ إلى يومنا الحاضر تأريحا مفصلا دقيقا، فكيف يمكننا أن نحدد الصلات التي تقوم بين تعاليم المتصوفة وهذه الحياة التي لا يزال الكثير من جوانبها غامضا مجهولا ؟ لقد عرفنا خلال دراستنا بعض نواحيها وبقى بعضها الآخر في خفاء وغموض، فهل من حقنا أن

نستعين على معرفة الغامض منها بفهمنا للحياة المصرية في وقتنا الحاضر ؟ .. إن مصر قد اتصلت بالغرب بعد انقضاء العصر العثماني واحتك أهلها بمدنيتها، فبعث فيهم هذا الاتصال روح التمرد على تقاليدهم والثورة على المألوف من عرفهم، والاتجاه إلى السير في طريق المدنية الغربية، ومن ذلك بدأت الحياة المصرية تأخذ اتجاهاً ياعد بين المصريين وروح التصوف، ويجعل تفسير حياتهم الراحنة على ضوء التصوف وحده شططا في الكثير من مواضعه ...

ولكن لماذا نسمى هذا شططا ؟ .. إن في الشعب المصري طبقة تمثل إلى يومنا الراهن سواده الأعظم — هي قطعة من الماضي السحيق تخلفت عنه والزمان ماضٍ في طريقه لا يبطيء في مسيره ولا يثقل رجلاه ليذكره المتخلفون عنه والراغبون في اللحاق به، فظلت هذه الطبقة تحيا على تراث هذا الماضي وتقاليد .. إنها توشك أن تثبت أن التطور الذي يشمل الحيوان والجماد، لا سلطان له على هذا الصنف من الناس، فهو صنف يمتاز بالوفاء المطلق لتراث الماضي والحرص الشديد على نقله إلى الجيل الذي يليه دون زيادة ولا نقص .. ١١

نحن مضطرون لمعرفة الأثر الذي كان للتصوف في توجيه الحياة المصرية إلى الاستعانة على فهم الغامض من ظواهرها، بحياة الريفيين ومن في حكمهم في وقتنا الحاضر، لأن الحياة تنحدر إليهم تركة يرثها جيل بعد جيل.

على أن ذلك كله لا يمنعنا من التصريح بأن تفسير الحياة المصرية في شتى ظواهرها على ضوء التصوف وحده، محاولة جريئة تنذر بالخطر وتغرى بالشطط وتقود إلى مهاوى الزلل، والمنهج العلى يحب الحذر ويوجب الحرص ولا يميل إلى الإقدام على المخاطر، ولكننا نرى الإقدام على هذه المجازفة في ختام الرسالة « شراً لا بد منه، ولهذا أقدمنا عليها بعد التزود بما تسمح

الطاقة من الحيلة والحذر — والآن إلى إثبات ما ادعينا :

نبرههم عند المصريين :

كان المصريون إزاء شيوخ الطريق بين مجاورين يقيمون في الزوايا طامعين كاسين من أحباسها وأموال الأغيار وهدايا المحسنين متفرغين لعبادة الله ، وأنباع يحترفون العمل في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة ولكنهم يقضون فراغهم — وما كان أوسع — مع أرباب الطريق يستقون منهم العلم بالدين والدنيا ، ومحبين يلتقون بالشيوخ بين الحين والحين تيمنا بركتهم والتماسا للعلم والدين واعتقادا في صحة ولايتهم ، ومنكرين كانوا — فيما يرجع على الظن — لا يؤمنون بولاية شيوخهم ، ولكنهم شديدو الإيمان بغيرهم من أرباب الطريق ، وبين هذه الفئات التي أسلفناها وجد أرباب الإحسان وأولو الحكم وأهل الفقه .

ينبىء هذا التصنيف بأن المصريين — في الجملة — كانوا على اختلاف طبقاتهم وتباين هياتهم يؤمنون بالتصوف ، وإن أنكر بعضهم على شيخ آمن بغيره ، ولذلك تساؤوا جميعا في التأثير بتياراته والسير في ركابه ، وهذا كلام موجز يعوزه التفصيل فلنتناوله بالإيضاح :

المجاورة :

حفلت مصر — على ما عرفنا — بالزوايا التي يقيم فيها ألوف المريدين يعبدون الله على طريقة شيوخهم يستقون العلم والدين من معينهم ، ويحملون لهم من القداسة ما لم يحملوه لله ورسله وملائكته ، فقد كان من لزم آداب المريدين نحو شيخهم أن يؤثروا طاعته ولو كان فيها عصيان لأوامر الدين وتمرد على نواهيه ، ويخفوا إلى تنفيذها ولو أدت إلى طلاق الزوجة وفراق الأولاد ، وإن جهلوا العلة في أوامر الشيخ والحكمة التي أدت إليها ، فإن تردد

المزید فی الاستجابة لهذه الأوامر - بالغاً ما بلغ الإجحاف فيها وجب على الشيخ أن يخرج من زاويته ويطرده من رحته ورضوانه .

وما كان سلطان الشيوخ على المجاور ليقف عند الذين أو يقتصر على ما تتطلبه الأخرى فقد تجاوز ذلك - بأنهم الدين - إلى الدنيا وشؤونها ، فجرموا عليه الأقدام على عمل أو الشروع في أمر منهم دون استشارة الشيخ والالتقاء لمشورته - وإن وضح له فسادها فإن اقترع في دنياه إنما وجب عليه أن يبادر إلى شيخه ، ليعترف ، على يديه ويلتمس منه العمل على تطهيره من ذنوبه ، وبذلك أضاع الشيوخ الطريق لسلطان على مزیدیهم لا يقره الإسلام وإن أباحت المسيحية - أو أحله القسطنطين أنفسهم (١) على ما عرفنا من قبل .

على أن قد أشرنا إلى أن المريدين كانوا لا يلتزمون العمل بتعاليم الشيوخ إذا نصبت على مقاومة الفرائز رأساً - كمقاومة الملكية وإلغاء الأنانية ونحوها ، ولكنهم كانوا في سائر نواحي الحياة متابعين للشيوخ ، أو أدوات في أيديهم يسخرونها كما يشاؤون . بل أجبر من الأدوات إذا كانت الحقوق تعوزهم والواجبات تثقلهم فكانوا في زواجهم وتربية عقولهم وتنمية أجسامهم وتهذيب نفوسهم ومعاملة بعضهم لبعض ، وسائر جوانب الحياة خاضعين لأوامر الشيوخ - ما لم تتصل بالفرائز اتصالاً مباشراً وثيقاً .

ولكن لماذا نحاول الكشف عن أثر التصوف في توجيه الحياة عند هذا الصنف من المريدين ؟... إن حياته موزع يتخلله الكلام والحركة ، كان المجاورون في حاجة إلى العمور بالعبادة والكرامة - وكانت الواجبات تخرج حدودهم وتقتضيه ظهورهم دون أن يكون لهم حقوق معروفة ، فكانوا بذلك أخط من الحيوان والجماد على ما عرفنا - ولتكن عنا بالاشارة إلى

(١) أنظر كتابنا عن الشرقي إمام التصوف في عصره عن صلة تعاليمهم بالمسيحية ، وعن نموذج من ملاقاتهم بالمريدين .

حياتهم في هذا الفصل لأنها كانت إيجاء قوياً ، للتصلين بهم والمتمنين بركاتهم من زوار الزوايا والمتصلين بهم في المساجد والمحكين لأي سبب من الأسباب ، وعلباء الاجتماع يعرفون أثر الإيجاء في حياة الشعوب .

الأتباع والمحبوبون :

ونريد بهم أهل العلم والأدب وأولى الحكم والسياسة وأصخاب الحرف وغيرهم ممن كانوا إذا فرغوا من أعمالهم سارعوا إلى الشيوخ وبجوارهم وسعدوا بالجلوس إليهم والاستماع إلى أحاديثهم ، والتأثر بتعاليمهم ، وفضوا في ذلك فراغ وقتهم — وما كان أوسع — وكانوا لا يرون في الطريق أحد مدعى الولاية إلا تهافتوا عليه وتزاحوا حوله وتسابقوا إلى تقبيل يديه والتراعى على قدميه .

وقد عرفنا أن الشيوخ قد قسموا مصر إلى مناطق نفوذ ، وأن صاحب المنطقة كان يمنح نفسه الحق في امتلاك أرضها واستغلال غلاتها والاستيلاء على أهلها وكان الناس يسلبون له بهذا الحق راضين مغتبطين ، كما يقول الشيخ الصعيدى والشعراني وغيرهما — والناس من فرط الخضوع لسلطان الشيوخ يسارعون إلى المساهمة في كل ما ينظمه الشيخ معلنين الرضا به والاغتباط له — ولو كره بعضهم ذلك لعجزه عن الاضطلاع به ، فقد كان التقصير في ذلك — أياً ما كانت أسبابه — فضيحة ، في عرف الناس كما يقول مؤرخو العصر .

لقد كان السفاكون والمجرمون وقطاع الطرق يتقادون للشيوخ ، بل يبادرون إلى الاتصال بهم وطلب المغفرة على يدهم ويحتملون منهم كثيراً من ضروب العذاب وألوان العقاب ، ويسيزون في مواكبهم في الشوارع مقبدين في السلاسل والأغلال غير شاكين ولا برمين ، كان الشيخ إذا نظرت في طريقه إلى أحد المجرمين تبعه المجرم من تلقاء نفسه مستسلماً مستقراً . . . فآية حكومة من حكومات الأرض قد تها لها هذا السلطان . . . لا تكاد نعرف

نباولا رسولاً تهبأله نفوذاً أعظم من هذا النفوذ الذى توافر لهؤلاء
الأدعياء... ١

بل ماذا يقول المؤرخ فى وصف المحبة التى انطوت عليها الجماهير لأعظم
الرسل والأنبياء الذين عرفتهم الدنيا فى قديم الزمان أكثر من قول صاحب
النور السافر فى السيد محمد البكرى : « وكان إذا قام من كل مجلس جلس فيه
للتدريس فى الجامع الأزهر أو غيره يتقدم إليه الناس لتقيل يده والتبرك
بدعائه إلى ذاك والقرب من موضعه الشريف الذى هو موضع الرحمة ، ويقع
بينهم ازدحام عظيم وربما سقط بعضهم تحت أقدام الناس وحوله إذ ذاك
جماعة من جند السلطان الروم (الترك) وغيرهم وقد حلقوا بأيديهم خشية
عليه من الايذاء. بالازدحام وربما أخذ واحد منهم يده الشريفة وهى معدودة
لتقيل الناس لطول مداها لهم إذ كان يقف بعد درسه نحواً من ساعة زمانية
ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية فى الازدحام عليه إلى أن يصل إليها .
ولا ينبغي قط أن نقول إن هذا شبيه بحب الجماهير لزعماء السياسة فى
وقتنا الحاضر ، فإن أكثر استقبالاتهم التى نراها فى السينما أو نقرأ عنها فى
الصحف مدبرة قد نظمها أتباعهم قبل وصولهم إلى مكان الاستقبال ، وأعدل
شاهد على ما نقول أنا كثيراً ما نرى هؤلاء الزعماء أنفسهم يسرون فى
الشوارع وحدهم والناس ينظرون إليهم متهاسين مشيرين إليهم قائلين : فلان
باشا ... ولا ازدحام هناك ولا حفاوة ..! وذلك فوق أنهم لا يتصلون بالجماهير
— فى الأغلب والأعم — اتصال هؤلاء المتواضعين ، ولذلك أثره البين فى
تهافت الشعب عليهم وشوقه إلى التطلع إليهم .

بل لقد كان الشيخ يمضى إلى المكان القفر فيقيم فيه زاوية فسرعان ما
يتهافت عليه الناس ويبادر إليه الفقراء وتقام حوله المساكن تبركاً به وتيمناً
بمجاورته فإذا المكان القفر عامر ..! روى صاحب تكميل النور السافر^(١) عن

محمد المنير أنه تسامع نبأ ولد كان في صحبة أمه ومات عطشا جمة بليس ،
فضى إلى هذا المكان القفر الذى مات فيه الولد وحفر فيه بئراً وأقام على كثب
منها زاوية له ، فسرعان ما أقيمت المساكن حوله وكثر الفقراء عنده فإذا
المكان القفر قرية عامرة وإذا الزاوية ملئت المعجبين بالشيخ المؤمنين به ،
ومحط الراحلين إلى الفرس والشام وغزه أو العائدين من هذه البلاد
إلى مصر ١٠.

فالتفوذ الذى تهباً لشيخ الطريق عند المصريين إبان العصر
العثماني لم يتوافر نفوذ أعظم منه — من قبل ولا من بعد — لزعيم ولاني
ولا رسول ١١.

ولقد كان بين المحتفين بهؤلاء الشيوخ الشعراء الذى تعقبهم في قصائدهم
المتعددة بالمديح والثناء ، والأغنياء الذين اشتد بهم الحب والإيمان فتجردوا
عن أموالهم وما يملكون وحبسوه على الشيخ وذريته ومجاوريه حتى عاشوا
في الزرف الذى أسلفنا الحديث عنه ، وحكام البلد الذين يتعالون على الشعب
ولكنهم يخرون سجداً أمام أرباب الطريق ويقومون أثناء زياراتهم للزوايا
بأقل الخدمات لأقذر الفقراء ، وعلماء البلد الذين كانوا يتسامعون نبأ فقير
يقم على أبواب المساجد أو في الخرائب المهجورة فيبادرون إلى زيارته
ويقفون أمامه خاشعين حتى يأذن لهم بالجلوس إلى جواره ، فإن ضن
عليهم بذلك وبخل بالالتفات إليهم فترة من الزمن انصرفوا عنه آسفين . . . ١١
والمنكرون من هذه الفئات كانوا — فيما يرجع — على إيمان صادق بالتصوف
والمخلصين — في عرفهم — من رجاله ، فكان إنكارهم منصبا على أفراد
بعضهم ، وقلبا كان يصادفنا في دراستنا منكر يثير العثير في وجوه المتصوفة
جميعا ويعلن بسخريته بالتصوف وأهله إطلاقا . . .

كان المصريون — خاصة وعامة أسرى الشيوخ وعبيد الإيمان بولايتهم ،

وكانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر - بتعاليمهم ، يتلقونها منهم عقائد تستعبد لهم وتسير دفة الأمور في دنياهم ، ولهذا وجب أن نعرف الأثر الذي خلفه التصوف في نفوسهم ومدى توجيهه لحياتهم ، وذلك بأن نعرض بعض جوانب نظرتهم إلى الحياة ونحاول الكشف عن علاقتها بحياة المصريين في العصر العثماني وما تلاه من عصور .

أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في العصر العثماني وما بعده :

تساوت في نظرهم شتى العلوم المعروفة في عهدهم - من دينية ولسانية وعقلية وغريبة - فاعتبروا الاشتغال بها انصرافا عن أقدهم واجب يقف عليه الإنسان حياته وهو العبادة والذكر والتهجد ، فهاجموها علما علما (١) فكان من أثر هذا الهجوم عند الفقهاء وحملة الشريعة - لا عند عامة الناس فحسب - أن ذهب طالب علم إلى شيخ الإسلام القسري الحنبلي وطلب إليه أن يدرس الملتقى على يديه - فقال له الشيخ : يا ولدي قد صار الفقه ثقلا على قلبي ، فكيف يعلم أفتي بعض العلماء بتحريم الاشتغال به ؟ ، فقال له الطالب ، يا مولانا إن العلم عبادة فقال له الشيخ : صحيح ذلك ، ولكن ما وجدنا في العلم رقة قلب بخلاف الذكر والاستغفار ، مع أن فضل العلم على غيره مشروط بحصول الإخلاص فيه وما أظن أن عندي إخلاصا ١١ ،

ولاشك أن حملاتهم على العلوم كانت ذات أثر كبير في ثورة الناس على السياسة العلية التي رسمها محمد علي باشا بعد انقضاء العصر العثماني - ومقاومتهم لمدارسه التي انصرفت عنايتها إلى دراسة العلوم الحديثة ، ولاشك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير في مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير

(١) أنظر ذلك في الفصل الذي عقدناه من مذهب الشراف في الحياة العلية في كتابنا عنه (النصل الأول من الكتاب الثالث)

الحديث^(١) ، ولا شك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير في مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير الدينية في برنامج دراسته ، وقد أحس أولو الأمر بما سليقونه في هذا السبيل من تعصب وضيق فهدوا لذلك بفتوى وضع صيغتها السيد محمد بيرم بعد أخذ وعطاء بينه وبين شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الإنابى ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد البنا ، فقال بعد الديباجة : ما قولكم رضى الله عنكم هل يجوز تعلم المسلمين العلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات ... ؟ ، فأجاب الإنابى بحواز تعلم هذه العلوم وضرورة العلم بما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية ونحريم الاشتغال ببعضها إذا كان على طريقة الفلاسفة . ١١ ووافق البنا على ما كتب الإنابى ، وكان ذلك عام ١٣٠٥ هـ ولم يعمل بهذه الفتوى إلا بعد مضى تسع سنوات أخرى ١٠ (٢) ولهذا أيضا دلالة .

والناحية العلمية كانت فيما نرى أقل نواحي الحياة المصرية تأثرا بالتصوف ، إذ كان بين القائمين عليها المهيمنين على شئوننا ألد من عرف المتصوفة من أعداء ، وكانوا أصحاب نفوذ على طلبة العلم أدى إلى ازدحام حلقات دروسهم بمئات الطلاب ، وكان بعض المتصوفة يلقون دروسا في رحاب المساجد على طريقة الفقهاء كمحمد البكرى في القرن العاشر ، والمناوى في القرن الحادى عشر والبيومى والدردير والشبراوى والحفناوى في القرن الثانى عشر ، فأضعف هذا من أثر الداعين للجهالة من أهل التصوف الخالص ، وقد ساعد على هذا ما كان يشيعه أعداء المتصوفة من الفقهاء عن زندقة أرباب الطريق وتمردهم على قواعد الدين . على أن ذلك كله لم يمنع من انتصار مشايخ الطريق على الفقهاء في أكثر مراحل النزاع القائم بينهم ، وهل أدل على ذلك من انتصارهم

(١) تاريخ الأزهر ص ٢٥ — ٣٨ ، وقد أشار إليها جرجى زيدان في تاريخ آداب

اللغة ج ٤ ص ٣٢

(٢) وصلنى تجارب الملازم الثلاث السابقة وأنا بالمستشفى فنفضل بتصحيح هذه التجارب

صديقى الأستاذ جمال الدين الشبال وتلميذى الآله صفة الصنع فلها الشكر الجزيل

على العلماء في أقوى حصونهم وأمنع قلاعهم في الأزهر.. لقد تولى مشيخته بعض من كانوا علماء ومتصرفة معاً كالشبراوى + ١١٧١ هـ والعروسي + ١٣٠٨ هـ والحفناوى + ١١٨١ هـ، فكان لذلك دلالة ومغزاه.

كان هؤلاء الأدعياء - على ما عرفنا - منقسمين إلى معسكرين، لم يتورع أحدهما عن الدعوة للجهالة جهاراً، ولم يستح ثانيهما من الاتفاق مع الأول في الجهر باحتقار العلوم الشائعة والدعوة إلى العلم للدنى وحده، واتفق المعسكران كذلك على تحريم التأويل واحتقار التفكير وإيثار الظاهر على الباطن - لغير أولياء الله - ولا شك أن هذه الدعوة كانت ذات أثر كبير في ركود الحياة العقلية عند المصريين في العصر العثماني، فتعاون الفقهاء مع أرباب الطريق على إذاعة الدعوة الخطرة وقد ورثتها الأجيال التي أعقبتهم، فما نزال إلى اليوم نرى الذين يحرمون تأويل الآيات والأحاديث ويتهمون بالزندقة كل من أقدم على ذلك ولو كان من كبار حملة الشريعة، وقد قاسى الشيخ محمد عبده وغيره من أساطين الدين كثيراً من جراء ذلك.

لا نريد أن نبالغ فنقول إن أرباب الطريق كانوا مبعث الركود الذي شمل العقل وطفى على العلم في العصر العثماني، فإن الشلل العقلي كان قد أصاب العالم الإسلامي كله منذ عام ١٢٠٠ للميلاد حين انتصر حزب السنة وقضى بتعصبه على حرية العقل وعمل جاداً على خنق الحرية الفكرية كما يقول الأستاذ نيكلسون في الفصل الأخير من كتابه «تاريخ الأدب عند العرب»^(١) ولو أن الحياة العقلية في مصر كانت ناضجة ما استطاع هؤلاء الأدعياء العيش في رحابها والتنفس من نسيمها، على أن ذلك لا يمنع من القول بأن المتصوفة قد استغلوا الركود الجاثم على صدر الأمة، وعملوا على تقويته بتعاليمهم المريضة، فساهموا بنصيب وافر في الانحلال الذي أصاب العقل المصري إبان العصر

العثماني . ولا سيما إذا عرفنا أن مصر كانت زعيمة العالم الإسلامي كله أيام سلاطين المماليك .

فإذا تركنا أثرهم في الحياتين العلمية والعقلية وتبعناه في الحياة الاجتماعية ، عرفنا أنهم في الأغلب والاعم قد صوروا الدنيا في صورة جسر يعبر عليه الانسان إلى أخراه — إلى المقام الأبدى والدار الباقية — والعاقل من استغل وجوده بها ووقف حياته على التزام الطاعات ومواصلة العبادة والاخلاص في الذكر حتى تفتى بشريته وتصل نفسه بحضرة الله وتنعم في رحابها بما لم ينعم به إنسان ، وتستمد من معينها شتى الهبات التي لا يظفر بها إنس ولا جان ، فأدى بهم هذا التصوير القبيح للدنيا وقيمتها إلى القول بالغاء الملكية واحترام البطالة وإباحة النسل وتحقير ما تنطوي عليه الحياة من لذات وإغراء الناس بتكلف الحزن واصطناع الضيق والسعى إلى مواطن الذل والاغتياب بالهوان والاطمئنان للمستقبل الغامض والقناعة بالتافه من شئون العيش والاستهانة بالمادة والاستهتار بالمال والاكتفاء برحمة السماء .. ألغوا الملكية اعتمادا على أن الله وحده مالك الدنيا والآخرة وصاحب السموات والأراضين ، هو الباقي وسائر العباد قد وجدوا في الدنيا ليتأهبوا للآخرى ويستعدوا لاستقبال أهوالها .. ! وحصروا سعادة الدارين في العبادة والذكر فأنهى بهم ذلك إلى تحقير مطالب الحياة ورغبات النفس وشهوات الجسم ، فكان من أثر ذلك أن هان في نظرهم السعى في الدنيا لاكتساب المال والسكد في ميادين العمل من أجل الربح للظفر من لذات الحياة بأوفي نصيب ، وساروا في تصورهم إلى نهايته فأباحوا النسل بعد أن استهجنوا السعى وقبحوا العمل ، قائلين إن الشحاذين الذين يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه ، وإذا كان النسل مباحا محبوبا فذلك لأن الدنيا دار فناء ولا قيمة لما تنطوي عليه من لذات ،

والإنسان فيها يشبه المريض الذى حانت ساعته ، فكما أن المريض لا يفكر فى هذه الساعة إلا فى الحساب العسير الذى ينتظره ، فكذلك العاقل فى دنياه لا يفكر فى تعليم نفسه أو تحسين معيشتة وترقية مستوى حياته لأن ذلك انصراف لأتفه المطالب واهتمام برغبات دنيوية تافهة ، والإنسان الذى يعرف مكانته وصلته هو الذى لا يبيت على دينار أبدا ، وحسبه من دنياه التوكل على الله ، وما أخيب التاجر الذى يصرف وقته فى تجارته والزارع الذى ينفق جهده فى زراعته ، والصانع الذى يبذل نشاطه فى صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلبا لكسب أو رغبة فى مال فإن الرزق فى طلب صاحبه دائر ، والمرزوق فى طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فالله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون ، وصير فى القدرة الإلهية يمر بالفقراء فيسد عنهم ديونهم ويمدهم بالمال الذى يحتاجون ، والاخلاص فى العبادة كفيل باكتساب شتى الهبات والنظر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الخلوة جاها لا فقيرا ضعيفا ويخرج منها عالما واسع العلم ، ثريا طائل الثراء ، قويا موفور القوة . . . ١١٠٠

فحسب الإنسان من حياته العبادة ، والعبادة من مستلزماتها التى لا تستقيم بغيرها الإسراف فى التواضع حتى تهون على الإنسان كرامته ، وتسقط فى عينه عزة نفسه ، ويسهل عليه التفرغ تحت أقدام الناس والرضا بظلم الظالمين وبغنى المعتدين ، والاعتباط بالذل والهوان ، فإن احتمال الظلم رضا بقضاء الله وعقابه للظلم على سوء ما قدمت يدها ، ولماذا يثور المظلوم فى وجه ظالم ؟ .

لماذا الخصومة والإنسان لا يملك فى دنياه كثيرا ولا قليلا . . . ؟ ثم إن الظالم لا يقدم على ظلم أحد من الناس إلا وهو فى غفلة عن ربه ، ولو أنه كان فى يقظه لعرف أن الله يراه ، وأنه يظلم أحد عباد الله ، ولو عرف ذلك لاستحى من ظلمه وكف عنه أسفا ، ومثل هذا أحوج إلى عطف المظلوم ومرثاته منه

إلى سخطه وغضبه (١) .

بهذه العين الكلية نظروا إلى الحياة ، فأحالوا الدنيا إلى مقبرة واسعة النطاق تضم ملايين المخلوقات ، وحولوا الحياة إلى موت تتخلله الحركة ويشوبه الكلام ووضعوا هذه التعاليم التي لا تلائم غير الضعفاء والجبناء والكسالى وفقراء النفوس ومرضى العقول وساقطى الهمة ، وكانوا يستغلون نفوذهم عند الناس وينفثون في المتصلين بهم هذه التعاليم المربضة ، وتلقى المصريون عنهم هذه الآراء كما يتلقى المؤمن المخلص عقائده الدينية فلا يتردد في اعتناقها ولا يبطئ في العمل بها ، فإن ألحت على المصري حياته بالحيدة عن بعض هذه التعاليم حاد عنها أسفا على عجزه عن التزام العمل بها ، وكان هذا الأسف كفيلا بأن يشيع الفتور في عزيمته ، وكذلك كان أصحاب الحرف الذين أقاموا على أعمالهم رغم اتصالهم بشيوخ الطريق ، بل لعلمهم كانوا متأثرين في ذلك بدعوة بعض هؤلاء الشيوخ لاحترام العمل والتنفير من البطالة .

على أساس هذه التعاليم التي أسلفنا الآن إجمالها قامت الحياة الخلقية والعملية والسياسية في مصر ، خف ألوف الدراويش إلى الزوايا عاطلين من كل عمل إلا دعوى العبادة والذكر ، يحترفونها ويقتاتون من ورائها ، ويشبههم في هذا ألوف الدراويش الذين كانوا يتجولون في الشوارع والطرق ويفهمون الدنيا هذا الفهم المريض الذي لا يكلف الإنسان مشقة ولا نصبا ، وألوف غيرهم يحترفون العمل — ولكنه عمل يحوطه الاعتقاد في تفاهته ، والاحتقار لشمرته ، وإيمان بأن القناعة بالتافه من شئون العيش ثروة ليس بعدها ثروة ، ولا شك أن هذا كله قد ساهم بأوفر نصيب في ركود الحياة العملية إبان العصر

(١) انظر تفصيل هذه الآراء في كتابنا عن الشرافى في بيان موقفه من الحياة السياسية والعملية والخلفية وهي لتصل تعبّر عن روح العصر كله ولهذا آثرنا أن نهمل تفصيل هذه الآراء اعتمادا على أن ما كتبناه يصددها في كتابنا عن الشرافى فيه الكفاية .

العثماني ، فقد كان الذي يتظاهر بالتزام هذه التعاليم موضع احترام وتقدير من كافة الناس ، فكان هذا إيماءً ذا أثر قوى في الركود الذي شمل العصر كله . . .

فاذا تخطينا الزمان وتلبسنا أثر التصوف في حياة الريفين الحاليين ومن هو في حكمهم من أهل العصر الحاضر ممن تخلفوا عن الزمن الماضي فأخذوا عنه عقولهم واستعاروا منه نفوسهم وعاشوا بها بين ظهرانينا ، وجدنا أنهم لا يزالون يعيشون في الدنيا كما يعيش الحيوان الأعجم ، يقنعون ما وجدوا اللقمة التي تسد الرمق ، والرقعة التي تستر العورة ، يترددون على الحاكم - بالغا ما بلغت فسوته بهم - لا يتجاوز اغتيابه وتركه إلى الله العادل المنتقم الجبار . . .

وسوادهم الأعظم على اعتقاد بأن الشعوب لا يصيبها ظلم ولا يدركها ضنك إلا كان من غضب الله على كثرة ذنوبها وتعدد آثامها . . . فهو تعالى يعاقبها بهذا الذي تقاسيه في حياتها من مظالم وفظائع . . . أجل لا يزال في الريف من يرون أن تشاحن زعماء السياسة في يومنا الحاضر مظهر من مظاهر غضب الله على المصريين الذين استهانوا بالدين فأهملوا القيام بفروضه . . . وتمردوا على نواحيه ومساهماتهم في الثورة المصرية عام ١٩١٩ لم تكن عن إيمان بضرورتها واعتقاد بحكمة القيام بها - بل كانت عن إيماء قوى أو تقليد لبعض المستثيرين الذين زابلهم التأثير بتعاليم الصوفية في هذا الصدد . . . فهي ثورة ولدتها غريزة التقاليد وحدها . . . (وإن جاز أن يقال إن هذا هذا كان أثراً من آثار الركود والجهل الذي سبق العصر العثماني ، وجب أن يقال إن تصوف هذا العصر قد قواه ومناه) .

والقناعة عند الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف مرض قد استشرى دأؤه واستفحل أمره ووجب العمل على علاجه ، فإن الزمن قد تطور بالناس حتى أصبح التكالب على المادة والضرب في زحمة الحياة لاكتساب المال والظفر بالثراء مفخرة لصاحبه ، تعلو بين الناس قدره وترفع في عيونهم مكانته ، ولا يزال أهل الريف في مصر ومن في حكمهم يعتقدون أن القناعة كنز لا يفنى ، وأن الزهد في طلب الدنيا من مفاخر أصحابه ، والتجار في الريف

والأحياء الوطنية بالمدن يقيمون في حى من الأحياء ويفتحون متجراً يضعون فيه أصنافاً معروفة يتجرون بها ، وكثيراً ما تنصرم حياتهم الطويلة دون أن يفكروا في تغيير الحى أو المحل أو زيادة الأصناف التى يتجرون بها ، ولا يزال باعة الكتب فى الحى الحسينى بالقاهرة — لا يكررون فى فتح مكانهم ويهتمون باغلاقها قبل غروب الشمس ، ولعل ذلك أثر من آثار التعاليم الصوفية التى أعلنها الغزالي وأتباعه حين نصحوا التاجر بالآكون أول داخل إلى السوق ولا آخر خارج منه ، وكذلك نقول فى بقية الباعة بهذا الحى وغيره . وإن جاز أن يقال إن هذا من تقاليد الإسلام السابقة على تصوف العصر العثمانى .

وقد تغلغلت هذه النظرة فى هذه البيئات وأثرت فى الجاهل منها والمتعلم ، وكان من أثرها البليغ فى المتعلمين من أهل الثقافة الصوفية القديمة ما نراه عند شيخ من شيوخ الأزهر يدرس لطلبته « الجغرافيا الاقتصادية » منذ بضعة أعوام فيقول لهم فى مذكرات مطبوعة : إن من نعم الله على المصريين أن سخر لهم الأجانب يقومون عنهم بالأعمال الاقتصادية والمالية حتى يتفرغوا هم (المصريون) لعبادة الله . . . فهذا الشيخ — عفى الله عنه — يعتبر من نعم الله على المصريين قيام الأجانب عنهم بالشئون المالية فى بلدهم واستحوادهم على شركات المياه والنور والمواصلات ومختلف مرافق الحياة الاقتصادية ، وذلك لكى ينقطع المصريون لعبادة الله فى عصر بلغت فيه زحمة الحياة والتكاليف حدما الأقصى . . . ولست أدري ماذا تكون لعنة الله ونقمته من الشعوب اذا كانت سيطرة الأجنبي على مرافق الحياة الاقتصادية فى عصر تستعبده المادة ، يعتبر نعمة يحمد الإنسان ربه من أجلها — الا اذا كان المراد أن يحمد الله الذى لا يحمد على مكروهه سواء . . .

والذين يستسلمون للحياة هذا الاستسلام المعيب ، لا ينتظر منهم التفكير فى رد ظلم أو دفع بغي أو ثورة من أجل كرامة ، وقد انحدرت إليهم — فيما يرجع على الظن — نظرة صوفية العصر العثمانى فتغيرت فى مظهرها أو تفاصيلها

ولكنها بقيت في جوهرها كما كانت أيام العثمانيين (١) لأن تعاليم التصوف تنحدر إلى الناس مع التقاليد التي يرثونها جيلاً بعد جيل .

حسبنا الآن هذا فقد طال الحديث ، حسبنا هذا لأن معين الكلام قد نضب ، فان في هذا الميدان متسعاً للحديث المستفيض ، ولكن لأن الحديث كلما طال وجب الخوف من الشطط في التقدير والجوح في الاستنتاج ، ولذا ذكر ما قلناه في مستهل هذا الفصل ، من أن هذه المحاولة التي أقدمنا عليها تغرى بالخطأ وتقود إلى مهاوى الزلل ، فان الذكرى تنفع المؤمنين .

إن الحكم على الحياة الاجتماعية عند الشعوب وتعليل ظواهرها ليس أمراً هيناً ميسوراً ، فربما تبدو الظاهرة بسيطة تحمل تفسيرها لكل من وقف قليلاً للتفكير في أمرها ، ومع ذلك فقد تكون معقدة إلى أقصى حدود التعقيد ، وتعليلها الصحيح قد يبلغ مكان الاستحالة عند هذا الباحث ، وأكثر الظواهر الاجتماعية — إذا لم نقل كلها — وليد علل كثيرة تتضافر على وجودها وتتعاون على إظهارها ، ولهذا كان رد الظواهر التي أسلفناها في حياة المصريين إلى التصوف وحده وجعله العلة الوحيدة في قيامها ، أمراً محفوفاً بالخطر ، على أنا لا نملك بعد هذه الدراسة الآن نقول إنه كان أعظم العوامل أثراً في قيام هذه الظواهر ..

ولكن لماذا نسينا الدين .. ؟ ألم يكن للإسلام نصيبه في توجيه الحياة المصرية إلى هذا الاتجاه الذي عرضناه ؟ ذلك ما ينبغي أن نطيل الحديث فيه ، فان الحياة المصرية كانت إبان العصر العثماني مسوقة بالحضارة الدينية وحدها ، وأريد بها تعاليم الدين وما نسب إليه من آراء ، ولم تساهم في هذا التوجيه المدنية الغربية ولا غيرها من المذنيات ، فقد كانت مصر على ما عرفنا في عزلة إلا عن العالم الإسلامي ، وكان هذا العالم قد أدركه الاضمحلال

(١) تفصيل هذا في الفصل الذي عقدناه على الحياة الخلفية في كتابنا عن الشمراني .

وطبع حضارته في شتى شعوبه ودوله بطابع واحد ، فلم تنفع رحلات العلماء وأرباب الطريق التي انتشرت في هذا العصر كثيرا ، إذ أنعشت الحياة في دأرتها الضيقة ، ولم تخرجها من نطاقها أو تعدل من ظواهرها وتعمل على توجيهها إلى انجاء جديد . . . والآن إلى الإسلام نشرح موقفه من مختلف مظاهر الحياة الدنيوية :

موقف الاسلام من هذا التوجيه

نتناول الآن نظرة الإسلام إلى الحياة في شتى النواحي التي فصلنا الحديث فيها ، لنعرف أن الدين برىء من أكثر هذه الدعاوى التي بشروا بها وطلبوا الناس بالتزامها ، فكان من أثر ذلك ، هذا الركود الذي شمل الحياة المصرية واستبد بأهلها هذا الزمان الطويل .

الاسلام والحياة العلمية عند الله :

دعا الاسلام إلى نصب المعلم الذي يقوم بتعليم الناس وإقامة المؤدب الذي يهذب نفوسهم^(١) ، فكان في ذلك احترام للعلم ، قال رسول الله من قال ان للعلم غاية فقد بنحسه حقه ووضع في غير منزلته التي وضعه الله فيها حيث يقول : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، وقد قال تعالى : انظروا ما في السموات والأرض ، وبكت المقصرين في النظر فقال : وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وأنذر الذين عميت عيونهم عن تدبير بدائع الكون فقال : ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وقال تعالى : وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، ومن الأحاديث النبوية التي تنطق بتقدير العلم والدعوة

(١) جمال الدين الأنطاني : الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٩

له : أفضل العبادة طلب العلم — من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم — الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا عالماً أو متعلماً — لا خير في الغيش إلا لعالم ناطق أو لسامع واع — وهل تنفع القرآن إلا بالعلم — طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة — طلب العلم من المهد إلى اللحد — ... وقد نادى الاسلام بحرية العلم فلم يحصره في بلد من بلاد الأرض ولا في طائفة من بني الانسان ، وأمر أهله باصطياد شوارده حيثما كانت وأنى وجدت فقال النبي : أطلب العلم ولو بالصين — الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها — خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت . . الى غير ذلك (١) .

وتاريخ العلم يقول إن الخلفاء قد أحاطوا بعطفتهم العلماء من كل ملة وقد فصل ذلك الأستاذ محمد عبده وأيده بسرد أسماء طائفة من رجال العلم الذين صادفوا في رحاب الخلفاء عطفاً ورعاية (٢) وما كان ذلك إلا لأن العقل العربي منذ انطلاقة من قيود الوثنية ودخوله في التوحيد المحمدي قد أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع كما يقول الأستاذ الامام (٣) بل إن العلوم العصرية والحقائق الفلسفية تزيد الدين تمكيناً وتضاعف إيمان أهله به كما يقول فريد وجدي (٤) .

وقد سار بعض العلماء في هذا الظن الى نهايته ، فقالوا ليس من قاعدة دلت عليها التجارب ولا نظرية تأمست بشهادة المشاعر وكان لها أثر في ترقية الانسان وتحسين بناء العمران الا وكانت صدى آية قرآنية أو حديث نبوي

(١) محمد فريد وجدي : المدنية والاسلام من ص ٦٦ — ٦٩ وغيرها من صفحات الكتاب .

(٢) الاسلام والنصرانية من ص ٩ — ١٧

(٣) الاسلام والنصرانية ص ٨٣

(٤) المدنية والاسلام ص ٦

كما أوضح هذا الكواكبي^(١) وفريد وجدي^(٢) ومصطفى الفلايبي^(٣) وبذلك أحالوا القرآن الى كتاب جغرافيا وتاريخ . . كما يقول عبد العزيز جاويز^(٤) وعرضوا نصوص الدين الى اضطراب العلم وتناقضه كما يقول الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين^(٥) .

على أن العلماء كانوا على اتفاق في أن الاسلام ينفر من الجهل ويدعو الى العلم ، وما عادى المسلمون العلم ولا العلم عاداهم ، إلا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل ، وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية توسعوا في العلوم الكونية وضربوا الزمان بسوط من العزة ، كما يقول محمد عبده^(٦) وقد كانت العلوم الحديثة زاهرة إبان مجد الاسلام ولم يرم المسلمون من قرأها بزيغ العقيدة ولا من استمع اليها بالضلالة والكفر ومن كان في شك من ذلك فما عليه الا أن يلقي نظرة على تاريخ القرون الأولى في الاسلام ومحافظتها على الدين مشهورة فسيزى أن جيدها كان مزدانا بكثير من فحول العلماء الذين نبغوا في العلوم الرياضية والعقلية والطبيعية ووضعوا فيها المؤلفات العظيمة وبثوا فيها التعاليم المفيدة ونشروها في أطراف الأرض قاطبة كما يقول مصطفى بك بيرم مؤيدا لكلامه بالأمثال^(٧) وما ركبت ربيع العلوم التي اخترعها المسلمون وبلغت التسعين بعد المائة كما يروى كشف الظنون الا بعد أن صارت السلطة في يد الأعاجم من التتار والمغول الذين عرفوا أن انتشار العلم يعوق مطامعهم

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٣

(٢) المدنية والاسلام ص ٤٠

(٣) الاسلام روح المدنية ص ١٩ — ٢٣

(٤) الاسلام دين الفطرة ص ٣٨ — ٣٩

(٥) من بيد ص ٥٠

(٦) الاسلام والنصرانية ص ١٥٩

(٧) تاريخ الأزهر ص ٢١ — ٢٢

في الاستبداد بالناس فافرغوا الوسع في إطفاء نوره وحصر الرعية في حالك
الجهالة كما يقول الكواكبي (١) ومصطفى بيرم (٢) .

تلك آراء فئة من المحدثين من علماء الاسلام في نظرة الدين إلى الحياة العلمية
بسطناهامؤيدة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال التاريخية ، فأين
هذا من حملات أرياب الطريق على العلوم المعروفة في عصرهم علما علما ، وعدم
تورعهم عن المفاخرة بالجهالة والسخرية حتى من العلم بأحكام الدين ، وغير
ذلك مما فصلنا الحديث عنه من قبل .

والآن إلى موقف الاسلام من العقل عند أهله .

الاسلام والحياة العقلية عند أهله :

يقول الأستاذ الجليل أحمد بك أمين إن الاسلام قد سلك في دعوته إلى
الايان بالله وصفاته من علم وقدره ووحدانية مسلكا يشير العقل ، وهو
الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر ، « أو لم ينظروا في ملكوت
السموات والأرض وما خلق الله من شيء » — « فلينظر الانسان بما خلق ،
« فلينظر الانسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا ،
فانبتنا فيها حبا وعنبا وقصبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا
لكم ولأنعامكم ، — « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق
النهار وكل في فلك يسبحون » — « ان في خلق السموات والأرض واختلاف
الليل والنهار آيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى
جنبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا
سبحانك ، — « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٧ و ٤٣

(٢) تاريخ الأزهر ص ٢١ — ٢٢

وألوانكم، الى كثير من أمثال هذا — وهذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر وكان له أثر في نمو الحياة العقلية (١) وقد روى الأستاذ فريد وجدى عن النبي أحاديث نبوية منها : أن الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له — يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه . . . — وقد أثنى قوم على رجل عند النبي وبالغوا في الثناء فقال كيف عقل الرجل . . ؟ قالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال ان الأحق يقصيب بجله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم (٢) .

وقد قال جمال الدين الأفغانى إن من الأمور التى تتم بها سعادة الأمم أن تبنى العقائد على البراهين القوية والأدلة الصحيحة ، وأن تتحاشى العقول مطالعة الظنون في عقائدها وترفع عن الاكتفاء بتقاييد الآباء وذلك مادعا اليه الدين (٣) ومن دلائل هذه الدعوة ما نراه في أصول الاسلام التى ذكرها محمد عبده وعبد العزيز جاويز والتى كان أخطر ما شأنها اعتبار النظر العقلى وسيلة لتحصيل الإيمان (٤) فكان جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام قائما على ما أباحه لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه وعبروه بالأحكام العامة التى قررها الشرع (٥) وقد جعل الله لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ومن اجتهد فأصاب أجرين كما يقول الأستاذ جاويز ، ولقد يسرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للتذكير — فهل من مذكر — أى هل من طالب علم منه ومتفهم له . . ؟ وقد قبح الدين تقليد الآباء ومحاكاة الأجداد كما ذهب محمد عبده (٦)

(١) فجر الاسلام ص ١٦٩ — ١٧٠

(٢) المدنية والاسلام ص ٦٤ — ٦٥

(٣) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧

(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٣

(٦) الاسلام والرد على منتقديه ص ٥ ، الاسلام والنصرانية ص ١٣٦

وعبد العزيز جاويز (١) وجمال الدين الأفغانى (٢) وغيرهم ، وقد ألبس القرآن الجامدين عار الجود ، ومنهم أميون لا يعلنون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ، — ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، (٣) .

ومن أصول الاسلام التى كان لها أكبر الأثر فى نشاط الحياة العقلية ، تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض كما يقول محمد عبده (٤) وعبد العزيز جاويز (٥) ثم عدم التقيد بما قاله رسول الله من معاش الدنيا على سبيل رأى (٦) وما كان ذلك بغريب فان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ويسبح به فى شعاب الأرض ويصعد به إلى طبقات السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف له سرا من أسرارهِ فى خليفته أو يبسط حكماً من أحكام شريعته فكانت جميع العلوم مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التمتع ما تريد ، فلما وقف الدين وقعد طلاب اليقين وقف العلم وسكنت ريحه ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدرج (٧) وقد سلب الاسلام من رجال الدين كل مظاهر السلطان الذى يجد من طلاقة العقل ويقيد من سعة النظر ولم يخصهم بتأويل نصوص ولا غيره مما يؤدى إلى ركود الحياة العقلية عند الناس كما يقول محمد عبده (٨) والكواكب (٩)

(١) الاسلام دين الفطرة ص ٥٤ ، ١٠٥

(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧

(٣) » » » » ص ٩٦

(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٦) نفس المصدر والصفحة

(٧) الاسلام والنصرانية ص ١١١٨

(٨) الاسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ و ٩٥ ، الاسلام والنصرانية ص ٢٠ و ٦١ و ٦٣

(٩) طبائع الاستبداد ص ٢٩

وعبد العزيز جاويش^(١) ومصطفى بيرم^(٢) وغيرهم ، حتى الرسول ، لا ينبغي التقيد بما قال في شئون الدنيا إذا كان من رأيه ، ففي الحديث « . . . وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فائما أنا بشر ، وذلك لأن وظيفته الرسل قائمة على إرشاد العالم إلى طرق النجاح والاستقامة والعدل والأخلاق الفاضلة^(٣) ولهذا نرى القرآن يصرح في وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين وجعل السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل لللاحق من علم بالأحوال الماضية واستعداد للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين »^(٤) في الحق ليس في طبيعة الإسلام ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأي ، ولك أن تقرأ القرآن وتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث فلن تجد نصا أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته أو يأخذ المقول بالجود أو يحظر عليها حرية الرأي قليلا أو كثيرا — كما يقول أستاذنا الكبير طه حسين^(٥) .

تلك طبيعة الإسلام وهذه هي نظرتة إلى تربية العقل وتنمية المدارك ، فأين هذا بالله من حملات أرباب الطريق على التفكير وتحريمهم التأويل ومهاجمتهم النظر في ظواهر الأرض والسماء وتبشيرهم بقداسة الآباء والأجداد ودعواهم بأن عام ٩٢٣ هـ (بداية الفتح العثماني) كان نهاية العلم والنظر واعتبار الفلاح في الطريق غاية لا يبلغها المرید مالم يتحول إلى أداة مسخرة في يد شيخه . إلى غير ذلك مما أسهبنا بيانه فيه سابق . والآن إلى موقف الإسلام من مقاومة الظلمة من الحكام والدعوة إلى التزود بأخلاق الأقوياء والتبشير

(١) الإسلام دين الفطرة ص ١٠٥

(٢) تاريخ الأزهر ص ٥٦ — ٥٧

(٣) الإسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٤) الإسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ (٥) من بعيد ص ٢٢

بالكد في ميادين العمل المشروع ، لنرى الهوة السحيقة بين تعاليم وآراء هؤلاء
الأدعياء .

الاسلام والحياة العملية

سارت الدعوة إلى الدنيا مع الدعوة إلى الآخرة جنباً إلى جنب في الكتاب
والسنة ، قال تعالى : وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل بكم قالوا خيراً للذين أحسنوا
في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ، ربنا آتانا في الدنيا
حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وعن النبي أنه قال : أعمل لدنياك
كأنك تعيش أبداً ولاخرتك كأنك تموت غداً - وفي حديث ثان : ليس
خيركم من ترك دنياه لاخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه
وهذه - وفي حديث ثالث : أصلحوا دنياكم وأعملوا لاخرتكم كأنكم
تموتون غداً - وغير ذلك مما رواه الأستاذ فريد وجدي (١) وقد ذهب الأستاذ
محمد عبده إلى أن من أصول الاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فإن
النبي لم يقل : بع ما تملك واتبعني - بل قال لمن استشاره فيما يتصدق به من
ماله . (الثالث والثلاث كثير انك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم
عالة يتكففون الناس) . فالحياة في الاسلام مقدمة على الدين ولهذا جوز
الاسلام للمؤمنين ترك الصيام إذا خيف منه المرض أو المشقة بل أوجب
إهماله أن غلب على الظن الضرر فيه ، وكذلك أباح إهمال الوضوء والغسل
إذا خشى الانسان منهما الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل المال ، كما أباح
الصلاة قعوداً إذا أصابت المصلي مشقة من قيامه ، وكما جوز صلاة الجمعة في
البيت إذا منع عن السعي إلى صلاة الجماعة في المسجد وحل غزير أو مطر كثير
أو مشقة .. وهكذا نجد القاعدة في الاسلام : صحة الأبدان مقدمة على صحة
الأديان وأباح الاسلام لأهله التجميل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع
بالمشتميات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود

(١) في كتابه المدنية والاسلام

الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية قال تعالى : يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون ، ووضع الاسلام قانونا للاتفاق وحفظ المال في قوله : إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، ونهى الدين عن الغلو في طلب الآخرة مخافة أن يهلك ديناه وينسى نفسه فذكرنا بأن الآخرة تنال مع التمتع بنعم الله في الحياة الدنيا فقال : وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن . كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، وبذلك نرى أن الاسلام لم يبخس الحواس حقها كما هبأ الروح لبلوغ كاملها كما يقول محمد عبده ^(١) ، وقد قال عبدالعزيز جاويش أن الاسلام لا يلزم الناس بما ذكره الرسول من معاش الدنيا على سبيل الرأي ^(٢) وروى الشيخ الغلاييني أن : الامام مالك ، يرى أن تراعى المصلحة ولو خالفت النص لأن الله إنما شرع لمنفعة العباد ^(٣) وقال الأستاذ الجليل أحمد بك أمين : إن الشارع — كما قالوا — يدور في تشريعه على حفظ أمور خمسة وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال ولو استقرينا أوامر الشرع ونواهيه لوجدناها تعدى هذه الأمور ولو وفقنا في معرفة ما حله الشرع أو حرمه لوجدناها عكس ذلك ... ^(٤) وبهذا كانت الدعوة للعمل فرضا يلزم به الاسلام عنق كل مسلم قادر عليه كما يقول محمد عبده ^(٥) وأضحى للسك والعمل والمال نصيب موفور في رسالة الاسلام قال النبي : أفضل

(١) الاسلام والنصراية ص ٧٤ — ٧٧

(٢) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٣) الاسلام روح المدينة ص ٣٩ — ٤٤

(٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧

(٥) رسالة التوحيد في « الدين الاسلامي »

الأعمال الكسب الحلال - طلب الحلال فريضة على كل مسلم - من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء - سيأتي على أمتي زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه - نعم المال الصالح للرجل الصالح - إن الله يعطي العبد على قدر همته ونهيمته - من جد وجد ولكل مجتهد نصيب - سافروا تصحوا وتغنموا - التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم - وقال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة - ولقد كان الصحابة - والاسلام في إبان مجده - يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم . . إلى آخر ما يرويه الأستاذ فريد وجدي في تأييد هذه الدعوى (١) .

هذا هو موقف الاسلام من الدنيا وهذه هي نظرتة إلى العمل والكسب من أجلها والظفر منها بأو في نصيب في حدود شريعته ، فأين هذا بالله من الصورة الهزيلة التي رسمها للدنيا أرباب الطريق ؟ أين هذا من الدعوة لترك الدنيا والزهد في نعيمها واحتقار لذاتها واصطناع الخوف وتكلف المتاعب والانقطاع للعبادة والتفرغ للتهجد والتبشير بالبطالة والعيش على إحسان الناس وإباحة التسول وإلغاء الملكية وكره المال والمفاخرة بدوام البعد عنه وسف التراب وضرب النفس بالسياط وقيام الليل وقضاء النهار كله في ادعاء العبادة وتحريم السفر على التاجر متى وجد اللقمة التي يسد بها رمقه والخزقة التي يستر بها عورته . . إلى غير ذلك مما أسلفنا بيانه ؟ أين تعاليم الاسلام من هذه الآراء المريضة التي بشر بها هؤلاء الأدعياء باسم الدين . ؟ لقد انتبه الأستاذ الإمام إلى أن الدعوة للبطالة وفشو الكسل بين المسلمين كان من أثر الدعوة التي قام بها من فسد من المتصوفة (٢) - فكانت هذه ملاحظة قيمة لم يفتن إليها غيره من الكتاب الذين قرأنا لهم في هذا الصدد .

(١) في كتابه سالف الذكر

(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٣٨

وقد صوروا الإسلام في صورة دعوة إلى الفضائل السلبية التي تصلح للعيش في جو كله دعة ورخاء وأمان ، وقبحوا الفضائل التي يتسم بها الأقوياء الراغبون في كفاح الحياة الصالحون لنضال البقاء ، ولو كان الإسلام كما صوروه لما استطاع العرب في إبان مجده أن يشبوا هذه الوثبة الجريئة التي أخرجتهم من جزيرتهم وهبأت لهم في القليل من الزمن طريق السيادة على أعظم دولتين عرفهما التاريخ الوسيط هما الدولتان : البيزنطية والفارسية ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد اهتدى الفساد إليها فأثبتت الإسلام بذلك أنه دين الدنيا والآخرة معا ، وأنه دعوة جريئة إلى العمل والغزو والسيادة وليس دين الذلة والهوان الذي دعى إليه هؤلاء الدجالون حين قالوا إن احتمال الظلم رضا بقضاء الله والتمرد عليه تمرد على حكم الله لأن الظالم أداة الله في عقاب الناس . . إلى آخر هذا الهذر الذي عرفناه من قبل ، ولو كان الإسلام كما صوروه لما قبل عمر أن يقول له اعرابي جلف : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . . ولما رأينا المستنيرين من أئمة الدين أول من يتمرد على الظالمين من الحكام ويشيرون العثير في وجوه الطغاة والمستبدين ، وما عهد جمال الدين الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده والسيد توفيق البكري عنا ببعيد ، بل لقد عرفنا في أواخر العصر العثماني من العلماء الذين يحسبون فهم دينهم ولا يتوانون عن الثورة على الحاكم متى قصر في أداء مهمته ، وكان من هؤلاء الدردير والحفناوي وابن النقيب وغيرهم . . .

ولقد كان وجه الخطر في دعوة هؤلاء الدجالين أنهم تواروا وراء الدين واستغلوا سذاجة الناس وأدخلوا في وهمهم أن آراءهم صفوة الدين وخلاصته ، فأمن الناس بهم وتلقوا عنهم هذه التعاليم عقائد لا يأتياها الباطل في حكم أو رأى فكان لها بالغ الأثر في توجيه الحياة عندهم والانحدار بهم إلى هذا الاضمحلال الذي استغله المبشرون في الهجوم على الدين الإسلامي .

ومن هذا الذي أفضنا في بيانه نستطيع أن نقرر بأن تعلق المصريين بالإسلام في العصر العثماني لم يكن هو الذي انحدر بهم إلى هذا الركود الذي

استبد بهم وأفسد شتى نواحي حياتهم ، وإنما كان ذلك من أثر الدعوات .
الباطلة التي انطلقت في المصريين وكان للتصوفة فيها أعظم قسط وأوفر
نصيب .

ولما لنحمد للنهضة الحديثة تهيئتها الجو للكشف عن بطلان هذه المزاعم
وتحذيرنا من الخطر الذي يهددنا من وراء هذه التعاليم المريضة ، ومعرفة الهوة
السحيقة التي تفصل بينها وبين تعاليم الاسلام الصحيحة ، فانا في عصر لا يعرف
الرحمة ولا يحترم إلا القوة والحديد والنار ، والشعوب تخطئ كثيرا حين
تقتصر على الاعتماد في جهادها على رحمة السماء فان السماء لا تحابي ضعيفا
ولا قويا ، وإنما تترك الخلائق في صراعها ، والبقاء للأصلح والغلبة للأقوى ،
وتواكل الشعوب لا ينجيها من زحمة النضال وسباق الحياة وإنما هو أبلغ
حجة على استهانتها بمصيرها وتسليمها في وجودها وقبولها للهلاك عن جدارة
واستحقاق

...

هذا هو موقف الإسلام من تعاليم المتصوفة ، ومنه نرى أن الاسلام
لم يساهم في الانحدار بالحياة المصرية إلى هذا الاضمحلال ولم يشترك في
توجيهها إلى هذا الركود الذي رأيناه .

ومن الخير أن نقول الآن إن الشعوب في تطورها إلى النضج والكمال
وانحدارها إلى الركود والاضمحلال لا تخضع لعامل واحد وإنما تسير —
فما يلوح من تاريخ التطور — مسوقة بعدة تيارات وحركات لكل منها
نصيبه في هذا التوجيه ، ومثل هذه الدراسات شاق على أهله ، فليس في وسع
الباحث أن يحدد تحديدا رياضيا مدى ما كان للتصوف من أثر في توجيه
الحياة المصرية ، لأن ذلك لا يقاس بمقياس ولا يكال بمكيال ولا يوزن
بميزان ، ولهذا كان الكلام فيه — بالغاما بلغت قوته — عرضة للعجز عن
مقاومة معاول الهدم إن سعت إلى هدمه وانجحت إلى تحطيمه . . .

كلمة خاطفة عنه :

مصادر الكتاب *

التصوف في هذا العصر موضوع بكر لم يتعرض لدراسته أحد الباحثين من قبل ، وقد تساوى في إهماله المستشرقون والشرقيون — قدماء ومحدثون ، ولهذا قلت استعانتى بالمستشرقين فيما سلف من فصول الكتاب ، وإن لم يمنعنى انصرافهم عن الموضوع الذى أدرسه من قراءة الكثير من أبحاثهم التى تناولت التصوف فى الإسلام ، فاطلعت على الكثير مما كتبه نيكلسون وماكدونالد وماسينيون وكوبولانى ولين وفولارز وكارادى فو وغيرهم ، كما عانيت بقراءة الكتب التى وضعها الشرقيون عن التصوف عامة فى غير العصر الذى أدرسه رغبة فى العلم بالتصوف عامة والافادة من ذلك فى تصور الموضوع الذى أدرسه وفهمه على أكمل وجه مستطاع .

أما المحدثون من الشرقيين الذين عرضوا للكتابة عن بعض نواحي التصوف فى هذا العصر فقد كانوا على قلتهم يستعينون بمصادر فى وسعى الرجوع إليها لأنها ما زالت تحت تصرف الباحث وفى متناول يده ، فاعتمادى على كتاباتهم لا يبرره البحث العلمى الصحيح ولا سيما إذا عرفنا أنهم يخطئون النقل والفهم والاستنتاج كما وضع لنا من كتابات جرجى زيدان وتوفيق البكرى ، وهذا فوق أنهم كانوا فى الجملة لا يتناولون ناحية فى التصوف بالدراسة المفصلة أو الموجزة ولكنهم كانوا يعرضون لأفكار تتصل به فيصدرون أحكاما سطحية لا يبررها الواقع ولا ترضى عنها الدراسة العلمية المنظمة .

وعلى هذا فالباحث فى موضوع التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى مضطر إلى الرجوع للمصادر الأولى - أى التى كتبها أهل العصر العثمانى وعالجوا

* من المفيد جدا الاطلاع على ما كتبناه عن المصادر فى كتابنا « الشعرانى إمام التصوف فى عصره ص ١٥٥ وما بعدها لمعرفة أخطاء المستشرقين وفهارس دور الكتب بصدها

فيها شئونهم بالطريقة التي بدت لهم ، وقد كانت طريقتهم في ذلك لا تخرج كثيرا ولا قليلا عن طريقة الفقهاء والكتاب من الشرقيين في هذا العصر وما قبله ، وشر ما فيها سرد المعلومات التي لا تؤلف بينها وحدة في الفكر ولا تلازمها دقة في البحث وان كانت تمتد القارىء بمادة قيمة وزاد دسم .

ولقد شاع بين الناشرين والمهتمين بالعلم من أهل الأجيال التي أعقبت العصر العثماني أن مصر قد أصابها في هذا العهد اضمحلال شاع في كيانها وتغلغل في شتى نواحي حياتها وشوه العلم في رؤوس أهلها ، فأدى هذا الى انصراف أهل العلم عن نشر المؤلفات التي كتبت في هذا العصر مؤثرين الاهتمام بنشر الكتب التي وضعت في العصور السابقة حين كانت الحياة أدنى إلى الازدهار والحالة العلمية أقرب إلى النضج والنشاط ، وما علموا أنهم بذلك يزيدون العصر ظلاما .

فأما الكتب التي صادفتها العناية ووجدت من يقوم بطبعها فقد خرجت من المطابع حافلة بالأخطاء التي دلت على جهل الناشرين وكشفت عن مقصدهم من وراء طبعها ، ولم يكن شيئا آخر الا الربح - وقد حملني هذا على ترك الكثير من هذه الكتب المطبوعة والرجوع إلى أصلها المخطوط رغم ما في ذلك من مشقة تبدو في رداءة الخط وصعوبة الاطلاع على المخطوطات داخل الدار . فاما المصنفات التي بقيت مخطوطة فقد حفظتها لنا دار الكتب المصرية إلى يومنا الحاضر والكثير منها بخط أصحابها ولكن بقاءها إلى اليوم لا يبرر الاعتماد عليها من غير حذر ، فان الدقة كانت تعوز مؤلفيها في كل فكرة تناولوها على وجه التقريب ومعرفة هذا ضرورة لمعرفة العصر على حقيقته . على أن ذلك لا يحظ من دار الكتب لأنها غير مسئولة عن أوزار غيرها وحسبما أنها قامت على حراسة هذه المخطوطات طوال هذه الأجيال ، ولشد ما يتولاني الروع ويشيع في كيانى الجزع كلما تصورت ضررا حاق بهذه الدار وأنى على ما فيها من مخطوطات - لا قدر الله - وإنى لأرجو أن يكون هذا البحث المتواضع كفيلا بتوجيه نظر الناشرين إلى قيمة هذه المخطوطات التي حوتها الدار .

على أن الدار لم تقم بواجبها ازاء هذا العلم الذى تضمنه بين جدرانها ، ومن دلالات تقصيرها الذى تحمل وحدها تبعته ، ما نراه فى نسخ الكتب ، فقد كلفت الناسخين بالإكثار من نسخ بعض المخطوطات ولكنها لم تشترط فيهم أن يكونوا على علم يمكنهم من أداء هذه المهمة بشيء من الدقة والمهارة ، فجاءت الكتب التى نسخوها نموذجاً لرداءة الخط وقبح الأخطاء .

وفهارس الدار فى حاجة إلى نظام جديد يكفل للباحثين سهولة البحث ويخفف عنهم بعض مشقاته وذلك فوق أن الفهارس الحاضرة مليئة بالأخطاء والكتاب الواحد له فيها أسماء قد تبلغ الخمسة ، وسيل البحث فيها ملتو يستغرق الكثير من الوقت ولا يضمن العثور على المطلوب ، وقد وجدت فى أثناء بحثى فى هذه الفهارس وإعداد ثبت بعدد النسخ الموجودة لكل كتاب ، أن الكتاب الواحد قد تكون له نسخ فى فهرس للتصوف ونسخ أخرى ذكرت أرقامها فى فهرس ثان وثالث وبذلك لا يسهل على الباحث أن يعرف جميع نسخ الكتاب الواحد الا إذا تصفح فهرس الدار كلها ١٠٠

على أن الدار مع هذا النقص كله تسد حاجة الباحث وتشبع نهمته متى أوتي الصبر واحتمال المشقات وكان يحثه منصباً على دراسات إسلامية - وقد كتبت عن التصوف فى هذا العصر الحالك فى ظلامه دون أن تصادفت فى حلقة مفقودة فقد وجدت فتراته كلها من يؤرخها ويسهب فى بيان الحياة فيها وإن كانت عصور الاضمحلال تجرى فى شتى مراحلها على نمط واحد ، والتمايز فيها ضعيف لا يكاد يحس وقد لاحظت أن كتاب هذا العصر فى كل مرحلته كانوا يستقون علمهم عن الشعرائى أو يرجعون اليه ويأخذون عنه كثيراً فى كتبهم وإن كان أكثرهم لا يشير الى ذلك .

ورغم هذا فقد اغتبطت بتعدد المصادر فى فترات العصر كلها اذ كان بعضها يمتاز بمادة لا تتوافر فى غيره وكان العلم بها ضرورياً فى الكشف عن بعض آفاق المجهول من هذا العصر ، ففى كتاب (تحفة السالكين ودلالة السائرین للسمنودى) مثلاً أجزاء كاملة مسروقة من كتاب لواقع الأنوار

القدسية في بيان قواعد الصوفية للشعراني ، ورغم هذه السرقة التي لم يشر اليها السمنودي في كتابه فقد زود القارىء ببيانات عن حياة الفقراء في رحاب الزوايا وغير ذلك لم أعثر عليه في كتاب آخر للشعراني أو غيره .

ورحلة النابلسي (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) تضمنت معلومات عن الزوايا والأضرحة وغيرها تعوز المصادر الأخرى التي اطلعت عليها — فتعدد المصادر حتى في عصور الاضمحلال — التي من شأنها أن تسير على نمط واحد ولا يكون بين مراحلها تمايز — خير عظيم ينبغي أن يفتبط له الباحث ويسر به .

وحسبي الآن أن أقول في الدلالة على وفرة المصادر في العصر كله ، أن الفترة التي سبقت العصر العثماني في مصر رجعت فيها الى المقرئى والقلقشندي وبعض المنحضى مين كالشعراني وابن أبياس وأما القرن الأول من العصر العثماني (العاشر الهجرى) فقد أوضح جوانب الحياة فيه الشعراني بمؤلفاته المتعددة وابن أبياس وصاحب الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة (٣ أجزاء) والنور السافر عن أخبار القرن العاشر والسنا الباهر بتكميل النور السافر ورسائل السيد محمد البكرى وغير ذلك كثير .

فأما القرن الحادى عشر الهجرى فقد كتب فيه عبد الرؤوف المناوى مصنفات كثيرة خيرها طبقاته الكبرى والصغرى ثم عبد الغنى النابلسى الذى زار مصر عام ١١١٠ وترك لنا رحلته القيمة من بعض الوجوه والمحجى صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر بأجزائه الأربعة وغير هؤلاء كثيرون . فاما القرن الثانى عشر فحسبه الجبرتي والحفناوى والبيومى ومصطفى البكرى والمليجي والمرادى (صاحب سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر) وغيرهم كثيرون

على أن الظاهرة التى سادت مؤلفى هذا العصر وشاعت في مختلف كتبهم وشتى مصنفاتهم هى السذاجة ، وقد كان روح العصر يبرر وجودها ، وليس أدل على ذلك من أن تكون كتب المناقب خير زاد للطاعنين في أهل هذه المناقب بل لانظن ظاهرة أدل على هذه السذاجة من العجز عن تحليل أبسط الظواهر وأتفها — وقدم بنا الكثير من الأمثلة التى تشهد بهذا في مختلف فصول الكتاب

كتب المؤلف

١ - تأليفاً :

- ١ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني : نشرته مكتبة الآداب في أغسطس ١٩٤٦ .
- ٢ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام : صدر في سلسلة الجمعية الفلسفية في أكتوبر ١٩٤٥ .
- ٣ - الاسلام (بحث مقارنة) : نشرته مكتبة الآداب في سبتمبر ١٩٤٥ .
- ٤ - الشعراني إمام التصوف في عصره : صدر في سلسلة أعلام الاسلام في أغسطس ١٩٤٥ .
- ٥ - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة : نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم في نوفمبر ١٩٣٦ ، وأعادته مكتبة الآداب طبعه في فبراير ١٩٤٦ .
- ٦ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة : تحت الطبع
- ب - ترجمة :
- ٧ - تراث الاسلام : نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم في أكتوبر ١٩٣٦ (للمؤلف فيه ترجمة الجزء الذي وضعه أ . جيوم عن الفلسفة والالهيات - مع التعليق عليه) .
- ٨ - علم الغيب في العالم القديم : وضعه شيمرون ونشرت ترجمته العربية مكتبة الآداب في فبراير ١٩٤٦ .
- ٩ - تاريخ علم الأخلاق : وضعه سدجويك أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة كامبردج وسبقاه في جزئين بعد .

صدر من هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان
- ٢ - علي ماهر
اعداد رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوربا على الشواطىء المصرية في العصور الوسطى
علية عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د. عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضي
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير
د. نبيل راغب

- ١٣ - أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د. سيد اسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمد أنيس

العدد القادم
نظرات فى تاريخ مصر
تأليف : جمال بدوى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٧٠٣٩

ISBN ٩٧٧ - ١١ - ١٩٣٦ - ٩

يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي صدرت في تخصصه ،
وأكثر من ذلك أنه فريد في موضوعه ، فلم يسبقه أو يلحقه عمل
علمي يعالج تلك الفترة بمثل هذا العمق ، ويعتبر الأساس الذي
بنيت عليه كل الأعمال العلمية التي تناولت هذا الموضوع أوجانبا منه

والأستاذ الدكتور توفيق الطويل هو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب
بجامعة القاهرة ،

كما أنه عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة وهو علم من أعلام
حياتنا العلمية ، وقيمة من قيم حياتنا الفكرية وقد حصل على جائزة
الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية (فرع الفلسفة) في عام
١٩٨٣ ، كما أنه عضو بالمجلس الأعلى للثقافة .

١٥٠ قرشا

Bibliotheca Alexandrina



0528361

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب